

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ

صَلِّحُ الْحَاكِمِينَ

عبد محمد بن جوده البخاري

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم
تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في
وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في
الإنجيل كزراع أخرج شطاأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه
يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا
الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

(قرآن كريم)

أنفاس المدينة تسبح ، شهيقها وحى السماء وزفيرها شكر وحمد لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهاج لبديع السماوات والأرض العزيز الحكيم ، وفؤادها أنوار قدسية أضاءها نور النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة قادرة على أن تسمو لتتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زأدها مضاء أنها توكلت على الحى الذى لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت قلوبهم بذكر الله ، ألا يذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله فى داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجى ربه حاضر القلب دافع العين ، حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباته قد ثببت ثنيتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملاء الأعلى على الدوام .

ورأى عليه السلام فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رعوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه مع الطائفين . وفى السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخل مكة والطراف بالبيت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه

وأمانى المهاجرين من أصحابه .

كانت قلوبهم تهوى إلى الحرم وإلى الصفا وإلى الحجون وإلى زيارة قبور الأحبة من المسلمين الذين ماتوا فى مكة قبل الهجرة ، فإذ طالما استرجعت خيالاتهم ذكريات مجنة وذى المعجاز وعكاظ وزمزم وأبى قبيس ودار الندوة وحجر إسماعيل ، وإذ طالما رأوا أنفسهم بأعين الأمانى يحطمون الأصنام التى دنست أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

وارتقى بلال حجرة حفصة وراح يرعى السماء حتى إذا ما حان الفجر تجاوب الأذان فى جنبات المدينة فخرج الناس من الدور من العالية ومن السافلة ليصلوا خلف الرسول . وجاء أبو بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين إلى المسجد فلما قضيت الصلاة اجتمعوا عند أسطوانة المهاجرين ، فأقبل عليهم رسول الله — ﷺ — بآدى البشر ثم أخذ مكانه بينهم وجعل يقص عليهم رؤياه وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بما أتاهم الله ، فقد صاروا جميعا موقنين أن الفتح قريب ، وأن مكة ستفتح لهم أبوابها إن طوعا أو كرها ، فرؤيا الأنبياء حق وما رأى نبي الإسلام عليه السلام رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . وأخبر عليه السلام أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فخفضت القلوب بالسرور وتهللت الوجوه بالفرح وقاموا ليتجهزوا للسفر ، وبعث عليه السلام يستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادر من الأعراب ممن أسلم ، غفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت فتناقل كثير منهم وقالوا : — أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه

فنفقاتلهم !

واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ،
فأنزل الله تكذيبهم في اعتذارهم بقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس
في قلوبهم ﴾ (١) .

وخرج — ﷺ — بعد أن اغتسل بيته وليس ثوبين وركب راحلته
القصواء من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر
الأشهلية ، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من
العرب ، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي وساق معه
الهدى سبعين بدنة فيها جمل أبي جهل الذي غنمه رسول الله —
ﷺ — يوم بدر .

وصلى عليه السلام الظهر بأصحابه بذى الحليفة ، ثم أحرم بالعمرة
وأحرم معه أغلب أصحابه وأشعر من الهدى عدة وهي موجهاة للقبلة
في الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر — ﷺ — ناجية بن جندب ،
وكان اسمه ذكوان فغير عليه السلام اسمه وسماه ناجية لما نجا من
قريش ، فأشعر ما بقي وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم
بجرح صفحة سنامها وقلدوها بأن وضعوا في أعناقها قطعة جلد أو نعل
بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

كان الناس سبعمائة فكانت كل بدنة عن عشرة ، وليس معهم
سلاح إلا السيوف في القرب . وقال له عمر بن الخطاب :
— أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب

عدتها ؟

— لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

وخرج عليه السلام معتمرا في ذي القعدة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه ويعلموا أنه — ﷺ — إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له . وكان مع المسلمين مائتا فرس هي مدخراتهم التي كونوها ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم . كانوا يملكون يوم بدر فرسا واحدة فلما أمرهم الله أن يعدوا ما استطاعوا من رباط الخيل راح — ﷺ — يعنى بتربية الخيول ، وتكوين فرق فرسان المسلمين الخفيفة حتى استطاع أن يخرج إلى مكة معتمرا في مائتي فارس من خيل المسلمين .

وقدّم عليه السلام عباد بن بشر أمامه طليعة في عشرين فارسا ، وبعث بشر بن سفيان الكعبي إلى مكة عينا له ليتحسس أخبار قريش ليكون على بينة من أمر أعدائه ، وإنساب المسلمون في الصحراء وقد ارتفعت التلبية من أعماق القلوب :

— ليك اللهم ليك . ليك لا شريك لك ليك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانشرفت الصدور وانهمرت من الأعين الدموع فهم في الطريق إلى بيت الله الحرام ، وقد طهر الله قلوبهم من الشرك والضلال تداعبهم أمال الطواف بالبيت العتيق والسعى بين الصفا والمروة وإطفاء الظمأ من ماء زمزم ميراث أبيهم إسماعيل ، وما خطر لهم على قلب أن تصدهم قريش عن البيت فالكعبة بيت الله لا يصد عنها أحد من عباد الله ، فإليها يحج العرب من موحدن ونصارى ومشركين .

وبلغ رسول الله — ﷺ — والذين معه عسفان فجاء إليه بشر بن

سفيان فقال :

— يا رسول الله هذه قریش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقیف معهم ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود الثمر ، وقد نزلوا بذی طوی يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الولید فی خیلهم قد قدموها إلى كراع الغمیم . كانت خیل خالد مائتی فرس وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر — صلی الله علیه وسلم — عباد بن بشر فتقدم فی خيله فقام بازاء خالد وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام فاستقبل رسول الله — صلی الله علیه وسلم — القبلة وصف الناس خلفه فرکع بهم وسجد ثم سلم فقال خالد بن الولید :

— قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .
فنزل جبریل بین الظهر والعصر بقول الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ ^(١)

وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم قال المشركون :

— لقد أخبروا بما أردنا بهم .

كانت حركات قريش تدل على أنها تريد منعه ومن معه عن البيت ، فالتفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— أشيروا على أيها الناس . أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقال أبو بكر :

— يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا . وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال عليه السلام :

— هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقتهم التي هم بها ؟

فقال ناجية بن جندب :

— أنا يا رسول الله .

فسلك بهم طريقا وعرا فانطلقوا يضربون فيه حتى نال منهم الجهد ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة

قال — ﷺ :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فارتفعت أصوات المسلمين بالاستغفار والتوبة ، فقال عليه السلام :

— والله إنها للحنة التي عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

قيل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقلوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾ (١) ، فبدلوا وقالوا : حنة استهزاء وجراءة على الله .

ولم يشعر بهم خالد بن الوليد إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيرا لقريش ، ثم أمر — ﷺ — الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديدية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، وأصبح المسلمون على حدود الحرم وإن هي إلا خطوات حتى يصبحوا في الأرض الحرام التي يأمن فيها الطير ، فثارت الدماء في العروق وارتفعت الأصوات بالنهليل والتكبير وخفقت الأفتدة وجدا ، وكان المهاجرون يتلفتون في تأثر وقد غمرتهم إحساسات الشوق بعد أن شموا عير الأرض التي تفتحت عليها أعينهم أول ما تفتحت والتي التصقوا بها التصاق الأبناء بالأم الرعوم حتى أ: ترجهم منها الظالمون بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٢) .

(١) البقرة ٥٨ .

(٢) الحج ٤٠ .

وانطق الرسول عليه السلام على ناقته القصواء والمسلمون من حوله على حيلهم وإبلهم حتى إذا سلك ثنية المرار ولاح له سهل الحديبية ولم يبق إلا أن يتقدم بضعة أميال ليطوف بالبيت ويتحقق كل ما رآه في رؤياه ، إذا بالقصواء قد بركت فاسجفل الناس إليها وقالوا :

— حل حل .

فألحت وتبادت على عدم القيام وض الناس أنها قد حرت فقالوا

— حلأت القصواء .

وعادوا يقولون لها :

— حل حل .

فقال — ﷺ :

— ما حل ؟

— حلأت القصواء .

— ما حلأت « حرت » وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس

القبيل عن مكة .

علم رسول الله — ﷺ — أن ذلك صدد له من الله عن مكة أن

يدخلها قهرا ، فقال عليه السلام :

— والذى نفس محمد بيده لا تدعوني قريش إلى حطة يعطمون بها

حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

كان خالد بن الوليد قد صف فرسانه عند كراع الغميم وهو يحسب أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إلى مكة إلا إذا شقوا طريقهم في فرسانه الذين كانوا في عدة القتال وكان وانقا أن ذلك لن يكون ، فالمسلمون قد جاءوا محرمين ليس معهم إلا السيوف في اقرب ولن تعي سيوفهم شيئا إذا ما عمدوا إلى العف ، ولكن لما سلك المسلمون ذات اليمين في طريق يحرجهم إلى ثنية المرار في غفة منه وأصبحوا على بعد تسعة أميال من مكة ولم ير إلا عيار الحيش ، تيقن أنه قد خدع وأصبح بقاءه في موضعه بلا معنى ، فركض راجعا إلى قريش يدبرهم أن محمد بن عبد الله والذين معه قد بلغوا الحديبية وأنهم في طريقهم إلى الحرم .

كان أبو سميان بن حرب وحكيم بن حزام وكثير من سادات قريش في سوق بصرى في تحارة قريش ، وكان أمر مكة لسهيل بن عمرو . فراح خالد يقص على سهيل وحويطب بن عبد العرى وبديل بن ورقاء سيد بني حراة ومكرر بن حرب أخى بنى عامر والحليس بن علقمة سيد الأحابيش وعروة بن مسعود الثقفى ما كان من المسلمين ، فرأى بنو كعب بنو عامر أن ياحزوا محمدا عليه السلام والدين معه ، ورأى بديل بن ورقاء سيد بني حراة أن يمشى إلى محمد — ﷺ ، وأن يسأله عما أفداه إلى مكة في أصحابه ، فطمر إليه سادات قريش في ربة

حزاعة مسلمها ومشرکہا لا يحفون عیہ — ﷺ — شبا كان بمكة بل يحسرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قريش ربما تفضل ذلك .
وسار بديل بن ورقاء في رجال من حزاعة حتى أتوا رسول الله عليه السلام وهو بالحديبية فقال :

— إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد برأ أعداد مياه الحديبية معهم العود المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .
فقال النبي — ﷺ :

— إنا لم نأت لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن فريشا قد هكتهم الحرب وأصرت بهم فإن شاعوا ماددناهم^(١) مدة ويخلوا يسي وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاعوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا^(٢) ، هو الله لأقاتلهم على أمرى هذا حتى تفرد سالفتي أو ليسفدن الله أمره .
قال بديل :

— سنبلعهم ما تقول .
فانطلق حتى أتى قريشا فقال :
— إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلا .
فقال سفهاؤهم :
— لا حاجة لنا في أن تحدثنا عنه بشيء .

(١) ماددناهم مدة : جعلنا يساء ويسهم مدة ترك الحرب فيها .

(٢) حموا : استراحوا

وقال ذوو الرأي منهم :

— هات كما سمعته يقول .

فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ ، وقال لهم :

— إنه لم يأت لقتال إسماء حاء رائرا لهذا البيت .

فاتهموه ولقوه بما يكره وقالوا :

— إن كان قد جاء ولا يريد قتالا هو الله لا يدحدها عينا عوة أبدا ولا

تحدث بذلك عما العرب ، أيريد محمد أن يدخلها عليا في جنوده

معنمرا تسمع العرب أنه قد دخل عليا عوة وببسا وببسه من الحرب ما

بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبدا وبما عين تطرف .

ثم بعثوا إليه — ﷺ — مكرر بن حصص أخا بني عامر ، فلما رآه

رسول الله عليه السلام مقبلا قال :

— هذا الرجل غادر .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ — وكلمه قال له رسول الله —

عليه صلوات الله وسلامه ، نحوا مما قال لبديل ، فرجع إلى قريش

وأحزهم بما قال له رسول الله عليه السلام ، ثم بعثوا إليه — ﷺ —

الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله عليه السلام

قال :

— إن هذا من قوم يتأهبون (أى يتعبدون) ويعظمون أمر الإله .

اعثوا الهدى في وجهه حتى يراه .

فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائد من عرض الوادى قد أكل أوباره

من طول الحيس عن محله الذى يحتر فيه من الحرم ، واستقبله الناس

يلبسون قد شعثوا صاح وقال :

— سبحان الله ! ما يتبعى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبى الله أن يحج لحم و حدام و يهد و حمير و يجمع ابن عبد المطلب . هلك قريش و رب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمارا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أجل يا أخا بنى كنانة .

و رجع إلى قريش فقال لهم :

— إني رأيت ما لا يحل معي ، رأيت الهدى^(١) في قلائده قد أكل أوباره و الرجال قد شعثوا .

فقالوا له :

— اجلس فإنما أنت أعرابي و لا علم لك .

فعند ذلك غضب الحليس و قال :

— يا معشر قريش والله ما على هد حالفاكم و لا على هذا عاقداكم يصد عن بيت الله من جاء معظما . و الذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد و ما جاء له أو لأنفرن بالأحاييش مرة رجل واحد . كان الأحاييش بنى الهون بن حزيمة و بنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة و بنى المصطلق بن حزيمة تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حُبش هم و قريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سجالين و وضح بهار و مارسا حبش ، فسموا أحاييش قريش . فلما رأى سادات قريش غضب سيد الأحاييش قالوا له :

(١) الهدى ما أهدى إلى مكة من الإبل ، و القلائد . ما يعلق في أعاقها لندالة على أهلها هدى .

— مه يا حليس حتى تأخذ لأنفسنا ما نرضى به .
ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ — عروة بن مسعود الثقفي ، إنه
سمع قريشا يوبخ بديلا ومن معه من خراة فقال :
— يا معشر قريش إني رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد
إذا جاءكم من التميمف وسوء النفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأبى
ولد — وكان عروة لسبعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالدى
بابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آستكم بسمى
— صدقت ما أتت عبدنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ — فحس بين يديه ثم قال :
— يا محمد أجمعت أو شاب الناس ثم جئت بهم إلى بيصتك
لتفصها بهم ؟ يا محمد أرأيت إن استأصت قومك فهل سمعت بأحد
من العرب اجتاحت أصله قلبك ؟ وإنها قريش قد حرحت معها العود
المطفيل^(١) قد لبسو جلود الممر يعاهدون الله لا تدحلها عليهم عوة
أبدا . وى لأرى وحوها وأوشابا^(٢) من الناس حليم أن يفسروا
ويدعوك ، وىم الله لكأبى بهؤلاء قد اكشفوا غدا علك .

وَبو بكر جالس حى رسول الله ﷺ — فقال له :
— اعضض بظر اللات ، أبى ننكشف عنه ؟
وعصب عروة فاللات إلهه الطائف وهو سيد بنى ثصف ، وإنها
لكلمة تحط من شأنه وشأن معبوده فقال فى حق :

(١) المطفيل جمع مطفل وهى دت الطفس

(٢) أوشاب : الأوباش والأحلاط

— من هذا يا محمد ؟

— هذا ابن أبي قحافة .

فقال عروة لأبي بكر :

— لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها .

هم عروة بأن يقول لأبي بكر كلمة عليطة يحييه بها عن كلمته التي قددها في وجهه . ولكنه لما علم أن القائل أبو بكر الصديق أمست فقد كانت لأبي بكر يد عنده لم يحره بها ، فقد استعان عروة في حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثني وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب^(١) ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ — وهو يكلمه وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه عند الملاطفة .

وكان المعيرة بن شعبة واقفا على رأس رسول الله ﷺ ، وقد لمس دعه وعصت حودته وجهه ولم يكن يدوم له إلا عساه — إنه يرى عروة وهو يتناول لحية رسول الله ﷺ — صلوات الله عليه وسلامه — ولا يرى عليه السلام يصح الطير بالطير ، مجمل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ﷺ — بعمل سيفه ويقول —
— اكفف يدك عن من لحية رسول الله ﷺ — فإنه لا يسعى لمشرك ذلك .

فالتفت إليه عروة وقال :

— ويحك ما أظنك وما أعظمتك ، ليت شعري من هذا الذي آذاني

(١) شواب : جمع مفردة شابة .

من بين أصحابك ؟ والله إني لا أحسب فيكم أئمة ولا شر منزلة .
فتسبم — ﷺ — وقال :

— هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبه .

— يا عذر ، والله ما غسلت عك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد
أورثنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

كان المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من
ثقيف صحبهم إلى مصر فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة
فأسلم ، ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيان من ثقيف رهط القتيبي ورهط
المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر .
وراح رسول الله — ﷺ — يحبر عروة بن مسعود أنه لم يأت
لحرب . ورأى عروة ما يصعب به أصحابه إذا تكلم خفصوا أصواتهم
وإذا سقطت منه شعرة أسرعوا وأخذوها ولا يحدون إليه الطر تعظيما
له ، فلما عاد عروة إلى قريش قال لهم :

— يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقبصر في ملكه
والحاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في
أصحابه . ولقد رأيت نوما لا يسموه لشيء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض
عليكم رشد ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم ناصح مع أي أحاف
أن لا تنصروا عليه .

— لا تتكلم بهذا يا أبا يعمر ولكن برده عاما هذا ويرجع إلى
قابل .

— ما أراكم إلا ستصبيكم قارعة (١) .

(١) القارعة : الداهية المفاجئة .

ثم انصرف عظيم القريتين الذي عنته قريش بقولها ، ﴿ لولا نزل
هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ ^(١) ، ومن معه إلى
الطائف . ودعا رسول الله — ﷺ — حراش بن أمية الخزاعي فبعثه
إلى قريش ، وحمله — ﷺ — على بعير له يقال له الثعلب ليدفع
أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبي جهل رسول الله عليه
السلام ، وأراد القوم قتل حراش فسمعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى
رسول الله — ﷺ — وأحبره بما لقى .

وبعث قريش أربعين رجلا منهم وأمروهم أن يطعموا بعسكر رسول
الله — ﷺ — ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا وأتى بهم
رسول الله — ﷺ — فعما عنهم وحلى سبيهم وكانوا رمو في
العسكر بالحجارة والبل .

لم يقدم المسلمون لحرب بل جاءوا الرياسة أول بيت وصع للذس ،
فلم يحملوا معهم عتاد الحرب إلهم إلا السيوف في القرب ، وقد قال
عليه السلام لكل من جاءه من قبل قريش أنه لم يأت لقتال وإنما جاء
رائرا نسي . وقد بعث إليهم حراش بن أمية الحزاعي عنى جمل له
ليقول لقريش إنه عيه السلام لم يأت لقتال فعقروا الجمل وأرادوا قتل
حراش لولا أن منعه الأحابيش ، فبو أنه جاء يغني الهجوم على مكة
لو جد سبيل للحرب في عقر حمل رسول الله ولكنه كان صادقا في التماس
السلام ، فرأى أن يبعث إلى سادات قريش عمر بن الخطاب سميرهم
في الجاهلية فدعاه ليلع عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر :

— يا رسول الله إني أخاف فريشا على نفسي وما بمكة من بى
عدى بن كعب أحد يمعى وقد عرفت فريش عداوتى إياها وغلظتى
عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها مى : عثمان بن عفان .

كان بنو أمية بى عم عثمان وكانت بهم الكلمة العليا فى مكة ، فإن
كان عثمان قد أسلم وأصبح ذا البورين لزواجه من ابنتى رسول الإسلام
فالعصية القنبية لى تسمح بقتل عثمان وإلا لحق عار ذلك بى أمية ،
فدعا رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان إلى أشرف فريش يخبرهم
أنه لم يأت بحرب وأنه لم يأت إلا رائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة ،
وأمر عثمان أن يأتى رجالا من المسلمين بمكة وساء مسلمات ويدخل
عليهم ويشرهم بالفتح ويحبرهم أن الله شريك أن يظهر ديه بمكة حتى
لا يستحمى فيها بالإيمان .

وانطلق عثمان إلى مكة ، وجاء عشرة من الصحابة إلى رسول الله
ﷺ — يستأذونه فى الدحول إلى مكة ليروروا أهلهم فأذن لهم ،
ولاحت لعثمان جمال مكة واستشق عبير الأرض المقدسة فحفق قلبه
شوقا . ولقيه قبل أن يدخل أم القرى إبد بن سعيد بن العاص فأجاره
حتى يلع رسالة رسول الله ﷺ .

وانقضى اليوم الأول والمسموم فى الحديبية يترقبون سيطرة
عثمان . وقال بعضهم :

— قد حص عثمان إلى البيت فطاف به دوسا .

فقال رسول الله ﷺ :

— ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

— وما يمعى يا رسول الله وقد حص إليه ؟

— ذلك طنى به أن لا يطوف بالكعبة حتى يطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

(٣)

كان سهيل بن عمرو وسادات قريش جالسين فى ظل الكعبة وتقدم عثمان بن عفان بين يدى إبان بن سعيد بن العاص ، فلما رأوه مدوا إليه أعينهم وقد لاح فى الوجوه تسأؤل فقال إبان :
— إني قد أجرته حتى يبلغ رسالة محمد .

واربد وجه عكرمة بن أبى جهل فهو لا يريد سلاما بل حربا لرسول الله ﷺ — ومن جاء معه من المهاجرين والأنصار ، وشرذ حالد ابن الوليد يفكر فى تلك الصلاة التى صلاها المسلمون بالعصر بعد أن قال لما شهد صلاة اطهر : « قد كانوا على عرة ، لو حملنا عليهم أصنامهم ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبائهم » . وأتت الساعة وصلى أبو القاسم بأصحابه صلاة الخوف وقال المشركون : لقد أحبروا بما أردنا بهم ، ومنذ ذلك الوقت حمر ذلك القول فى وجدان حالد وجعله يفكر فى كل ما قاله محمد بن عبد الله فانتضحت لعين بصيرته بعض جواب الحقيقة حتى كاد يصدق أن أبا القاسم يأتيه الخبر من السماء .

وراح عثمان بن عفان يبعثهم عن رسول الله ﷺ — ما أرسله به وحالد يصمى فى انشائه وأصوات تصيح :
— إن محمدا لا يدخلها علينا أبدا .

فيصيق بتلك الأصوات ويرهف السمع إلى قول عروة بن مسعود قبل أن يصرف ومن معه إلى الطائف : « يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنحشى في ملكه ، والله ما رأيت منكاً في قومه مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسمونه لشيء أبداً فروا رأيكم فيه عرص عليكم رشداً فاقبلوا ما عرص عليكم فأبى لكم ناصح ، مع أبى أخاف ألا تصبروا عليه » .

إن صراعاً قد شب في جوف خالد ، ولو أصاح السمع لصوت العقل لهب من مجلسه ولأعلن على الملأ أنه يرى رأى عروة بن مسعود وأنه من الظلم أن يصد إنسان عن بيت الله الحرام ما دام لم يأت إلا رائراً لببيت ومعظماً له ، ولكنه أشاح عن صوت عقله لما فرغ عثمان بن عفان من تلبيح رسالة أبى القاسم ولما ارتفع صوت إيان بن سعيد بن العاص يقول لعثمان :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

وألقي خالد سمعه إلى عثمان فلما سمعه يقول :

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ .

فعاد خالد بن الوليد يفكر في الإسلام وبني الإسلام فيستشعر كأن أنواراً تداح في عيب ذاته تبدد ما ران عليها من ظلمات .

ومرت أيام ثلاثة ولم يعد عثمان بن عفان من سفارته ، فانتاب المسلمين قلق وراح المهاجرون والأنصار يتساءلون عما أصاب عثمان ، وكان الجد بن قيس في الأنصار وكان سيد بني سلمة في الحاضرة ، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قال عليه السلام لبني سلمة :

— من سيدكم ؟

قالوا :

— الجند بن قيس على البحل فيه .

— وأى داء أدوا من البحل ؟

ثم قال — ﷺ :

— بل سيدكم عمرو بن الجموح

وراص الجند بن قيس قلبه على الفسق فكان يبدى بلسانه ما ليس في قلبه ، وكان عبد الله بن أبي بن سلول في القوم فكان يحاول في دهاء أن يموت في عصد المسلمين وأن يجعلهم يعضون من حول رسول الله عليه السلام ، لقد بعثت قريش إلى أبي بن سلول :

— إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل .

فقال له ابنه عبد الله :

— يا أبت أدركك الله أن لا تفصحنا في كل موطن . تطوف ولم

يطف رسول الله — ﷺ ؟

فأبى حيثذ رأس المنافقين وقال :

— لا أطرف حتى يطوف رسول الله .

ومر بالمسلمين ناس من المشركين يريدون العمرة فقال المسلمون :

— نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فُصُلًا مِنْهُمْ وَرِصُونًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَحْرِمُكُمْ شَتَاؤُ قَوْمٍ أَنْ

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعبدوا وتعاونوا على البر والتعوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴿١﴾ .
فتركهم ينطلقون إلى بيت الله حتى إذا ما أذن بلال بصلوة الظهر توجهوا إلى القفلة يصلون حلف رسول الله ﷺ ، فلما قصبت الصلاة ذهبوا يلتمسون اطل ، وتمدد رسول الله ﷺ تحت شجرة الطلح وإذا برجل جاء إليه يسعى ويقول :

— قتل عثمان بن عفان .

فهد رسول الله ﷺ — من رقاذه وقال :

— لا يبرح حتى تناجز القوم .

والتفت عليه السلام إلى من عنده وقال :

— إن الله أمرني بالبيعة .

فبينا الناس جنوس قائلون إدا نادى عمر بن الخطاب .

— أيها الناس البيعة نزل بها روح القدس ، فأخرجوا على اسم الله .

فساروا إلى رسول الله ﷺ — وهو تحت شجرة قد قام على رأسه

عبد الله بن معقل وفي يده عص من السحرة (٢) يذب عنه ، ولم يتحلف

مهم أحد إلا الحد بن قيس فقد التصق بإبط ناقتة يستتر بها من الناس !

وكان أول من بايعه — رسول الله ﷺ — سنان بن أبي سنان الأمدى .

فوضع يده على يده عليه السلام وقال :

— أبايعك على ما في نفسك .

— وما فى نفسى ؟

— أضرب بسيفك بين يديك حتى يطهرك الله أو أقتل .

وصار الناس يقولون له :

— نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

وبايعهم عليه السلام على ألا يعروا ، وبايع عن عثمان فوضع يده

اليمنى على يده اليسرى وقال :

— اللهم إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فانا أبايع

عه .

وراح الناس يتحدثون عن قتل العشرة الذين دخلوا مكة بإذن رسول

الله عليه السلام حتى جن الليل وقام محمد بن مسلمة على حرس

رسول الله — ﷺ ، فبعثت قريش خمسين رجلا عليهم مكر بن

حفص وهو الذى بعث قريش له — ﷺ — ليسأله فيما جاء وقال —

ﷺ — فى حقه : هذا رجل غادر ، فراحوا يطوفون بعسكر رسول الله

رجاء أن يصيبوا منهم أحدا ويحدثوا معهم عرة ، فلمأخذهم محمد بن

مسلمة إلا مكرزا فإيه أفلت ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم — فحبسوا .

وبلع قريش حبس أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين

بالبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن ريم روى بسهم فأمر

المسلمون منهم اثني عشر رجلا . وعند ذلك بعث قريش إلى رسول

الله — ﷺ — جمعا على رأسهم سهيل بن عمرو فعلم أن عثمان قد

حبس وكذلك العشرة الرجال ، فاطمأن المسلمون على أصحابهم

وقال رسول الله — ﷺ — لمن حبسوا عنده :

— سهيل أمركم ؟

فقل سهيل :

— يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى دوى رأيا ، بل كما كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفيها ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا .

— إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي .

— تفعل .

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك فعثوا بهم كان عندهم وهم عثمان والعشرة الرجال ، وأسرع المسلمون إلى عثمان يستقبلونه بالترحاب وقالوا له :

— طفت بالبيت ؟

فقال عثمان في عتاب :

— بشما طننم بي ، دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .

والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا سنة ورسول الله ﷺ —
مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ .

وأنزل الله تعالى . ﴿ إِنْ الدِّينَ يَبِيعُوكَ إِنْما يَبِيعُونَ اللَّهَ بِدَلَالَةِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ يَبِيعُكُمْ فَمَنْ يَبِيعُكُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَكْفُرُ بِآيَاتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

وعلمت قريش بهذه البيعة فحافوا وراحوا يتشاورون في أمرهم

وتمسوا لو أن أنا سفيان بن حرب كان فيهم ليرجعوا إليه ، ولم يحدوا
 حيرا من الصلح فقالوا لسهيل بن عمرو :
 — إيت محمدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عما عامه
 هذا .

فأناه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ — قال :
 — قد سهل أمركم ، القوم مأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم
 الصلح ، فابعثوا الهدى وأظهروا التنية لعل ذلك يلبس قلوبهم
 فلبوا من نواحي العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية ، وانتهى ابن
 سهيل عمرو ومكرز بن حمص وحويطب بن عبد العري إلى رسول الله
 ﷺ — وجنا سهيل على ركبته بين يديه — ﷺ — والمسلمون
 حوله جلوس وتكنم فأطال ، وقال له — ﷺ :
 — تحلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال له سهيل :
 — والله لا نتحدث العرب بنا أنا أخذنا صُغطة (أى بالشدّة
 والإكراه) .

ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن
 الخطاب إلى أبي بكر الصديق فقال :
 — يا أبا بكر أليس برسول الله ﷺ — حقا ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشرّكين ؟

- بلى .
- فعلام معطيهم الدنية^(١) في ديننا ؟
- أيها الرجل إنه رسول الله وليس بعصى رأيه فاستمسك به^(٢) حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .
- أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت فطوف به ؟
- بلى ، أفأخبرك أنك تأتية العام ؟
- لا .
- فإنك آتية ومطوف به .
- ثم جاء عمر إلى رسول الله ﷺ — فقال :
- أأنت رسول الله ؟
- بلى .
- أأنتا على الحق وعدونا على الباطل ؟
- بلى .
- فلم تعطى الدنية في ديننا إذا ؟
- إبنى عبد الله ورسوله لى أخالف أمره ولن يصيغنى .
- أأنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فطوف به ؟
- بلى ، هل أخبرتك أنك تأتية العام ؟
- لا .
- فإنك آتية ومطوف به .

(١) الدنية الحصلة الحسيسة .

(٢) فاستمسك به^(٢) أى تمسك بأمره فلا تخالعه . والعمر للإبل بمرنة

الركاب للعرس

كانت قريش تأتي أن تلقى أسماعها إلى محمد ﷺ ، بها اضطهدهم مد جاء إليهم من غار حراء يقول لهم إنه رسول الله إليهم . نال منه الرجال وآذوه واضطهدوا أصحابه أشد الاضطهاد وأرغموه أن يخرج من مكة هو وغلame زيد بن حارثة فلجأ إلى الطائف فراحوا يرضحون رحليه بالحجارة حتى سالت الدماء في طريق الآلام .

إنه ما عاد إلى مكة إلا في حوار سيد من ساداتها ، ولم يطل مكثه بها فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى المدينة وأن يترك أم القرى وفي القلب لوعة فهو يغادر أحب أرض الله إليه . ولم ترض قريش عن هذه الهجرة فشب القتال بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخبو له أوار ، وقد كان أمل قريش أن تقضى على أسما الذي سعه أحلام الآباء .

كانت قريش تطلب رأسه وإذا بها اليوم تقبل أن تجلس معه لتهادنه ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز ، وإنه لتصر عظيم أن تقر قريش برعامته على المدينة ولكن المسممين المعترين بإسلامهم ما كانوا يرون في معاهدة قريش نصرا .

سم الانفاق شعاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى العام القابل ، وعلى أن تحلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يظوفون فيها بالبيت الحرام ، وعلى أن لا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف في القرب ، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكما عن

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأمر رسول الله — ﷺ — أوس بن حولة أن يكتب فقال له سهيل :

— لا يكتب إلا ابن عمك أو عثمان بن عفان .

فدعا عليه السلام على بن أبي طالب فأمره فقال :

— اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو :

— لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم .

قال المسلمون :

— والله لا يكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم .

وصح المسلمون فقال رسول الله — ﷺ — :

— اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ، ثم قال عليه السلام :

— اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

— والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا

قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— والله إني لرسول الله ولو كذبتهموني .

ثم قال لعلي :

— اصح رسول الله .

— والله لا أمحوك أبدا

وأحد أسيد بن حضير وسعد بن عباد على كرم الله وجهه ومعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيضا وبهم . وصحت المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون :

— لم نعطي هذه الدنية في ديننا ؟

فجعل رسول الله ﷺ — يحفظهم ويومئ بيده إليهم أن اسكتوا ، ثم قال لعلي : — أريه .

فأراه إياه فمحاها رسول الله ﷺ — بيده وقال .

— اكتب : هذا ما قاصى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر مسين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يتبع من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى محمدا من قريش بعير إذن ونيه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا :

— سبحان الله ! كيف رد للمشركيين من جاء مسلما ؟

وعسر عليهم شرط ذلك ، وقال عمر في انفعال :

— يا رسول الله أتكتب هذا ؟ أترضى بهذا ؟

فتيسم — ﷺ — وقال :

— من جاءنا منهم فردناه إليهم سيحعل الله به فرجا ومخرجا ،

ومن أعرض عما رذهب إليهم فلسا منه في شيء وليس ما بل هو أولى بهم .

فبينا رسول الله ﷺ — هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف في الحديد متوشحا سيفه . انه كان قد أسلم وحسنه أبوه فلما سمع بأن المسلمين في الحديدية فر من سحبه وجاء إلى رسول الله ﷺ — ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، وحف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو من صفوف المسلمين وراح يحتصه ويقيه ، وهرع المسلمون إليه يرحون به ويهثونه . فلما رأى سهيل انه أبا جندل قام إليه وأخذ عصا من شجرة به شوك وصرب به وجه أبي جندل صرنا شديدا حتى رقى عليه المسمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلايب ابنه وقال :

— يا محمد هذا أول ما أقاصيك عليه أن تردده إلي ، لقد لحت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ؟

— لم نفض الكتاب بعد .

— بل لقد لجت القضية بيني وبينك (أي تم العقد) .

— صدقت .

فجعل سهيل يحرقه ويرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين يصبوني عن ديمي ، ألا

ترون ما لقيت ؟

ورأى المسلمون آثار التعذيب ، إنه اضطهد ليرجع عن الإسلام

وإن رسول الله ﷺ — يقبل أن يرده إلى قريش ليعدوه . فزاد

الناس ذلك إلى ما بهم ودخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فقال رسول الله ﷺ :

— يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومحرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم ذلك وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم .

وقال النبي ﷺ — لسهيل :

— فأحره لي .

— ما أنا مجبر ذلك بك .

— بلي فافعل .

— ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب :

— قد أجزناه لك ، لا بعديه .

وقال حويطب لمكرز :

— ما رأيت قوما قط أشد حيا لمن دخل معهم من أصحاب

محمد ، أما إني أ أقول لك : لا تأخذ من محمد شيئا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عوة

فقال مكرز :

— وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب ومشى إلى حب أبي جندل وأبوه

سهيل بحضه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبي جندل :

— اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم كدم

كلب .

وراح يدنى قائم السيف منه وهو يرجو أن يأخذ السيف فيصرب به أباه ، فصن الرجل بآيئه .

ودخل أبو جندل مكة في جوار حويطب ومكر ، وعاد سهيل ليستأنف كتابة الهدنة فقال النبي ﷺ :

— وإن ييسا عيبة^(١) مكموفة ، وإنه لا إسلال ولا أعلال^(٢) . وأنه من أحب أ يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه فتواثبت خراعة فقالوا :

— نحن في عقد محمد وعهده ونحن على من وراءنا من قوما . وتواثبت بنو بكر فقالوا :

— نحن في عقد قريش وعهدهم . وهمس حويطب في أذن سهيل :

— بادأنا أخوانك بالعداوة وكانوا يستترون ما فذلحوا في عهد محمد وعقده .

وفهم سهيل أنه يقصد خراعة فقال في صوت حافض :

— ما هم إلا كعيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمنا قد دخلوا مع محمد

قوم احتاروا لأنفسهم أمرا فما نصنع بهم ؟

— نصنع بهم أن نصر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

— إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإبهم أهل شؤم فيسبوا خراعة

فيغضب محمد لحلفائه فيقض العهد بيننا وبينه .

فقال رسول الله ﷺ :

(١) أى أمورا مطوية في صدور سليبه (٢) أى لا سرقة ولا حيانة .

— وعلى أن تخلوا يسا ويبس البيت فطوف به .

فقال سهيل :

والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضمعة ولكن لك ذلك من العام المقبل .

فكتب . وعلى أن ترجع عما عامك هذا فلا تدخل عليها مكة ، فإذا كان عدم قابل خرجنا عنها لك مدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القرب وسلاح الراكب .

ولقي عمر من تلك الشروط أمرا عظيما ، وجعل يرد على رسول الله ﷺ — الكلام حتى قال أبو عبيدة بن الجراح .

— ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فحمل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حتى قال له رسول الله ﷺ —

— يا عمر إني رضيت وتأبى !

وفرع رسول الله ﷺ — من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين : أنا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ورجالا من قريش حويطا ومكرزا .

وقال سهيل بن عمرو .

— يكون هذا الكتاب عندي .

وقال رسول الله ﷺ — :

— بل عندي .

فأخذه رسول الله — ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة لسهيل نسخة أخذها عنده .

كان جمل أبي جهل في الهدى في رأسه حقة من ذهب ، فمر من الحديبية ودخل مكة ، انتهى إلى دار أبي جهل وخرج في أثره عمرو ابن عمة الأنصاري فأبى سمهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، قال :

— إن تردوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل فإن قلها فأمسكوا هذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له .

فعرضوا عليه — ﷺ — ذلك فأبى وقال .

— لو لم يكن هذا الحمل للهدى لقبت المائة

كان أصحاب رسول الله — ﷺ — خرجوا وهم لا يشكون في المتح بعد أن قص عليهم رؤياه ، فلما انتهى الأمر بالهدنة دخل الناس أمر عظيم ، فلما قال عليه السلام لأصحابه :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

لم يقم منهم أحد فعاد يقول :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

إبهم يسمعون ويرونه ولكنهم أبوا أن يطيعوا أمره ، فقال :

— قوموا فأنحروا ثم احلقوا .

فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله — ﷺ — على أم سلمة

وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت :

— ما لك يا رسول الله ؟

— عجبا يا أم سلمة ، ألا تريد إلى الناس ! أمرهم بالأمر فلا

يفعلونه ، قنت لهم . اخلقوا وانحروا وحلوا مرارا فلم يحسن أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي ويظرون وجهي .

— يا رسول الله لا تلمهم فإيهم قد دحهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . يا نبي الله اخرج ولا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر يدتك وتدعو حلاقك فيحلقك .

وأحد عليه السلام الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى الدن رافعا صوته :

— باسم الله والله أكبر .

ثم دخل — ﷺ — قبة له من آدم^(١) أحمر ودعا بحراش بن أمية ابن الفضل الخزاعي فحلق رأسه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فأنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا عما ، وحلق رجال وقصر رجال وهم يقولون :

— لعننا بطوف بالبيت .

فقال رسول الله — ﷺ :

— يرحم الله المحلقين .

قالوا :

— يا رسول الله والمفصرين ؟

— يرحم الله المحلقين .

— يا رسول الله والمفصرين ؟

١ (١) الأدم : الجند .

- يرحم الله المحلقين .
- يا رسول الله والمقصرين ؟
- يرحم الله المقصرين .
- يا رسول الله فلم تظاهرت بالترحم على المحلقين دون المقصرين .
- لأنهم لم يشكوا .

(٥)

عابت الشمس في الأفق العربي وراح الليل يجرحر أدياله على الحديدية ، وقل أن يؤذن بلال بالعشاء أصابهم مطر لهم ييل أسفل نعالهم فقال عبد الله بن أبي بن سلول :

— هذا بوء الخريف مطرنا بالشعري .

وحان أوان العشاء فارتفع صوت بلال بالأذان فأمر — صلى الله عليه وسلم —
 مباديه أن يبادى ألا صلوا في رحالكم ، فصلى عليه السلام في قفته
 وصلى الناس في خيامهم وقد توجهوا إلى البيت الحرام وفي قلوب
 أشواق وفي النفوس أحرار . فقد حرحروا من المدينة لا يشكون لحظة
 هي أنهم سيطوفون بالبيت فإذا برسول الله — صلوات الله وسلامه
 عليه — يقبل ذلك الشرط الذي اشترطه قريش من أن يرجع عنهم عامه
 هد فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان عام قابل حرجوا عنها له فدخلها
 بأصحابه فأقام بها ثلاثا .

كان عزيزا عليهم أن يصنوا إلى الحديدية وأن يشموا عبير الحرم ثم

يدوروا على أعقابهم راحمين دون أن تكتحل أعينهم بتراب مكة وأن يطوفوا بالبيت وأن يشربوا من زمزم وأن يسعوا بين انصافا والمروة ، فكانوا في عظمتهم وفي مآثمهم يحسمون باستلام الحجر والطواف والتكبير والتهليل .

وهي الفجر جلجل صوت بلال بالأذان فخرجوا من رحالهم واصطف خلف رسول الله — ﷺ — حتى إذا قصيت الصلاة قال : — أتدرون ما قال ربكم ؟

— الله ورسوله أعلم .

— قال الله عز وجل : (أصبح من عبدي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بي وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بحكم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي) .

وأحس عبد الله بن أبي وخزأ يخز روحه ولكنه لم يضطرب ، فإيا طائفا فاق ويا طائفا قال لرسول الله — ﷺ — استغفر لي فيستغفر له .

وأمر رسول الله عليه السلام بالرحيل فحمت الخيام على ظهور الإبل ورفعت النساء في الهودج ، وانطلق جيش المسلمين قاصدا المدينة وقد حلف وراءه شجرة الرضوان ودكريات أليمة على النفوس ، وقد كان أقساها أنهم طووا ملابس الإحرام دون أن يطوفوا بالبيت العتيق .

وظل الناس صامتين في وجوههم أسى ، فقد حيل بينهم وبين سكهم فهم بين الحزن والكآبة حتى سقط الليل ، ودنا عمر بن الخطاب من رسول الله — ﷺ — فسأله عن شيء فلم يحبه ، ثم سأله فلم يحبه ، فحرك عمر بعيره حتى تقدم أمام الناس وحشى أن يكون نزل فيه قرآن .

وبلع رسول الله — ﷺ — كراخ الغموم فوقف على راحتته فراح
الناس يشطون رواحهم بالحذاء ، فقال بعض الناس لبعض :

— ما بال الناس ؟

— أوحى إلى رسول الله — ﷺ .

فخرحوا يعدون^(١) السير فوجدوا انبي — ﷺ — واقفا على
القصواء ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبين ، ليعرف لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * ويصرك الله نصرا
عزيرا * هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع
إيمانهم والله جود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما * بدخل
المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها
ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما * ويعذب
الماضقين والمافقات والمشركين والمشركات الضالين بالله طئ أسوء
عليهم دائرة أسوء وعصب الله عليهم ولعهم وأعد لهم جهنم وساءت
مصيرا * والله جود سموات والأرض وكان الله عزيرا حكيما * إنا
أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعرووه وتوقروه
وتسبحوه بكرة وأصيلا * إنا الذين يباعدون الله يذ الله فوق
أيديهم فمن نكت فأينا يكتث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فسيؤتيه أجرا عظيما . فيقول لك المخمومون من الأعراب شعسا مؤالما

(١) أعد السير : أصرع فيه

وأهلونا فاستعمر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم صرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل طسنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وطمنتم طس السوء وكتتم قوما نورا • ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإن أعتدنا للكافرين سعيرا • والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غمورا رحيمًا •

سيقول المحفلون إذا اطلقتهم إلى معانم لنا أخذوها دروبا تتبعكم يريدون أن يدلوا كلام الله قل لن تبعوا كذلككم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدونا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا • قل للمحفلين من الأعراب استدعوا إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلوهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليت من قبل يعذبكم عذابا أليما • ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما • لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأرسل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا •

ومعانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما • وعدكم الله معنم كثيرة تأخذونها فعحل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما • وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا • ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يحدون ولما ولا نصيرا • سئة الله التي قد حدث من قبل وس تحد سئة الله تبديلا • وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطء مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا • هم

الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ
 مجله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم
 فتصيبكم منهم فقرةٌ بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تريتوا
 لعدبا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً * إذ جعل الذين كفروا مني قومهم
 الحميئة حميئة الجاهلية فأمر الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين
 وأمرهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء
 عليماً * لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن
 شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تحافون علم ما لم تعلموا
 ففعل من دون ذلك فتحاً قريباً * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
 الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً * محمد رسول الله
 والدين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتعون
 فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم
 في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره واستعطف
 فاستوى على سوقه يعجب الزراع يعيط بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرٌ عظيم (١) .

فقال عمر :

— أفتح هو يا رسول الله ؟

— نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح .

وتكلم بعض الصحابة وقال :

— ما هذا يفتح نقد صدورنا عن البيت وصد هديا .

فقال — ﷺ — لما بلغه ذلك :

— بئس الكلام بل هو أعظم الفتح لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأضرهم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلورون على أحد وأن أدعوكم في أحراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ راعت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتطون بالله الطون ؟

فقال المسلمون :

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتح ..

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، وما كاد يستقر بها حتى هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله — ﷺ — إليها عرفت أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل أبيها يوم بدر فلم تحقد على نبي الإسلام فقد كانت تعرف أنه علي الحق وأن أباه عبي الباطل ، فتم تأخذها لعة بالإثم بل حلت وفيه لدينها الذي اشرح به صدرها واطمأن به فؤادها .

إبها سمعت بالمسلمين هي الحديبية فهرها الشوق إلى الحروح إلى إخوانها المسلمين فحرحت من مكة لتلحق بالأحبة ، ولكنها سفت الحديبية بعد أن تركها رسول الله عليه السلام ، فلم ترص بالعودة إلى المشركين بل رحت تشتد على الطريق وحدها وقد تورمت قدمها من المشى ولكنها كانت تقاوم التعب ، فكل خطوة كانت تديها من النور

الذى شاع من المدينة ليعمر العالمين .

إنها أحت عنمان بن عفان لأمه ، فلما بلغت انمدينة لم تفكر في أن تذهب إلى دار أخيها بل اتجهت إلى بيع النور إلى دور الرسول عليه السلام ، ودخلت على أم سلمة وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وراحت تشها مخاوفها أن يردها رسول الله ﷺ .

فلما دخل ﷺ — على أم سلمة أعلمته بها فرحب بأمر كلثوم ، فخرج أخواها عمارة بن عقبة والوليد بن عقبة بن أبي معيط في ردها بالعهد ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ عليه السلام قالا .

— يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه .

ودخل عليه السلام على أم سلمة وعندها أم كلثوم فأحمرها أن أخويها يظلبان ردها بالعهد الذى بينه وبين قريش ، فقالت بست عقبة . — يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فتردنى إلى انكفار يفتنوى ولا صبر لى .

وخرج رسول الله ﷺ — من عندها وهو فى حيرة من أمره أيردها إلى الكفار ليتموها ولا صبر لها على إيدائهم أم يحبسها عنهم ، وفيما هو يفكر نزل عليه الروح الأمين . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ مِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مَوَاطِنَ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لِهِنَّ وَأَتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥ وَإِنْ فَتَكُم شَيْءٌ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَانْتَبِهُوا الَّذِينَ أَرْوَاجُهُمْ مِثْلُ مَا أَنْفَقُوا ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥

واتقوا لله الذي أنتم به مؤمنون ﴿١﴾ .

ودخل عمر بن الخطاب ليمتحن أم كلثوم بنت عقبة فحلبها بالله ما حرجت رعة بأرض عن أرض ، وبالله ما حرجت من بعض روح ، وبالله ما حرجت لالتماس دينا ولا رجل من المسلمين ، وبالله ما حرجت إلا بحال الله ورسوله .

وحلفت أم كلثوم فنقطعت كل أمل بداعب أحويها في ردها فعادا إلى مكة وأحرأ قريشا بذلك فرصوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأم كلثوم روح بمكة . فلما قدمت المدينة زوجها عليه السلام ريد بن حارثة ولم تثر هذه الريحه ربيعة بين المؤمنين ، بعد أن روح نبي الإسلام صوات الله وسلامه عليه مولاه من أنة عمته الشريفة السب ريب بنت جحش . فقد قصي الإسلام على عادة استهجان رواح المولى من الحرة وعرس هي القوس أن الناس سواسية وأن لا فصل لعربي على عجمي إلا بالتقوى

أمر الله المسلمين بالآلا يمسكوا بعصم الكوافر . فلما نزل نهى المسلمين عن القاء على مكاح المشركات طلق الصحابة كل امرأة كافرة في نكاحهم ، حتى أن عمر بن الخطاب كان له امرأتان فطلقهما فتروح إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية .

وحاءت إلى رسول الله ﷺ — جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة من حملتهن سبعة بنت الحارث ، فأقبل زوجها وهو مسافر المحزومي طالبا لها ، فاستحلف — ^{بالله} — سبعة

محلفت أنها ما هاجرت ناشرة ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ،
فأعطى — ﷺ — روحها مسافرا ما ألحق عليها فتزوجها عمر بن
الحصص ، فما كانت تترك امرأة مؤمنة في المدينة دون أن تحصص .

(٦)

حرج — ﷺ — على أصحابه فقال :
— أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة فأدوا عني رحمكم الله ،
ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه
السلام .

فقال أصحابه :

— وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول
الله ؟

— دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه معثا قريبا فرصى
وسلم ، وأما من بعثه معثا بعيدا فكره وأبى .

وكتب — ﷺ — كتابا إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فقبل له :
— يا رسول الله بهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان محتوما .
فاتحد رسول الله — ﷺ — خاتما من فضة ، وكان نقش خاتمه
ثلاثة أسطر محمد سطر ، رسول سطر والله سطر وبعد أن حتم
الكتاب قال :

— من يطلق بكتابي هد فيسير إلى هرقل وله الحبة ؟
فتقدم دحية الكلبي وأخذ الكتاب ثم أطلق إلى بصري فإذا بالرومان

والعرب يهوج بعضهم في بعض في الأسواق وهي الطرق وفي كل مكان ، فإن هرقل قد انتصر على فارس وقد جاء ماشيا إلى بيت المقدس وفاء لبدرة الذي بذرته بربه إذا ما بصره الله .

كان السير الروماني يفرغ على الدور وعلى الحيوانات وعلى مباني الحكومة ، وكانت الأسواق عاصة بالسلع التي جاءت من القسطنطينية ومصر وسورية واليمن ، وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وسادات قریش في عرة عاكفين على شراء الحطة والحمور والحرير وأواني الذهب والفضة بعد أن باعوا البخور وما حباه من اليمن في رحلة الشتاء .

واطلق دحية إلى الحارث ملك عسان عظيم بصرى والتمس مغالبة قيصر ، فأرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فاطلقا إلى القيصرة العظيم ببيت المقدس ، فلما دخلا على رجال القيصرة قالوا لدحيه : — إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

— لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله .

— إذًا لا يأخذ كتابك .

وشردوا يفكرون فقال رجل منهم :

— أنا أدلك على أمر يؤحد فيه كتابك ولا تسجد له

— وما هو ؟

— إن له على كل عتبة مبرا يجلس عليه ، تضع صحيفةك تحاه

المسرفين أحد ، لا يحركها حتى يأخذه هو ثم يدعو صاحبها

فدحل دحية إلى قاعة العرش حيث ينظر هرقل المطالم ، فوضع

كتاب رسول الله ﷺ تجاه المير وعيه عليه لا تفارقه ، فلما جاء قيصر ومن حلقه من عظماء مملكته ورأى الكتاب تناوله وراح يقلبه ويضطر فيه فوجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا صاحبه فتقدمه دحية الكلبي وقال إنه كتاب من محمد رسول الله ﷺ — إلى قيصر العظيم .

فدعا هرقل الترجمان الذي يقرأ بالعربية فقرأ الرجل الرسالة وأخذ يترجمها ودحيه الكلبي يضطر إلى سمات وجه قيصر وقد حبست أنفاسه ، حتى إذا ما انتهى الترجمان من الرسالة قال هرقل : — انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه .

كان أبو سميان بن حرب وحكيم بن حرام ورجال من قريش في عرة هاتهم والى شرطة قيصر فانطلق بهم حتى قدموا عليه في بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فلما رأوه حروا له ساحدين ولم يرفعوا رؤوسهم حتى أدن لهم . ودعا قيصر ترجمانه وأمره أن يقرأ كتاب السي — ﷺ — فراح الرجل يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله يبي هرقل عظيم انروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام . أسبغ تسمي يؤتلك الله أحرك مريم ، فإن توليت فإني عليك إثم الأريسيين (فلاحى القرى) ، ويأهل الكتاب تعاونوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ألا بعد إلا الله ولا شرك له شيئا ولا يتحد بمصا بعض أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ^(١)

وقال قيصر لترجمانه :

— سلهم أيهم أقرب سباً لهذا الرجل الذي حرق بأرض العرب
يرعم أنه نبى ؟

فقل أبو سفيان :

— أنا أقربهم سباً إليه .

— ما قرأيتك منه ؟

— هو ابن عمى .

— ادن .

ثم أمر أصحابه فجعلوا حلف طهره ، ثم قال لترجمانه :

— قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل

الذى يرعم أنه نبى وإنما جعلتكم حلف طهره لتردوا عليه كذبا إن قاله

كان حكيم بن حزام ممن حلف أبى سفيان وكان قد عزم

على أن يرد كذب أبى سفيان إذا لجأ إلى الكذب ، فمحمد بن عبد الله

روح عمته حديجة الأثيرة عنده . فإب كان قلبه قد عمى عن الور الذى

جاء به ابن عبد الله فقد أبى صميره أن يسمع عه كذبا ثم يلزم

الصمت وحاف أبو سفيان أن يؤثر عنه الكذب ، ولولا أن ينقل عه

الكذب إلى قومه ويتحدثوا به فى بلاده بكذب عيه لعصه إياه ومحتة

نقصه .

ثم قال هرقل لترجمانه :

— كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

— هو منا ذو نسب .

— قل له هل قال هذا انقور أحد مكم قله ؟

— لا .

— قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

— لا

— هل كان من آباءه ملك ؟

— لا .

— كيف عقله ورأيه ؟

— لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .

— فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

— بل ضعفاؤهم .

— فهل يزدون أم ينقصون ؟

— بل يزدون .

— فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

— لا .

— فهل يغدر إذا عاهد .

— لا ، ونحن الآن مه في دمة لا ندري ما هو فاعل فيها .

— فهل قاتلتموه ؟

— نعم .

— فكيف حرككم وحريه ؟

— دول وسجال ، بدال عليه مرة ويدال عليها أخرى .

— فما يأمركم به ؟

— يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان

يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، وبأمرنا بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه :

— قل له إنني سألتك عن سببه فرعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فرعمت أن لا ، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأثم بقول قبله ، وسألتك هل كنتم تنهونهم بالكذب قل أن يقول ما قال فرعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آيائه ملك فقلت لا ، فلو كان من آيائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أشرف الناس بتبعوه أم ضعفاؤهم . فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يريدون أو ينقصون فرعمت أنهم يريدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لديه بعد أن يدخل فيه ، فرعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تحالط بشاشته القلوب إذا حصل به إشراح الصدور والفرح به لا يسحطه أحد . وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وإن حربكم وحربه دول وسجل يداك عليكم مرة وتداول عليه أخرى . وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك ماذا يأمركم به فرعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يعدر هذرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا ياله طالبه إلا بالعذر فعلمت أنه نبي ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أؤمن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتني به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمي .

وشرد هرقل لحظة تذكر حلالها تلك البوعة التي قالها له المنجمون وهم يرتجفون فرقا : سيرث ملكك شعب محتون . كان يظن أن اليهود ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب ، وما دار يحلده أبدا أن العرب هم ذلك الشعب فقد كانوا أهون من ذلك لولا أن شرفهم الله بالرسالة التي رفعتهم من الحضيض إلى دروة المجد .

ثم قال قيصر في تواضع :

— ولو أعلم أنني أخلص إليه لتحشمت مع المشقة لقيه ، ولو كنت عنده لمسلت عند قدميه ولا أطلب منه ولاية ولا منصب

وعلت أصوات الذين حوله وكثر لعظهم ، وأكثر ابن أختي قيصر العيط الشديد . إنه قال لعمه يوم أن جاءه كتاب رسول الله عليه السلام :

— قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ، ألق به .

فقال له هرقل وكان رجلا متديا حاب الفرس ليعيد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، ورحل ماشيا من القسطنطينية إلى المدينة المباركة :

— والله إنك لصعيف الرأي ، أرمى بكتاب رجل يأتيه السماوس الأكبر وهو أحق أن يبدأ بنفسه ! ولقد صدق أنا صاحب روم وما أملكهم ولكن الله سحرهم لي ولو شاء لسلطهم عليّ كما سيط فارس على كسرى .

وطل الصخب مدة وأبو سفيان والذين معه لا يدرون ما يقولون ، ثم أمر هرقل بإنزال دحية الكلبي وإكرامه وأمر بإخراج أبي سفيان وأصحابه . وبينا أبو سفيان والذين معه ينسحبون دون أن يولوا قيصر

طهورهم قال قيصر لقومه :

— يا قوم أستم تعلمون أن بين يدي الساعة نيا بشركم به عيسى
ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟
قالوا :

— بلى .

— فإن الله قد جعله في غيركم وهي رحمة الله عز وجل بصعبها
حيث يشاء .

وخرج أبو سفيان وأصحابه من الفصر وهم صامتون تدور في
رعوسهم تلك المناقشة التي دارت بين هرقل وشيخ بني أمية وقد
تملكهم العجب . وتذكر حكيم بن حزام أحاديث عمته حديجة عن
روحها الأميين وأقوال ورقة بن نوفل فراح يسأل نفسه : ترى أيحجم
عن التصديق خشية أن تذهب مفاحره في قريش ؟ إنه صاحب دار
الدوة وصاحب المكاينة المرموقة في مكة ، أفيصحي بكل أمحاده
ليتنع أبا القاسم زوج سيدة نساء قريش ؟ !
ورفع أبو سفيان رأسه وقال :

— لقد أمر (عظم) أمر ابن أبي كشة . هذا ملك بني الأصفر
يحافه .

وحظر على قلبه أن أبا القاسم سيظهر ، فراحت العيرة تهش صدره
وانتابه خوف شديد .

كانت بيت المقدس عاصمة بالناس ، وراح الشعب يتدافعون بانماكب ليصنوا إلى ميدان قصر قيصر ، فهرقل العظيم الذى جاء حاجا ماشيا على قدميه شكرا لله على أن بصره على أعدائه العرس سيعود اليوم إلى حمص ومنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية التى زهو بالنصر ، وإن كانت المدهاب المتنافرة قد قطعت أوصالها ولم تجعلها على قلب رجل واحد .

كانت الأعلام تخفق على القصر وقد اصطف الجنود أمامه وقد لبسوا الحوذ ، والدروع تتألق فى الشمس تبهر الأبصار ، ووقف الناس على جانبي الطريق يمدون أعينهم إلى حيث سيخرج إمبراطورهم الظافر ، فلما نفخ فى الأبواق إيدانا تتحرك الركب العظيم ماح الناس بعضهم فى بعض واشترأت الأعناق وحبست الأنفاس . ومس الآدان وقع حوافر الحيل فامتدأت النفوس بشوة ، فحما قليل يروب السبل ندى استرد الصليب وأعادته إلى كيسته المقدسة فرد إلى الأرواح الحرة بشرها ومسح عن كواهل شعبة دل العار الذى حللهم^(١) سين مرب عيهم كأبشع كابوس يمر على شعب .

وخرج المرساى على ظهور الحياض يحملون رماحا ناعلاها رايات بتحرق بالنسر الروماني ، ففعالت الأصوات بالهتاف حتى إذا ما ظهرت

(١) حللهم : عطى عليهم .

عربة الإمبراطور ضح الناس بالصفيق وارتفعت هيااتهم بحياة الممقد
تشق عيان السماء ، فجعل هرقل يرد تحياتهم بالتلويح إليهم بيده
وابتسامة عريضة رسمها على شفتيه .

كان الموكب فخما ينم عن الذخ والثراء ، ولكن هرقل كان يعرف
في قرارة نفسه أن حرانه قد حلت وأن حرب الفرس قد أدابت كل ما
عنده وأنه قد استدان من البابا ورخال الدين مبالغ ضخمة قد تدفعه إلى
فرص صرائ جديدة على رعاياه الذين أنقصت الصرائ ظهورهم .
وكان الشر يبدو على وجوه الناس ولكن هرقل كان يعرف أن بشر
ال لحظة سرعان ما يغيض بعد أن يتعد عن أعينهم ، وإمبراطوريته ممرقة
بين المؤمنين بمذهب وحدة طبيعة المسيح والمؤمنين بأن للمسيح
طبعتين منفصلتين ، فهو إنسان لما كان على الأرض وهو إله بعد أن
ارتفع إلى السماء . وقد خلفت المناظرات بين القائلين بوحدة طبيعة
المسيح وبين القائلين باللاهوت والناسوت صدعا في إمبراطوريته يهدد
بالانهيار .

وشرد ذهنه يفكر في إمبراطوريته الامتامية الأطراف فكانت سورية
ومصر أول ما شغل رأسه . فكيسة بيت المقدس على مذهب يخالف
مذهب القسطنطينية ، وكيسة الإسكندرية تث الثورة في سموس
رعاياها الرابدة المصطفدين المرهقين بالضرائب .

واحتت كل كياه تلك السوء انقائه بأن شعبا محتوبا سيرع منه
ملكه ، ولوى شفته السفلى سحرية من نصراته . لقد سام اليهود أنوان
الاضطهاد وما خطر به على قلب لحظة أن العرب هم ذلك الشعب ،
فلو تمت لهم لوحدة السياسية واستشارهم الإلهام الديني فسيرعوب منه

سورية ومصر ، فعقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية^(١) .

إنه يحب أن يفور بصداقة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهذه الصداقة ستثير عليه البابا فى القسطنطينية وأتباع الكنيسة المومة باللاهوت والناسوت والأم مريم حامية القسطنطينية ، لئنه يستطيع أن يجد فكرة توحد قلوب المسيحيين المتنافرة .

وستولت على عين ذاته الأقوال التى قالها دحية الكلبي رسول نبي الإسلام عليه السلام ، إن دعوة محمد بن عبد الله تقضى على المتناقضات بين المذاهب السائدة فى إمبراطوريته ، وهى قادرة على أن تؤلف بين قلوب القائمين باللاهوت والناسوت والقائمين بالطبيعة الواحدة . وهو يستشعر فى أعماقه أنه دين المطرة الذى تقله العقول والنفوس ، فما دام المسيح قد بشر بفارقليط آخر يقى مع الناس إلى الأبد ، فلماذا لا يكون نبي الإسلام هو ذلك السى الذى بشرت به الأنبياء ؟

أصبح يؤمن أن ملكه لن يثبت إلا إن اعتنق الإسلام .
وراح شيع النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه يتحارب له فيرداد رغبة فى أن يدخل فى الدين الحديد ليستقذ عرشه ، فقد تكررت كل أمانيه فى الإبقاء على ملكه وبات يرتحف هرقا من أن يذهب سبطاه أو يثور عليه قومه فيقتلوه .

(١) مدينة اجتمع بها المجمع المسكونى الرابع وقد اعتبر مذهب وحدة طبيعة المسيح رديفة .

إنه فى حيرة لئى يخلصه منها إلا أن يعرض الأمر على عظماء الروم إذا ما بلغ حمص . وجعل يتعجل الزمن حتى إذا ما لاحت حمص لعينيه راح قلبه يخفق بين حبسه كحاج حمامة ، واستشعر رهبة لم يحس مثلها وهو يخوض غمار الحرب فهو مقبل على أخطر عمل يواجهه فى حياته ، وهل هناك أخطر من أن يطلب من الناس الاسلح من دينهم لاعتناق دين جديد ؟

ودخل حمص بين هتاف الجماهير ، وراحت عربته تخترق أقواس الصر حتى القصر وهو غارق فى مخاوفه لا يكاد يحس بالشعب ابدى حرج لتحيته ولا يكاد يسمع الهتافات التى هرت جانب المدينة هرا . ودخل القصر وهرع عظماء مملكته لتهنئته ، فأمر أن تغلق الأبواب ثم اطلع فقال :

— يا معشر الروم هل لكم فى الملاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب وهم يقولون :

— أتدعوا أن نترك النصرانية وبصير عبدا لأعرابى ؟

وأمر عظماء مملكته مناديا ينادى :

— ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه .

فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله . فأرسل

إليهم :

— إبنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم فقد رضيت .

وطلب من عظماء مملكته أن يعودوا ، فلما قفلوا راجعين قال لهم :

— إبنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا به وإن كان في قرارة نفسه يستشعر عدم رضا عما وصلت إليه الأمور ، فهو يرجو هي قرارة نفسه أن يهتدى إلى فكرة توافق بين المذاهب المسيحية المتنازعة في ممسكته ، فإن كان عظماء الروم قد رفضوا اعتناق الإسلام فلا بد من العثور على فكرة ترصى أصحاب المذاهب جميعا ليستريح من ذلك الشقاق الذى يهدد ملكه بالزوال .

وراحت القسطنطينية تنأهب لاستقبال هرقل المظفر ، فأخذ رجال الدين يعدون كيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا للترحيب بالبطل الذى أعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وجعل رجال القصر يزيون التمثال الصحم المواجه للقصر وكان لثور يقاتل أسدا . وبين مدخل القصر وحلبة السباق أقيمت الريات ورفعت الرايات ، وراح النسر الرومانى يرفرف على بوابة بيجاي التى تقود إلى حى الغايا .

وأصابت نوافذ المركز التجارى لسوق الحرير ليلا ، فحاء الناس إلى دار الأنوار ينظرون ثم يتدفقون إلى ساحة استعراض الجيش التى عصت بكرائم اليزنطيات والشباب والعايا .

وكانوا أخلاطا من سورية ومصر والبلقان والرومان ، وكان نصيب البيزنطى من التحزب العصرى صغيلا عداؤهم كانت مختلطة ، وما كانوا يهتمون بالأصول بل بالدين فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقولة فى البلاد واستطاع التحدث باليونانية يلقى منهم الفؤوس كأح فى المواطنة ، وكان احتقارهم العميق للأجانب لأبهم كفرة وريادة وأجلافا غير ملمين بتهديدات الحضارة الإمبراطورية ورفاهيتها ، أما كل أحسى يعتنق ديانة الدولة ويحصل على جسيبتها فله الحق فى الرواح من

بمنطقية مهما يكن أصله أو أصلها .

وكان هرقل يعرف شدة تعصب البيزنطيين لدينهم فطرد من دهم فكرة عرض الإسلام عليهم كما فعل في حمص ، بل شغلته فكرة التوفيق بين المذاهب المتناحرة ليأمن عداوة أصحاب المذاهب المتعارضة مع مذهب القسطنطينية .

وأقبل الركب الملكي يتهادى في حي زيجما على القرن الذهبي وقد قم في وسطه تمثال عظيم لأفروديت^(١) فإذا بالكتل البشرية قد اصططت على جانبي الطريق واعتلت التماثيل والأشجار ، وراح السوء ينثر الورود على الموكب ، وانهمرت الدموع تأثرا من أعين العجائز ، فالقائد المطفر عائد من بيت المقدس بعد أن قبل صليب المسيح .

واطلق الركب إلى كنيسة الحكمة المقدسة ، وما إن نزل هرقل من عربته حتى استقبله البابا هونوريوس الأول بالبركات ، وتجاوبت في أرجاء الكنيسة التراتيل وحرقت أندر أنواع البخور . وسار هرقل وهو شارد اللب يفكر في الصور والتماثيل التي رينت بها الكنيسة فقام في نفسه سؤال : أيمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن أليس من الوثنية عبادة صور له ؟

كان ما سمعه عن الإسلام ومحاربه للوثنية هو المحرك لهذه الأفكار ، إنه وهو يتلو صلاته في كنيسة أيا صوفيا قد اعتنق مذهب تحطيم الصور وإن طوى نفسه على أفكاره ، ولما انتهت المراسيم

(١) أفروديت : إله الحب والجمال والاختصاب .

وعاد إلى قصره واسترد أعباسه بحث إلى البابا هونوريوس الأول وراح الرجال يفكران في تسوية لاهوتية توحد كلمة المسيحيين وترضى البعاقمة والنساطرة وتقصى على الخلاف المشبوب حول طبعه السيد المسيح ، فهداهما فكرهما إلى أن للمسيح طاقة واحدة، فقط فراح هرقل يدعو إلى فكرة وحدة الإرادة وراح البابا هونوريوس الأول يؤيدها . ولقيت الفكرة بعض الجاح بالقسطنطينية ولم ترض أصحاب مذهب وحدة الطبيعة . ولم يحجج هرقل في لم الشمل ورأب الصدع بل أضاف إلى المذاهب المسيحية التي يتعذر حصرها مذهبا حديدا فتح بابا واسعا للجدل والحوار .

كان أتباع وحدة الطبيعة يضيّقون بالظلم الواقع بهم وما يملأ صدورهم من كراهية مقيمة لمراسيم حلقيدونية جعلتهم متدمرين على الدوام ، يبحثون عن الخلاص^(١) .

وعاد دحية الكلبي إلى رسول الله — ﷺ — ومعه كتاب هرقل ، فقرأ عليه صلوات الله وسلامه عليه : (إني مسلم ولكنني معلوب) . فقال عليه السلام .

— كذب عدو الله ليس بمسلم .

وقدم دحية إليه عليه السلام هدية هرقل فقسّمها بين المسلمين . وشح هرقل بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام . ﴿ قل يا أيها

(١) وقع هرقل الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Ezhthesis) سنة ٦٣٦ م ، وفي نفس السنة وقعت معركة اليرموك بين العرب والروم وقد وجد السوربون الخلاص الذي كانوا يتشلقونه

الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿١﴾ .

(٨)

حبست قريش أبا بصير بن أسيد بن جارية الثقفي ومعته من الهجرة إلى رسول الله عليه السلام ، فاعتصم بهم وانطلق إلى المدينة ليلحق بإخوانه المسلمين . ولما علمت قريش بخروجه كتب في رده أزهر بن عوف عم عبد الله بن عوف والأخمس بن شريق كتابا إلى رسول الله ﷺ — وبعثا رجلا من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم وجعل هما الأخمس في طلب أبي بصير فجعلوا يقدمان على رسول الله عليه السلام بالكتاب فقرأه أبي على رسول الله ﷺ — فأداه فيه : « قد عرفت ما شاربك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا أصحابنا » .

فقال النبي ﷺ :

— يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في دينا العذر ، وإن الله جاعل لك ولهم معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك .

— يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟

— انطلق فإن الله سيحمل لك مرجا ومحرجا .
ودفعه إليهما والدموع في أعين المسلمين ، وصار المسممون
يقولون له :

— الرجل يكون خيرا من ألف رجل .
يعرويه بالدين معه ، حتى إذا كانا بذى الحيمة على بعد ستة أميال
من المدينة سل أحد الرجلين سيفه ثم هزه وقال :
— لأصبرن بسيفي هذا في الأوس والحررج يوما إلى الليل .
فقال له أبو بصير :

— أو صارم سيفك هذا ؟

— نعم .

— فاولنيه أنظر إليه .

فأوله إياه ، فلما قص عليه صربه به حتى فارق الحياة ، ولما رأى
المولى مقتل صاحبه أطلق لساقيه الريح ، وراح أبو بصير يطلبه وفي يده
السيف وكانت مطاردة رهبة خيم عليها الموت ، المولى على دابته
يطوى الأرض وقد تملكه الرعب وأبو بصير على غير العامرى يجد في
أثره ، واستشعر المولى تعباً وابهت أنفاسه وسال العرق حتى ملأ
عنيه ولكنه لم يستطع أن يهذى من سرعة عدو دابته ، والموت قد
أصبح أدنى إليه من شراك بعله . ولاحق له المدينة فقوى الأمل من
روحه حتى إذا بلغ مسجد الرسول عليه السلام نزل عن دابته فوسع من
خطوه حتى أتى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد ، فلما
رآه رسول الله — ﷺ — ولحفا يظن تحت قدميه من شدة عدوه
قال عليه السلام :

— إن هذا الرجل قد رأى نزعاً .
فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في المسجد
قال له :

— ويحك مالك ؟
— قتل صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكّد ، وإنني لمقتول .
واستعاث برسول الله — ﷺ — فأمنه ، فإذا أبو بصير أناح بعير
العامري باب المسجد ودخل متوشحاً السيف ووثب على رسول
الله — ﷺ — فقال :
— يا رسول الله وقت ذمتك وأدى الله عنك ، استلمتني بيد القوم وقد
امتنعت بدبي أن أفتن فيه ويفس بي .
فقال له رسول الله — ﷺ :
— اذهب حيث شئت .

— يا رسول الله هذا سلب العامري رحله وسيفه وحمسه .
— إذا حمسته وأوئى لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه ، ولكن
شأنك بسلب صاحبك وادهب حيث شئت .
فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث
قدم ولم يطبهم أحد . فقال رسول الله — ﷺ :
— ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !

وسار أبو بصير والذين معه حتى نزلوا بين العيص ودي المروة من
أرض جهينة على طريق غيرات قريش مما يلي سيف البحر ، وجاءت
قافلة لقريش فانقضوا عليها انقضاض الأسود الكاسرة فقتلوا بعض
الرجال وفر الآخرون وسبوا ما في القافلة . فلما بلغ الحبر قريش نزل

هم هم ثقيل ، ولكم راحوا يطعمون أنفسهم أنها غارة من عارات قطاع الطريق .

وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو في مكة حزينا بعد أن رده المسلمون إلى أبيه تفيذا لصلح الحديبية ، فلما بلغه قول الرسول عليه السلام : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) عزم على الخروج ليلحق بأبي بصير وليكون شوكة في جب المشركين ، فراح يدور على المسلمين المحبوسين في مكة يريهم لهم اللحاق بأبي بصير فاتفق معه سبعون رجلا على الخروج لإعلاء كلمة الله .

وفي حنح الليل اسبل الرجال ، وما كادت الشمس تشرق في الأفق اشرق حتى كان سبعون راكبا بطوون الصحراء حتى إذا بلغوا مكان أبي بصير وجدوه يؤم أصحابه ويصلي بهم فصموا حلقة ، فلما قصيت الصلاة أقبل الرجال على الرجال يتعانقون وقد انعكست أنوار القلوب على الوجوه .

وصار أبو جندل بن سهيل بن عمرو زعيم العدائين يؤمهم في الصلاة ويقودهم في الغارات على قوافل قريش ، واجتمع إليه الناس من بني عفار وأسلم وجهية وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون . ولاحق في الأفق البعيد غير لقريش فامتطى الرجال صهوة الخيل ثم انقضوا على القافلة انقضاض السور ، فدارت معركة بين المسلمين والحراس فمقع فيها السلاح وسالت الدماء وسقطت الحث على الرمال وأصوات المسلمين تدوى بالتكبير فتزلزل قنوب الكافرين . واجلجت المعركة عن قتل أصحاب العير وسقوط القافلة عيمة في أيدي أبي جندل وأبي بصير والدين معهما من المهاجرين .

وخرج رجال من مكة يتنسمون أحبار القافلة ، إنها عابت عن موعد أوبتها وانخاف من أن يكون أبو بصير قد أحدها قد استولت على القلوب . وراح سادات قريش يتحدثون بحوى ، وأخذ أبو سفيان يلوم سهيل بن عمرو لأنه أعاد أنه عمرة يوم الحديبية ولم يتركه يذهب مع المسلمين وقد ذهب أخ له من قبل ، فلو أن أهر بن عوف والأحس بن شريق لم يبعثا في طلب أبي بصير لما انفلت إلى مكة ، ولو أن سهيل بن عمرو برك ابنه يذهب حيث شاء ما برلت بهريش الككات التي أرلهاهم هؤلاء الرجال الذين قطعوا مادة قريش من طريق الشام .

وعاد الرجال الذين خرجوا من مكة للبحث عن غير قريش القادمة من الشام مطأطي ابرعوس قد عبرت قسما وجوههم عن البأ الفاجع ، ودقت الأقدمة فرعا في صدور . ولاح الهلع في الوحوه وبدت صيحات وبه من بين شفاء السوة قبل أن يفتح رجل من العائدين معه ، فقد قرأ في أعينهم المأساة التي حاقت بأصحاب العير .

وتقدم أبو سفيان من الرجال والدماء تتدفق في عروقه كالنار من العضب وقال :

— ماذا أصاب العير ؟

فراح رجل يشد ما قال أبو جندب .

أبلع قريشا عن أبي جدل

في معشر تخفق راياتهم

يأبون أن تنقى لهم رفقة

أنا بدى المروة بالساحل

باليص فيها والقا الدبل^(١)

من بعد إسلامهم الواصل

(١) الدبل الدفينة اللاصقة الفشر

(صلح حديبية)

أو يجعل الله لهم محرجا
 فيسلم المرء بإسلامه
 والحق لا يغلب بالباطل
 أو يقتل المرء ولم يأتل^(١)
 وداع النساء في مكة فامتلات الدور بالروح ، واسل سادات قريش إلى
 دار الندوة ليتشاوروا في ذلك اللاء الذي نزل بهم فهو لاء الركب قد
 فتحوا على مكة بابا لا يصلح إقراره .

(٩)

هزم هرقل كسرى بروير واسترد الصيب المقدس من المدائن وأعادته إلى
 بيت المقدس ، ولكن ألقاب كسرى الثاني م تهنز بل طل انرجل الخاند
 بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الدائع الذي
 يصحو مع الشمس والذي يهب عييه لليل .

ولم ير كسرى المطفر المدائن مد حوالى سنة ٦٠٤ م حتى رمن عزو
 هرقل سنة ٦٢٧ ، وذلك لأن المحميين والمعافة بعوه بأنها شؤم عيه ، إنما
 كانت إقامته الخمية إلى نفسه دستكرد التي تقع على الطريق الحرني الواسع
 الذي يذهب من المدائن إلى همدان .

وكان كسرى الثاني على الرعم من هرمنته يرتدى أمحر الثياب ،
 فملاسه قد ريت بأشرطة تتكون من ثوب دى أكلام يتدلى إلى ما تحت
 البركتين وسروال واسع وكلها مرصعة بالخواهر . وأطراف الثوب
 واحماله وعمد السيف وكذلك السروال مريية بمصوص كثيرة من

(١) يأتل : لم يقصر

الؤلؤ ، وقد رين رقبته بعقود من اللؤلؤ .

ودخل كسرى بروير قاعة العرش وجلس تحت التاج وكان معنقا بسلسلة ذهب من الإيوان درعها سبعون دراعا كيما يحاس رأس الملك ولا يؤديه ولا يثقله ، وهو يزن واحدا وتسعين ونصف كيلو جرام . وأحاط بالمظفر كبار رجال البلاط ، وسمدت إلى قاعة العرش أصواء أحادة من خلال الخمسين ومائة كوة التي في القبة والتي يبلغ قطر كل واحدة منها من اثني عشر إلى خمسة عشر سستيا .

وسمح لطالبي اللؤلؤ بين يدي الرجل الخالد بين لآهة والإله العظيم حدا بين الرجال بالدخول . فدخل بعضهم فحروا ساحدين . فلما أدن لهم برفع رعو سهم أحدوا بمطر صاحب اصيت انداع الذي يصحرو مع الشمس فسردوا ما حنعوا من أجله وهم يرتجفون ، حتى إذا ما عادروا ارجل الخالد أحدوا يرهرون في ارتياح كأما ينفضون عن صدورهم عبئا ثقيلا .

ودخل عند الله بن حذافة السهمي على كسرى ثابت الخطو ، فها طاما دخل عليه من قبل ولم يسجد له بل سار يتقدم حتى وصل إليه فدفع إليه كتاب رسول الله — ﷺ ، فإذا به كتاب محتوم ، فجعل يقلبه لحظات بين يديه ثم دفعه إلى ترجمانه فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من بع الهدى وأمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فعمليك إنم المحوس

وعصب صاحب النصيب الدائع الذي يصحو مع الشمس والذي
يهب عييه لنبيل ، فكيف بدأ محمد بنفسه ؟ وصاح ومزق الكتاب وأمر
بإخراج عبد الله بن حذافة فحرق ثابت الحدا فقعده على راحته وسار ،
حتى إذا وصل إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أحبره
الخبر فقال عليه السلام :

— اللهم مزق ملكه .

— عصب كسرى بروير عصا استوى على كل تفكيره ، فقرأ
ذلك الرجل الذي بعث إليه كتابا يدعو به إلى الإسلام قد وعد بصر
الروم : ﴿ لَمْ عَلَيَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَاسِقِهِمْ
سَيَعُودُونَ ﴾ في صبح سبى الله الأمر من قبل ومن بعد وبومئذ يفرح
المؤمنون * بنصر الله ﴿ (١) .

لقد انتصر هرقل على كسرى ولكن يسعى ألا يفرح محمد وأتباعه بهذا
النصر بل يسعى اعتباره أثرا على الخوسية . فبين العرب قبائل تدعى
بالمخوسية وإن عيه وهو رأس الدولة المخوسية أن يحمي تلك القبائل وأن
يعلم الحرب على محمد والمسلمين .

لم يعترف كسرى بمحمد رئيسا على الدولة الإسلامية بل كتب إلى
بادان عاهله على اليمن : « إنه يسعى أن رجلا من قريش حرج عكة يرعم
أنه نبي فسر إليه فاستبته من تاب وإلا فابعث إلى برأسه ، يكتب إلى هذا
الكتاب وهو عبيد ؟ ! » .

بعث بادان بكتاب كسرى إلى النبي — ﷺ — مع قهرمانه وبعث

معه رجلا آخر من فارس وبعث معهما إلى رسول الله ﷺ — يأمره أن يصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش في أرض الطائف فسألاه عنه فقال .
— هو بالمدينة .

فلما قدما عنده — ﷺ — المدينة قال له :
— شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك بادان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك وقد بعثا إليك ، فإن أبيت هبكت وأهلك قومك وخربت بلادك .

إن فارس تعلن الحرب على المسلمين فيأمر أن يسلم رسول الله ﷺ — نفسه للرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم حدا بين الرجال ،
وأما يبعث الشاهنشاه حذره ليحارب المسلمين ويستولى على المدينة .
وقال هما رسول الله ﷺ — في هدوء :
— أرحما حتى تأتياني غدا .

عاد كسرى الثاني بعد أن هرب من دستكرد رافضا عروض الصلح انتى قدمها هرقل إلى قصره في المدائن ، ثم لم يلبث أن تركه ليعبر دجلة ويقيم مع عشيقته شيرين . وحينئذ ثار القواد الفرس وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل فيها .
وعرف قائده شهربرار أن كسرى قد أمر قائدا ممن يرأسهم بقتله فأخذ حذره وتحلل من عهود الإخلاص له . ومرص كسرى بالرحار^(١) فنقلوه إلى المدائن ليترتب وراثته العرش وكان معه شيرين

الرحار : الصوت والهمس بأنين واستطلاق البطن بشده وتقطيع في البطن (الدوستاريا) .

وولده مرداشاه وشهريار . وكانت نيته تثبيت مرداشاه على العرش
ولم علم قباد الملقب بشيروه وهو ابن كسرى من ماريما عما حدث
عزم على الدفاع عن حقوقه . واستوثق من مساعدة القائد العام الحديد
كشسب اسباد وهو أخوه من الرصاعة وقد فاوض هذا هرقل وأبدى
استعداده للصلح مع الفرس ، وانضم لشيروه عظماء آخرون ممن كانوا
حائقين على الشاهنشاه .

وأمر شيروه ففتحت قلعة السيان وأفرج عن عدد كبير من مسجونى
الدولة فانصموا إلى الأمير ، فلما جن الليل ترك الحرس القصر حيث كان
ينام كسرى وشيرين وفي الصباح الباكر سمع الناس يصيحون فرحين :
— قباد شاهنشاه . قباد شاهنشاه .

وحيث هرب كسرى وقد أحده المنع ، فاختأ في حديقة القصر
حيث عثر عليه فأحدوه . وكان إسكاف يجلس في حايوب على الطريق
فلما نهر بفرسان من الجند معهم فارس مقنع عرف أن المقنع كسرى
فحذفه بقالب فعطف إليه رجل ممن كان مع كسرى من الجند فاحترط
سيفه فضرب عنق الإسكاف ثم لحق بأصحابه .

وألقى الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب
النصبت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عييه الليل في
عيابه السحجن . وتردد شيروه في الإقدام على قتل أبيه ولكن العظماء
حيروه بين أن يقتل كسرى فيكونوا حوله باحعين له بالطاعة وبين أن
يخلعوه ويخطوا بالطاعة لكسرى . وقد حاول الملك الحديد أن يجد الفرصة
فوجه إلى أبيه الاتهامات : قتل الملك هر مرد . قسوة كبرى على أبنائه ،
إساءته إلى من أردع السحون ، سوء نظره في استخلاص النساء لنفسه

مع تراء العطف عديين بالموودة وحسه إياهن قبله مكرهات ، ظلمه الرعية عامة في حياية الخراج وما انتهك منهم في عطته ومطاطته عليهم وجمعه الأموال التي اجتباها الناس في عسف شديد ، تحميره من حمر في ثمرور الروم وغيرهم من الجنود وتفريقه بينهم وبين أهلهم وعدره بموريق ملك الروم وكفره بأنعامه .

وفي جوف الليل قتل كسرى الثاني الذي لقب بالمظفر والذي لقب نفسه بالرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم حدا بين الرجال ، صاحب الصبوت الدائع الذي يصحو مع الشمس والذي يهب عييه لليل . وأشرقت الشمس على المدينة وجلس رسول الله عليه السلام في المسجد فاجاء إليه رسولا بادان ، إنه عليه السلام قال لهما بالأمر : (ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياي العد فأخبركما بما أريد) . فحاءه العد فقال لهما :

— أبلعا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات مصت منها ، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله . فرجعا إلى بادان وقالاه :

— أمرنا أن نبلعك أن ربه قد قتل ربك كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليلال مضين من جمادى الأولى (ستة سبع من المحرة) . قال بادان :

— إن كان نبيا فسيكون ما قال : ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكبر المسلمون ، وقال — صلى الله عليه وسلم :

— لتفتحن عصابة من المسلمين كور كسرى التي في القصر الأبيض

وكان عمر بن الخطاب يصعى إلى رسول الله عليه السلام ولم يدر
بجلده أن فتح فارس سيكون في خلافته وكان سعد بن أبى وقاص قد ألقى
إلى رسول الله عليه السلام سمعه وما حطر له على قلب أنه الأسد الذى
سيقود جيوش المسلمين وأنه القائد الذى سيبعث إلى المدينة كسور
كسرى التى فى القصر الأبيض .

(١٠)

قامت مصر بدور حطير فى تاريخ المسيحية ، وقد اختارت كنيسة
الإسكندرية مد أن أصبحت الكلمة لكنيسة القسطنطينية أن تقف فى
جانب كل المذاهب المعارضة لكنيسة الأباطرة ، وكانت عما ملأها من
نوارع البعضاء للحكومة الإمبراطورية تناصر الفتن والأمانى المحلية .
كان مذهب الثالث مدها عسيرا كما أن مذهب التحسد لا يريده
يسرا ، فلا عجب أن كان الطريق السوى فى علم البحث عن طبيعة
المسيح وشخصه من المرح بصورة تحمل علماء اللاهوت أنفسهم مهما
بلغ من حس قصدهم عرصة للانزلاق فى هذا الاتجاه أو ذاك .
وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها
الأهلية يوم كان أتباع أريوس يحاولون إنكارهم الألوهية التامة للمسيح
أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .
وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قرارا باستئزال اللعبة عليهم
وقد اهتموا بالزندقة .
كانت الزندقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نبد أى قانون يصدر عن

المجالس العامة للكنيسة ، ذلك أن القوم كانوا يسرون أن أى مجلس مسكونى هو جمعية تعقد برياسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتحاسة التى يتم الاتصال بينها والتشاور هو الهيئة الملهمة التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية .

ومند الأيام لأولى للمسيحية كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر يصدر تصريحات مذهبية ، كما أن يوستينانوس حلق للإمبراطور مرkra ممثلاً لذلك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس مسكونى عام لضمان قبول مثل هذه التصريحات .

وقد عقدت مجالس مسكونية سعة فأصبحت قراراتها والكنس المقدسة أساساً للعقيدة الأرثوذكسية ، وقد ظل مذهب آريوس طواى القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقمة بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد اجمع المسكونى الثانى فى عام ٣٨١ ، وكان نصر الأرثوذكسية هو نصر الإسكندرية برئاسة أناناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأحد باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سنحت فرصتها المواتية عندما ذهب نستوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والباسوتى ، وكانت تلك حركة بعضت إلى قلوب الناس لأنها تؤدى بصورة مطلقة إلى مهاجمة مريم العذراء بصورة القسطنطينية وراعيها المحبوبة التى كانت مهددة عندئذ بالحرق من لقيها أم الرب ، فانحدت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية ، وتناست الإسكندرية مؤقتاً غيرتها بسبب

البطيريكية الجديدة ، فالقسطنطينية التي أعطيت الرئاسة عليها في المجلس المسكوني الثاني ، وأصدر المجمع المسكوني الثالث المنعقد في أفسس قراره بأن سطور يوس الأطركى بطريرك القسطنطينية قد رل موقع في الرندقة حيث فرق بين الرب وبين لإنسان في شخص المسيح ، وقد كان لقوة شخصية كيرلس بطريرك الإسكندرية أثرها البالغ في صدور هذا اقرار .

ولم يقف حصوم المذهب السطوري عند هذا الحد ، فقد أذاع قسيس معمور يقال له أوطيحا (يوتيحوس) مبدأ يقرر وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الإسكندرية . ورعة في البت في المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع لمسكوني الرابع في حلقيدونية في عام ٤٥١ م وكان مرقيانوس شعوا من الناحية السيسية أن يكون على علاقة طية مع روما وكان البابا ليو يعارض تلك الحركة بشدة ، وعدد أدين مذهب وحدة طبيعة لمسيح وكان ذلك نتيجة لضغط الإمبراطور وعد المذهب رندقة من الرندقات .

وكان مجلس حلقيدونية نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية مصر وسورية ، فطرية وحدة طبيعة المسيح تسبب المراج الشرق فما ثبت أن انتشرت في كل الكنائس المؤمة مذهب وحدة الطبيعة ، وقد جمعت بينها معارضتها مجمع حلقيدونية ، وصارت تلك الرندقة نقطة التجمع لأهالى الولايات الدين في صدورهم عن من السيطرة المركزية للإمبراطورية فكانت وسية التعبير عن الرعات القومية والاعصالية . وحملت الإسكندرية عدم لثورة على قرارات مجمع حلقيدونية ، فبطريقتها ديوسفوروس أحد يعرض وراء نظرية أوطيحا عن لمسيح . و

توافق روما على ذلك واتسعت هوة الخلاف بين روما والمسططبية من جهة أخرى .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها في الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة فهي تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبعتين لا يمكن الفصل بينهما ، ولكن النتائج السيامية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة فرضت نفسها على تساريف ، لإمبراطورية رهاء قريين من الرمان . وفي المجمع المسكوني الخامس المعقد بالقسطنطينية في عام ٥٥٣ م اعترف يوسيانوس بإحفاقه في نشر ميثاق يوفق بين الطرفين ، المتنازعين .

وفي عام ٥٧٠ م ولد رسول الله — ﷺ ، ومرت الأيام وبعثه الله رسولا بنشرية جميعا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهاجر عليه السلام بدينه إلى المدينة وكان صلح الحديبية وكان أن بعث عليه السلام رسولا إلى هرقل إمبرطور الروم يدعوه إلى الإسلام ، ولم يؤمن هرقل بالدين الجديد ولكنه تأثر به فراح يحاول أن يوفق المذاهب المتناحرة على هدى الإسلام ، فأعلن ميثاق التوفيق لمسمى بوحدة إرادة المسيح ، ثم راح يتأهب لحرب الصور والتمائيل في الكنائس .

كان المصريون على خلاف مع الرومان في المذهب الديني وكانوا يعنون من وطأة صرائب . وكانوا يتبعون يعثون عن الخلاص وما كانوا يدرون من أين تنب عليهم ريح الحاة ، فلما انتصر هرقل على الفرس ستنشر المصريون أسى فقد حسبوا أن قبصة السر ستطل قاصمة على أعناقهم ، فلما نبههم بعد أن هصة قد قامت في قلب جزيرة العرب ، وحتى إن كانت قد وصلت إليهم ثباؤها فما كان ليحظر لهم على

قرب أن العرب المتدعيرين سيكون لهم دولة تستطيع أن تقصى على الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

كان رسول الله — ﷺ — في مسجده بالمدينة ومن حوله أصحابه قد عاهدوا قريشا على السلم ، وما كان ذلك السلم ليجعل رسول الله عليه السلام يركن إلى الدعة والهدوء ، فأنه قد أمره أن يلع رسالته فيبعث عليه السلام رسله إلى ملوك الأرض وحكامها ، إنه أرسل إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام وأرسل إلى كسرى كتابا مرفقه الملك المغرور فكتب الله على نفسه أن يمزق ملكه وأراد أن يبعث بكتاب إلى مصر فقال : — أيها الناس أيكم يطلو بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله .

فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال :

— أنا يا رسول الله .

سـ بارك الله فيك يا حاطب .

فأخذ حاطب الكتاب وودع رسول الله — ﷺ — وسار إلى مصر له ، وشد على راحلته وودع أهله ، وسار إلى مصر فهو يعرف الطريق وقد خرج إليها للتجارة أكثر من مرة ، ولكنه كان يستشعر طوال الرحلة أنه حرج في تجارة لن تبور ، تجارة تنجيه من عذاب أليم .

كان على مصر حرج بن مينا وقد نقب بالمقوقس ، والمقوقس لغة المطول للبناء ، وكان مصرياً صميماً ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية ، وكان يحيا حياة الأنطرة الرومان . وكانت الإسكندرية مقر حكمه ليكون على مقربة

من عاصمة الإمبراطورية الرومانية .

ودهب حاطب إلى صف ولم يسر فيها وهو مهوّر بمبانيها الصالحة وأبوابها الفخمة فقد زارها كثيرا من قبل . وانطلق إلى قصر الحاكم فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحادى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما حىء به نظر إلى الكتاب وقصه وقرأه :

— (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : هاإن أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا شرك به شيئا ولا يتحد بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والتفت إلى حاطب وقال له :

— ما منعه إن كان نيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأحرجوه من بلده إلى غيرها ؟

وصمت حاطب تأديبا فأعاد المقوقس قوله لما رأى من الموجودين استحسانا :

— ما منعه إن كان نيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأحرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ؟

فقال له حاطب :

— ألسنت تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أحده قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى

رفعه الله إليه ؟

ونظر إليه المقوقس في إعجاب ، إنه قابل كثيرا من العرب قبل أن يبعث فيهم محمد بن عبد الله ، كانوا فصحاء ولكنهم ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان بل كانوا عبدة أوثان ، فقال :

— أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

— إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأحذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بعيرك ولا يعتبر بعيرك به .

وراح المقوقس ومن عنده يرمقون حاطب في دهشتهم ، إهم فهموا أنه يقصد فرعون موسى ، ولكن من أين لذلك العربي مثل هذا العلم ؟ واستمر حاطب يقول :

— إن هذا السبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعبسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد — ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائلك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل سبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه . فأنت ممن أدرك هذا السبي ولسنا نباك عن دين المسيح عليه السلام ولكننا مأمرك به .

فقال المقوقس :

— إنى قد نظرت في أمر هذا السبي فرأيت أنه لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أحذه بالساحر الصال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النوبة بإخراج الخبء في أى الشئ العائب المسور ، والإنذار بالنجوى ، وسأأنظر .

أكرم هرقل وفادة دحية الكبيى رسول النبى العربى فلم يجد المقوقس

غصاصة في أن يكرم حاطب فدفع له مائة دينار وخمسة أثواب وأثره في صيافته ، فلما حان الرحيل دعا المقوقس كاتباً له يكتب بالعربية فكتب إلى النبي : « بسم الله ارحم الراحمين . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بحاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبشباب ، وهديت لك بغلة لتركها والسلام عليك » .

ما أنام حاطب عند المقوقس إلا خمسة أيام خرج بعدها من قصره وفي رفقته مارية القبطية وأحتها سيرين وطبيب وبعلة ييضاء وهدايا المقوقس ، وما انفصل الركب وانساب في الحقول حتى وقعت الأعين على جباة الصرائب الرومان يظلمون الفلاحين وينزلون بهم ألوان العذاب فلاح الأسى في الوجوه وارتفعت الرعوس تنظر إلى السماء كأنها يسألون رب الكون الخلاص وما دروا أن الخلاص قريب وأن حاطب بن بلتعة رسول محمد بن عبد الله عليه السلام إلى عظيم القبط هو طلائع ذلك الخلاص وراح حاطب يفكر فيما قال له المقوقس وهو يودعه : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه وأنا أصم ملكى أن أفارقه » . أضحى إنسان بالحقيقة التي أشرقت لعين داته في سبيل ملك زائل ؟ ! أيستمر يخط في الظلمات وهو يعرف طريق النور ؟ أضحى بأحرته في سبيل ديناه ؟ واستمر حاطب والذين معه يطوون الأرض في حراسة جند مصر إلى أن دخل جريرة العرب ، ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة حتى دخل على رسول الله عليه السلام وذكر له قول المقوقس . « القبط لا تطاوعنى على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتي

إياك وأنا أضرب بمحكي أن أفارقه ، فارجع إلى صاحبك وارحل من عندي
ولا تسمع منك القط حرقا واحدا » فقال عليه السلام :
— ضمن الخبيث بمكة ولا بقاء للملكه .

وقال عليه السلام للطبيب :

— ارجع إلى أهلك ! نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا

نشبع

وأحد عليه السلام مارية وعشرين ثوبا من قنطري مصر وهدايا العسل
والعلة البيضاء وسماها دلدل ، وما كان العرب يعرفون البعاض من قنطري وما
كان فيهم بعلة غيرها ، وأهدى سيرين حسان بن ثابت . وأعادت مارية
ذكريات هاجر المصرية (١) أم العرب فقال — عليه السلام — لأصحابه .

— إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن هم دمة
ورحما .

(١١)

كان اليهود في حبر يطوون أفئدتهم على الغصاء محمد رسول الله عليه
السلام ، وكانوا يتحيون العرض ليطعموا الإسلام طعمة في الصميم . فلما
عاد استسمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة دون أن تسمح لهم فريش
بدخول مكة والطواف حول البيت من اليهود أن يبى الإسلام —
صلوات الله وسلامه عليه — لم يقلل شروط الصلح المحمفة بالمسلمين إلا

(١) كانت زوجا لمسيدنا إبراهيم عليه السلام

نوهن دب في كيان ملكه ، فأرادوا أن يستعلوا ذلك الصصف فبعثوا إلى عطفان ليؤلبوهم على حرب رسول الله ﷺ —
وحاء الخبر إلى الرسول عليه السلام أن حير تنأهب لقتاله فلم ينتظر حتى يبعأه اليهود وحنفاؤهم بهجومهم ، فاستنبر ﷺ — من حوله من شهد الحديبية يعززون معه ، وجاءه انخفون عنه في غروة الحديبية ليخرجوا معه رجاء العنيفة فقال :

— لا تخرجوا معي ، لا راغبين في الجهاد فأما العنيفة فلا

ثم أمر مادايا يبادى بذلك هادى به ، وشى حروح المسممين إلى حير على من بقى بالمدينة من اليهود ، وخرج رسول الله ﷺ — في محرم افتتاح ستة سبع بعد أن أقام شهرا وبعض شهر من مرجعه من الحديبية واستحلف على المدينة سباع بن عرفة العفارى ، وخرج معه من سائه أم سلمة ، وقال — ﷺ — في سيره لعامر بن الأكوع عم سمة بن الأكوع :

— انزل فحرك بنا الركب .

فكان معتذرا :

— يا رسول الله قد تولى قولى .

لم يعد عامر يقول شعرا ، فقال له عمر :

— اسمع وأطع .

فبرل يرتجز بقوله .

والله لولا الله ما اهتديا	ولا تصدقنا ولا صلنا
إيا إذا قوم بعوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبنا
فأربس سكية علينا	وثبت الأقدام إن لاقنا
	(صلح الحديبية)

فقال له رسول الله ﷺ :

— يرحمك ربك .

وما حص بها رسول الله ﷺ — أحدا قط إلا استشهد ، فقال

عمر :

— وجبت والله يا رسول الله ، لو متعتنا بعامر .

ولما حرج رسول الله ﷺ — من المدينة سلك على عصر (حبل)

فسي له فيه مسحدا ، ثم على الصهاء ، ثم أقبل بحبشه حتى برل بواد يقال

له الرحيص فبرل بين حير وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل

حير وكانوا لهم مطاهرين على رسول الله ﷺ ، فلما سمعت غطفان

تبرل رسول الله ﷺ — من حير جمعوا ثم حرجوا ليطاهروا يهود

عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة من مراحل السفر سمعوا حلفهم في أموالهم

وأهلهم حسا وظلوا أن القوم قد حالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا

في أهلهم وأموالهم وحلوا بين رسول الله ﷺ — وبين حير .

كان المسلمون ألفا وستائة مقاتل تجهيزا حسا منهم مائتا

فارس ، وكان لكل مقاتل راحته السريعة ، وقد حرج مع الجيش ساء

امقاتين ليعتين بالحرحي وكان هذا يحدث لأول مرة في تاريخ الحروب

فقد كانت الساء بصاحب الحيوش في العروات للترفيه أو سحريص

الرجل على القتال .

وحمل الجيش الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب (السر

الأسود) وكانت من برد لعائشة ، وقد أشرف عليه السلام على حير قال

لأصحابه :

— قموا .

ثم قال :

— اللهم رب السموات وما أظلم ، ورب الأرضين وما أفس ،
ورب الشياطين وما أضلل ، ورب الرياح وما أذرين ، إني نسألك خير
هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر
ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وأشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير :

— الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فقال — ﷺ :

— أربعوا على أنفسكم (ارفقوا بأنفسكم) لا تبالعوا في رفع
أصواتكم فإيكم لا تدعون أصم ولا غاف ، إيكم تدعون سميما قريبا وهو
معكم .

وما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، وكان رسول الله —
ﷺ — إذا عر قوما م يعر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أدانا أمسك وإذا
لم يسمع أدانا أعار ، فزلوا حير ليلا فبات رسول الله ﷺ — حتى إذا
أصبح لم يسمع أدانا ، فركب وركب المسلمون معه ، فركب أبس من
مالك حلف أني طلحة وإن قدمه لتمس قدم رسول الله — ﷺ ، وأصبح
يهود وأقعدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وعلدوا إلى عماطهم معهم المساحي
والفتوس والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله — ﷺ — قالوا
— محمد والخميس (١) .

هولوا هاربن إلى حصونهم وجعل رسول الله ﷺ — يقول

(١) سمى الجيش خميسا لأنه خمسة أقسام المقدمة والساقة والميسرة والقلب

— الله أكبر ، حربت خير . إنا إذا برلنا ساحة قوم هاء صاح المدرس .

ووعظ رسول الله ﷺ — الناس وفرق فيهم ارباب وارفعت أصوتهم :

— يا منصور أمت . يا منصور أمت .

كان يهودى حصونهم يرتجفون ، إهم عشرة آلاف مقاتل وكان عند الله ابن أبي بن سلول كبير المفاوضين أرسل إليهم يخبرهم بأن محمد سائر إليهم فجدوا حذر كم وأدخلوا أموالكم حصونكم وخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه إن عددكم كثير وقوم محمد شرمة^(١) قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قبيل .

فكانوا يخرجون ويصطفون صفوفًا ثم يقولون مستهزئين :

— محمد يعزونا ؟ هيهات هيهات .

كانوا واثقين من أنهم سيسيروا إلى محمد عليه السلام ليحاربوه في المدينة ولكنهم أصبحوا فوجئوا بمحمد عه السلام وحيشه يتقدمون صوب الحصون .

كانت حصون خيبر حصونا دوت عدد مها البطاة وحصن الصعب ابن معاذ وحصن ناعم وحصن قلعة أربير — هذه الحصون البطاة ، والشق وبه حصون مها حصن أبي وحصن الرار ، وحصون لكتيبة ومها القموص والوطيح وسلام .

وبرل رسول الله ﷺ — قريبا من حصون البطاة فحاءه الحباب

(١) شرمة : جمعة قليلة العدد

ابن المدر فقال :

— يا رسول الله إنك نزلت مرلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم ، وإن كان الرأي فكلمنا .
— هو الرأي .

— يا رسول الله إن أهل البطاة لي بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مرمى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لأخطاؤهم ، ولا تأمن من بيئاتهم يدخلون في حمرة السحل (السحل المختتم بعصه على بعض) ، تحول يا رسول الله .

— أشرت بالرأي ، إذا أمسيبنا إن شاء الله تحولنا
ودعا رسول الله — ﷺ — محمد بن مسلمة فقال :
— انظر لنا منزلا بعيدا .

فطاف محمد بن مسلمة وقال :

— يا رسول الله وجدت لك منزلا .
— على بركة الله .

وتحول عليه السلام لما أمسى إلى الصحرة ، وأمر الناس بالتحول فتحولوا إليها ، واتخذوا ذلك الموقع معسكرا ، وابتنى رسول الله — ﷺ — هناك مسجدا يصلي به طويلا مقامه خير

وراح يهود يرمون المسلمين بالسهام والنبال من حصون البطاة . فأمر — ﷺ — بقطع نخيل أهل الحصون فوق المسمومين في قطعها حتى قطعوا أربعمئة نخلة ثم ساهم عن النقطع ، وهجم المسموم على حصن ناعم وراحوا يرمون بالسهام ويهود تقتل ورسول الله — ﷺ — على فرس يقال له الطرب وعليه درعا ومعصر وبيصبة وفي يده

قناة وبرس ، وقد دفع — ﷺ — لواءه إلى عمر بن الخطاب وهب من هبض معه من الناس فلقوا أهل حير ، فاكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله — ﷺ — يحسه أصحابه ويحبهم ، وكان رسول الله قد أحدثه الشقيقة^(١) فلم يرح إلى الناس فأحد أبو بكر راية رسول الله — ﷺ — ، ثم هب فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأحدها عمر بن الخطاب فقاتل قتالا شديدا أشد من القتال الأول ، ثم رجع وهجم الأنصار على الحصون ، كان الحر شديدا وكان محمود بن مسلمة يحارب بلا هوادة حتى أعياه الحرب وثقل السلاح فاعرج إلى ظل حصن ناعم ، ورفع مرحب وكنانة بن الربيع حجر الرحي يسيما وألقياه عليه فهشم النيصه على رأسه وبرت جلدة حميه على وجهه وندرت عيه ، فأدركه المسلمون فثاقوا به السي فسوى للجلدة إلى مكابها وعصه بخرقة فمات من شدة الخراجه .

وجاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله — ﷺ — فقال في عبط :

إن اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة .

كان محمد بن مسلمة يريد أن يثأر لأخيه وأن يندفع إلى حصون اليهود بنحس فيهم القل ، فقر — ﷺ —

— لا تمثوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرؤن ما تتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربا ورمهم وبواصيا وبواصبيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، ثم الرموا الأرض حلوسا فإذا عشوكم

(١) الشقيقة : نوع من صداع يعرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه .

فأنهضوا وكرروا .

وخرجت كتائب اليهود يتقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — في موقعه ، فاشتد ذلك على رسول الله عليه السلام وأمسى مهموما .

(١٢)

القتال رهيب وأهل حصون الطابة يخرجون للقتال ثم يعودون إلى الحصون يرمون المسلمين بالحجارة والسهام ، ورسول الله — ﷺ — يذهب كل يوم مع محمد بن مسلمة للقتال ويحلف على محل المعسكر عثمان ابن عفان ، فإذا أمسى ورجع إلى ذلك المحل ومن حرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليدأوى جرحه .

وكان — ﷺ — يأوب بين أصحابه في حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة استعمل عليه السلام عمر بن الخطاب وطاف عمر بأصحابه حول المعسكر وفرقهم ، فأوتى برحل من يهود حير في حوف الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه فقال : — اذهب في إلى بيكم حتى أكلمه .

فأمسك عنه وانتهى به إلى السي — ﷺ — فوحده بصلى ، فسمع — صلوات الله وسلامه عليه — كلام عمر مسلم وأدخله عليه ، فدخل باليهودى فقال رسول الله — ﷺ — لليهودى :

— ما وراءك ؟

— تؤمننى يا أبا القاسم ؟

— نعم .

— خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة .

— فأين يذهبون ؟

— إلى الشق يجعلون فيه ذرارهم ويتجهون للقتال ، وفي هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منحنيق ودبابات ودررع وسيوف فإذا دخلت الحصن عدا وأنت تدخله .

قال رسول الله عليه السلام :

— إن شاء الله .

قال اليهودى :

— إن شاء الله أوقفنك عليه فإنه لا يعرفه عبرى ، وأخرى .

— ما هي ؟

— يستخرج المنحنيق^(١) ويصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكنية .

وراح اليهودى تغلف بمعبر زائغتين ثم قال .

— يا أبا القاسم احقن دمي .

— أنت آمن .

— ولى زوجة فهبها لى .

(١) المنحنيق : آلة حربية ترمى بالحجارة وتهدم الحصون .

— هي لك .

ثم دعاه إلى الإسلام فقال :

— أنظري أياما .

ثم قال عليه السلام لمحمد بن مسلمة :

— لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا

يولى الدبر يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .

وعند ذلك لم يكن من الصحابة أحد له منزلة عند النبي — ﷺ —

إلا يرحو أن يعطاها . ونسى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك الرجل فما

أحب الإمارة إلا ذلك اليوم ، وبات الناس يدكرون لينتهم أيهم يعطاها ،

فلما أصبحوا عدوا على رسول الله — ﷺ — كلهم يرحو أن يعطاها ،

فقال رسول الله — ﷺ — .

— أين على بن أبي طالب ؟

— هو يا رسول الله يشتكي عييه .

— من يأتيه به ؟

فذهب سلمة بن الأكوع فدعاه ، فحاء على بعير له حتى أتاه قريبا

من رسول الله — ﷺ — وهو أرمد قد عصب عييه بشقة برد قطري ،

فراح سلمة يقوده إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله عليه

السلام :

— ما لك ؟

— رمدت .

— ادن مني .

فوضع رأسه في حجره عليه اسلام وفتح له عييه فدلكهما فبرأ حتى

كان لم يكن هما وح ، وأليسه عليه السلام درعه وشد سيفه ذا الفقار
في وسطه وأعطاه الراية وقال له :

— امش ولا تلتفت .

فسار شيئاً ثم وقف ولم يلتفت ، فصرخ :

— يا رسول الله علام أقاتل الناس ؟

— قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا

فعلوا ذلك فقد معوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله
تعالى : وأحبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك
رجلاً واحداً خيراً من أن يكون لك حمر النعم .

فانطلق علي بالراية وعليه حلة أرجوان حمراء يهزول حتى ركزها
تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال :

— من أنت ؟

— على بن أبى طالب .

وخرج إليه أهل الحصن وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب ،
وكان معروفاً بالشجاعة ، والتقى الجمعان ودار القتال ومشى الرجال إلى
الرحال فأنكشف المسلمون ونبت على كرم الله وجهه ، وهجم على
الحارث فتضاربا فقتله ، فلما رأى المسلمون ثبات على كروا على أعدائهم
الذين رزّلوا مقتل الحارث فلوهم فاهرم اليهود إلى الحصن وأصوات
المسلمين تهز خيبر :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت

وخرج مرحب صاحب حصن وعليه مغفر معصفر وحجر قد ثقبه
مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خير أئى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب

أطعم أحياءا وحينما أضرب إذا الحروب أقبلت تلهب
كأن حماي كالحمى لا يقرب

فبرز له على بن أبي طالب فقال :
أنا الذي سمتني أمي حيدرة كيث غابت شديد قسورة^(١)
أكيلكم بالسيف كيل المنذرة^(٢)

وحمل مرحب عليه وصر به صرعة اتقاها بترسه ، ثم بدره على كرم
الله وجهه فصر به فقد احمر والمعر وفلق رأسه حتى أحد السيف في
الأضراس .

وأرد عامر بن الأكوع أن يضرب بسيفه ساق يهودى فرجع إليه
سيفه وجاءت ذبابة في ركته فسقط يتلوى من الألم ، فحمله المسلمون
إلى معسكر رسول الله ﷺ .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجر :
قد علمت حير أنى ياسر شاكي السلاح بطل مغاور
إذا الليوث أقبلت تبسادر إن حماي فيه موت حاصر
وقال :

— هل من مبارز ؟

فخرج له الربيع بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب عمه رسول
الله ﷺ — تنظر وقد استولى عليها خوف شديد فهي تعلم أن ياسر

(١) قسورة : اسم من أسماء الأسد .

(٢) المنذرة : مكيال كبير .

من مرساں اليهود وشجعاهم ، ولم تستطع أن ترفب المبارزة بأعين مفتوحة وعصف بها الخوف فقلت :

— يا رسول الله إنه يقتل ابني .

— بل ابلك يقتله إن شاء الله .

وراح الزبير يرتجز :

قد علمت خير أنى زيار

قرم^(١) لقرم غير نكس^(٢) فرار

أيس حماة المخد أيس الأحيار

ياسر ، لا يفررك جمع الكفار

فجمعهم مثل السراب المختار^(٣)

وراح الزبير ويأسر يتبادلان الصربات ثم ضرب الزبير اليهودى صربة قاتلة فتركه كأمس الدابر ، فارفعت أصوات المسلمين بالتكبير ورفت على شفتى صفيّة بسمة اطمئنان وإن اغرورقت عيناها بالدموع ، وقال رسول الله عليه السلام :

— فذاك عم وخال ، لكل سى حوارى وحوارى الزبير .

وجاء يسار وكان عبدا حبشيا إلى رسول الله ﷺ — وكان أجيرا

لرجل من اليهود كان يرعى غنمه وقال .

— إن أسلمت فماذا لى ؟

— الجنة .

(٢) النكس : الضعيف الحيان .

(١) القرم ها : السيد .

(٣) المختار : الخداع .

فأسلم ، فلما أسلم قال :

— يا رسول الله إني كنت أجرا لصاحب هذه العنم فكيف أصع بها ؟ إنها أمانة وهي للباس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

كان رسول الله عليه السلام يحارب اليهود وكانت العنم لليهود فلم يأمر بمصادرتها بل أمر برد الأمانة إلى أصحابها ، فقال له عليه السلام :

— اضرب في وجهها فإنها مشرّجعة إلى ربها .

فقام يسار فأخذ حصاة من حصاء فرمى بها في وجهها وقال :

— أرجعي إلى صاحبك فوالله لا أصححك .

فخرجت محتملة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم

يسار إلى الحصن مشرّح الصدر قد عمرته سعادة لأنه هدى إلى الصراط

وراح يقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأتى

به إلى رسول الله ﷺ — ومعه نفر من أصحابه فقال — عليه السلام :

— لقد كرم الله هذا بعد وساقه إلى خير ، وقد كان الإسلام من

نفسه حقاً .

وراح عامر بن سلمة يتلوى من الألم وعمر بن الخطاب يرونو إليه وهو

على ثقة من أنه يهود بأفاسه ، فعامر كان يرتخر لرسول الله عليه السلام

فقال له : يرحمك ربك . فقال له عمر : وحببت يا رسول الله بولا أمتعتنا

به . لأنه — عليه السلام — ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموطس إلا

استشهد .

ومات عامر بن سلمة وحاص الناس في موته فمس قاتل : قتله

سلاحه ، ومن قاتل : قتل نفسه فليس بشهيد . فانطبق سلمة بس

الأكوع إلى رسول الله ﷺ — وقال وقد تملكه إشفاق أن لا يكون

أخوه شهيدا :

— يزعم أسيد بن حصير وجماعته من أصحابك أن عامرا أحبط عمله
إد قتل بسيفه .

فقال صلى الله عليه وسلم :

— إنه لشهيد .

وصلى عليه — صلى الله عليه وسلم — والمسلمون .

(١٣)

در القتال رهيا عند حصن باعم ، على بر أنى طالب يتقدم ويصرب
بسيه لا يلتفت حله ، وأصوات المسلمين تدوى في آذان يهود كأها
صواعق مندرة بالموت .

— يا مصبور أمت أمت .

وبلغ على كرم الله وجهه باب الحصن فاجتذبه وحمله على ظهره
فراح المسلمون يصعدون عليه يارزون يهود الدين كانوا بأعلى الحصن .
ولاحت هزيمة يهود فانسبر منهم إلى حصن صعب يتحصنوا به ،
وقتل من قتل وأسروا من أسروا وتم فتح أول حصن من حصون اليهود فأخذ
المسلمون يكبرون وقد عمرهم السرور .

وأصاب المسلمين بحافة ، وأرسلت أسنم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له — صلى الله عليه وسلم — إن أسلم يقرئونك السلام
ويقوبون أجهدنا الجوع . فلامهم رحل وقال :

— من بين العرب تصنعون هذا ؟

فقال أنحو أسماء بن حارثة :
 — والله إني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﷺ —
 مفتاح الخير .
 فحماه — ﷺ — أسماء وبلعه ما قالت أسلم ، فقال :
 — اللهم إني قد عرفت حالهم وأن ليس بهم قوة وأن ليس بيدي شيء
 أعطيهم إياه .

و لم يجد المسلمون غير الخمر الإسيية فدبحوها ووضعوها في القدور
 على النار وبينما القدور تفور بها جاء داعي رسول الله ﷺ — ينبي
 المسلمين عن أكل لحوم الخمر الأهلية فكفوا القدور على وجوهها
 وقام بهم رسول الله ﷺ — فقال :

— لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ماؤه ررع غيره
 « يعني إيتاء الخبالي من السبايا » ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم
 الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستترئها^(١) ، ولا يحل لامرئ
 يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع معناه حتى يقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن
 بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها^(٢)
 ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يمس ثوبا من فيء
 المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه .

وأشرقت الشمس وعند رسول الله ﷺ — وقد أسلم فدعا لهم :
 — اللهم افتح أكثر الحصور طعاما وودكا^(٣)

(١) يستبرؤها : يتأكد من براءه رحمة من الحمل ، وذلك بالحيض .

(٢) أعجمها : هزلها وأضعفها . (٣) الودك : الدسم

ودفع اللواء للحباب بن المنذر وبذب الناس فحرح مع الحباب صناديد المهاجرين والأبصار وطلقوا إلى حصص الصعب وهم يكبرون ، وحرّح من الحصن راحل يقال له يوشع مباررا فحرح له الحباب بن المنذر وقد كثر عن أنيابه وقال :
— يا منصور أمت أمت .

وتنادلا ضربتين فبدره الحباب فائدا جيش المسلمين بصرية أردته فتبلا فكر المسلمون ، وقرع التكبير آذان يهود في الحصن فراعته أعينهم واهربت أنفاسهم وبرل بهم هم ثقيل واستولى عليهم يأس مرير ، فقد أطلت من سيوف المسلمين ريب المون .

ونحرح آخر مباررا يقال له الديال فبرر له عمارة بن عقبة العفاري فمشى كل مهما إلى صاحبه مشى الوعول ؛ لليهودى في الدروع على رأسه حوذة تالقي في الشمس وفي يده رمح ذو ثلاث شعب كان في فحامة جالوت لما حارب النصى داود عليه السلام^(١) ، وكان عمارة في يده ترس وفي الأخرى سيف يمى ، وضرب الديال عمارة بصرية اتقاها بالترس وفي مثل لمح البصر هوى بسيفه على هامة اليهودى فقتله وقال له .
— نخدها وأنا الغلام العفاري .

فقال الناس في أسي :

— حط جهاده .

لم يكترّ عمارة وهو يصرب اليهودى ولم ينف بشعار المسلمين بل دعا بدعوة الجاهلية فساء ذلك الناس وحملت اليهود حملة مكرة

(١) القصة في سورة البقرة الآية ٢٤٦ — ٢٥١ .

فالكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ — وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحجاب بن انتدر ، فحرص رسول الله عليه السلام المسلمين على الجهاد فأقنوا وزحف بهم الحجاب قراح الرجال الصاديد يلعون بالسبوف يضربون الهامات ويقطعون في القلوب . فاختلطت صرخات الفزع بأبانت الألم بصوت ارتطام الأجساد بالأرض بأصوات التكبير بالهتاف بشعار المسمين ، وسالت الدماء في اليهود المهرمين .

ورلزل اليهود لرلرالا شديدا وراعت الأنصار وبعثت القلوب الحاجر وراحوا يولون الأدبار لا يلوون على شيء حتى دخلوا الحصن وأغلغوه عليهم . ولم يقف الحصن في وجه البيوت اندس أمدهم يماهم بالنصر المين بقوة جمعتهم يتسلقون الحصن دون أن يفت في عزيمتهم الحجارة التي تلقى عليهم والسهم انتي تصوب إلى صدورهم .

وتمكّن نفر من المسلمين من أن يتساقوا الحصن وأن يشتوا أقدامهم فوقه فدارت معركة رهيبية بين الفاتحين وبين الذين يدامعون عن أعناقهم وأعراسهم وأموالهم ، وتمكّن فريق من المسلمين من أن يصلوا إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون كالسيل لحارف تدور معركة فاصنة بينهم وبين الخمسمائة مقاتل الدين كانوا في حصن الصعب ، ولما أصبحت الدائرة على اليهود اسل فريق منهم إلى حصن قلة وهو قلة جبل ليسأعوا القتال إذا ما تحول المسلمون للهجوم على ذلك الحصن .

وأحد المسلمون يقتلون ويأسرون حتى وقع الحصن في أيديهم فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والریت والودك شيئا كثيرا ، وراح الرجال يحمون ما نصل إليه أيديهم (صلح الحديبية)

فنادى رسول الله ﷺ :

— كلوا واعلفوا ولا تحملوا .

كان نفر من المهاجرين يريدون أن يخرجوا بما غنموا إلى بلادهم فمضى رسول الله ﷺ — عن ذلك وأباح الأكل والعلف في المعسكر ، وقد أصاب عبد الله بن معقل من فيء خيبر جراب شعحم فاحتمله على عنقه يريد رحله فلقيه صاحب المعائم الذي جعل عليها فأخذ بهاصيته وقال : — هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين .

— والله لا أعطيكه .

فجعل أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصاري صاحب المعائم يجاديه الجراب ، فأرهما رسول الله ﷺ — وهما يصنعان ذلك فتبسم ضاحكاً ثم قال لصاحب المغام : — لا أبالك ، خل بيته وبنيه .

فأرسله فاطلق به عبد الله بن مغفل إلى رحله وأصحابه فأكلوا . وراح اليهودي الذي أمته رسول الله ﷺ — وذهب له روجه يقود المسلمين في سرايد تحت أرض الحصن حتى وصلوا إلى بيت تكدست فيه منعجيق ودبابات ودروع وسيوف ، فأخذوا يحملوها إلى حيث كان رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وذكر الناس ما كان من عمارة بن عقبة العفاري لما ضرب الديال وقال له - حدها وأنا العلام العفاري وقرل الناس حبط جهاده ، فقال - ﷺ :

— يؤجر ويحمد .

وراح المسلمون يحاصرون حصن قلة وهو آخر حصون البطاة ،

فراح اليهود يسددون إليهم السهام ويلقون عليهم الحجارة دون أن يخرجوا للمبارزة من حصنهم . وانقضى اليوم الأول من الحصار وما نال المسلمون من الحصن شيئاً واستمر الحصار واليهود يرقبون ما يجري أمام الحصن على يدي المسمين حتى إذا ما صلبوا الصبح وأشرقت الشمس وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

— يا منصور أمت أمت .

وشدت الأقواس وأطلقت السهام فسقطت أحساد من فوق الحصن تهوى كالشهاب . ولكن اليوم الثانى مر دون أن يبال المسلمون من الحصن شيئاً فهو على قمة جبل يسيطر على كل الطرق التى تقود إليه . وجاء اليوم الثالث وحاول المسلمون أن يرحلوا صاعدين إلى الحصن ولكن اليهود أمطروهم بوابل من السهام فعجزوا عن التقدم ، ورأوا أن يحاصروا الحصن حتى يبال الجوع والعطش من المحاصرين فيزلوا على حكم المسلمين .

وجاء الليل فانسل يهودى تحت جح الطلام إلى معسكر المسلمين وكان محمد بن مسلمة يحرسه ، فالتقى اليهودى مقاتلة رسول الله ﷺ — فقاذه ابن مسلمة إلى حيث كان عليه السلام فقال :

— يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به ؟ فأبى لو مكثت شهر لا تقدر على فتح هذا الحصن فإن به دُبر لا^(١) تحت الأرض يخرجون ليلاً فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

(١) الدبول : جمع دُبُل : البئر الصغير .

وسار عليه السلام إلى ديوتهم فقطعها فلم يجد اليهود مفرا من أن يخرجوا من الحصن ليقاتلوا دفاعا عن حياتهم التي أصبحت مهددة بالبنار من أعطش ، فدارت معركة رهيبة بين أهل الكتاب الأول الذين تنكروا لكتابهم وبين الذين يريدون أن يحقوا الحق وأن تكون كلمة الله هي العليا . ورهقت أرواح نمر من اليهود وسقط من المسلمين شهداء وحمل المسمومون على اليهود حملة رجل واحد وأصواتهم تفعل في أعدائهم ما تفعله السيوف النارية ، فما أن يدوى بين السماء والأرض شعار المسلمين « يا منصور أمت أمت » حتى تتحلحل مفاصل أعدائهم ويكادوا أن يموتوا رغبا قبل أن تصل إلى أفئدتهم السهام أو تنطفئ رموسهم السيوف .

ورأت السوءة من الحصون هزيمة الرجال فأحدت في لولولة والعيول ورحن يحرصهم على لقتال ولكن أصواتهن ذهبت أذراج الرياح . فقد كان المقاتلون اليهود داهلين على كل شيء إلا الحرص على الجاة مجلودهم .

ودخل اليهود الحصن والمسلمون في أثرهم ، ودارت معركة داخل الحصن وأصوات الهلع تعطى على قفعة السلاح . وحزى السوءة في رعب في أرجاء الحصن يفوق سرعة كمر الرجال وفرهم .

وحفقت أصوات السيوف وارتفع الصراخ فقد كان المسلمون يأسرون الرجال والنساء والولدان ويحملون الغنائم إلى معسكر المسلمين .

ولاح في الأفق العبد ركب قادم من المدينة فاتجهت إليه الأنظار حتى إذا ما دنا من المعسكر عرف الناس القادمين ، إنهم سبعون بيتا من دوس

على رأسهم الطمیل بن عمرو الدوسی وفیهم أبو هريرة . کان الطمیل قد أسلم قبل أن یمار رسول الله علیه السلام وعاد إلى قومه فأجابه أبو هريرة وحده وأبطأ علیه قومه ، فعاد إلى رسول الله ﷺ — وأحره بإبطاء قومه وقال له :

— ادع علیهم .

فقال — ﷺ :

— اللهم اهد دوساً واثتاً .

ثم قال له :

— اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرج إلى قومه فلم یزل بأرض دوس یدعوها حتی یمار رسول الله ﷺ — إلى المدیة ومصت عروة بدر وأخذ والحدیق ، ثم قدم على رسول الله ﷺ — عن أسلم من قومه حتی برل المدیة ، فصلی أبو هريرة الصبح حنف ساع بن عرفة فقرأ فی السجدة الأولى بسورة مريم وفي الآخرة ویل للمطففین .

فقال أبو هريرة فی نفسه :

— ویل لأبی !

وتذكر أبو هريرة رجال الأرد فقلّ رجل کان بأرض الأزد إلا وكان به مکیالان : مکیال لنفسه وأحر یبحس به الناس .

وبرل الطمیل بن عمرو والیدی معه فی معسكر المسممین یتطربون النهار لیدخلوا على رسول الله علیه السلام ، فضل علام لأبی هريرة فجعل یشد :

یا لیمة من طولها وعائها علی أنها من دائرة الکفر تحت

وأذن بلال بالمعصر نهض كل من في المعسكر وصنوا حلف رسول الله عليه السلام ، فيما قضيت الصلاة دخل سادات الأردن على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال الطفيل بن عمرو :

— يا رسول الله اجعنا ميمتك واجعل شعارنا مبرور .

وطبع علام أبى هريرة الذى كان صل فى الليلة الماضية فقال له عليه السلام :

— هذا علامك يا أبى هريرة ؟

فقال أبو هريرة وهو متفرح فى الله .

— هو حر لوجه الله .

(١٤)

فتح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حصون البصرة الثلاثة وخرج حصن قلة فى سهم الرير بن العوام يعرف بقنة الزبير ، وسار المسلمون إلى حصار حصون الشق وقد صار الأردن ميممة جيش المسلمين وصار شعارهم مبرور . وبدأ المسلمون يحصن أبى فقاتل أهله قتالا شديدا ، وخرج رجل منهم يقال له عروا يدعو إلى البراز فبرز له الحباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف ذراعه فبادر راجعا منهما إلى الحصن ، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوق فذبح عليه ، فخرج آخر مباررا فخرج له رجل من المسلمين فقتل اليهودى المسلم فارتفعت صيحات الفرح من فوق الحصن .

فقام اليهودى مكانه للبرار وقد انتفحت أوداجه^(١) عرورا فخرج له أبو دحانة وعصب رأسه بعصابة حمراء . فاستبشر المسلمون ، فما حرح أبو دحانة يببحر وقد عصب رأسه بعصابته إلا أداق حصمه المنون .
وصرب أبو دحانة اليهودى فقطع رجله ثم دَفَفَ^(٢) عليه فتركه جثة هامة منزل العرب في قلوب ايهود فأحجموا عن البرار ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دحانة فوجدوا فيه أثنا ومتاعا وغما وطعاما . وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء وهو الحصن الثانى من حصصى الشق فتمنعوا به أشد التمعن وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالبل والحجارة حتى أصاب السيل ثياب رسول الله ﷺ — وعلقت به .

وثارت الدماء في عروق المسلمين فحملوا على الحصن حملة رجل واحد ، وصبوا المسجنيق الذى وجدوه في حصن الصعب وجعلوا يصبون القذائف إلى الحصن حتى أوجدوا به ثقباً فراحوا يتدفقون منه ويقاتلون المدافعين .

وسقط حصن أبى فرجدوا فيه فيما وجدوا آية من نحاس وفجار كاست اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال عليه السلام :
... سحوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد وكنوا واشربوا .

وانهرم من سسم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة وهى ثلاثة حصون : القموص والوطييح وسلام ، فراح المسلمون يحاصرون

(١) الأوداج : جمع مفردة ودَج وهو عرق يظهر في صفحتى العنق .

(٢) دَفَفَ عليه : أجهز عليه .

القمر من عشرين ليلة وكان ميعا ، إنه حصص أبي الحقيق وفيه صفية بنت حبي بن أخطب وكرام نساء اليهود .

وقاد على بن أبي طالب هجوم المسلمين فاطلق لا يلوى على شيء لا يهاب البيل الذي تساقط على المسلمين كالطر ، فلما رأى اليهود تقدمه أوجسوا منه خيفة وراحوا يرمونه بالحجارة وهو كالليث يعدو إلى الحصن لا يبتفت نخسه . واندفع الرجال في أثره وشعار الناس يا منصور أمت أمت ، وشعار مبمته من الأزدي مرور .

وتداعى الحصن تحت هجمات على كرم الله وجهه وصاديد المسلمين . وسيت صفية بنت حبي وست عمها وجاء بلال مها فمر على قتل يهود ، فمما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحث التراب على رأسها ، فلما رآها — عليه السلام — قال :
— اغربوا عني هذه الشيطانة .

وانتمت إلى بلال وقال :

— أنرعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتل رجافما ؟
ودهب بلال مها إلى حيث جمع السبي فجاء دحية الكلبي فقال :
— يا نبي الله أعطني جارية من السبي .
— اذهب فخذ جارية .

فأحد صفية بنت حبي ، فجاء رجل إلى السبي — عليه السلام — فقال :
— يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والضير ، لا تصلح إلا لك .
— ادعوه بها .

فجاءها — فلما نظر إليها السبي — عليه السلام — قال :

— خذ جارية من السبي غيرها .

وذهب دحية إلى حيث جمع السبي وأخذ جارية أخرى هي أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صعية .

وحاصر المسلمون حصن الوطيح وحصن السلام ومكثوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم — ﷺ — أن يجعل على من فيها المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله — ﷺ — الصلح في حقن دماء المقاتلة وترك الدرية لهم ويخرجون من حير وأرضها بدراريم وأن لا يصحب واحد منهم إلا ثوبا واحدا على طهره ، فصالحهم على أن دمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

ووجد في الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة فرس عربية ، ووحدوا في أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فحانت يهود تطلها فأمر — ﷺ — يدفعها إليهم ، وغيروا الحد الذي كان فيه حللى بنى النضير وعقود الدر والحوهر الدين جلوا به ، فإنهم لما حلوا كان سلام بن أبي الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته . « هذا أعداداه لرفع الأرض وحفصها » فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق .

— أين مسك (جلد) حتى بن أخطب ؟

إن رسول الله يسأل عن كسر حتى عظيم بنى النضير فمحمدا أن يكون يعلم مكانه وقال :

— بعد في النقة والحروب .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كان أكثر من ذلك .

ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله ﷺ — فقال .

— يا رسول الله إن رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل عداة .

فقال رسول الله ﷺ — لكانة :

— أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟

— نعم

فأمر رسول الله ﷺ — بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض

كرهم . ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر رسول الله ﷺ —

الريز بن العوام به فقال :

— عذبه حتى نستأصل ما عنده

فراح أنزير يقدح بريد في صدره حتى أشرف على عصبه ، وحيء

بكربى الضير فإذا به أساور ودمالخ وحلاجيل وأقرطة وحواتم الذهب

وعقود الجوهر والزمرود وعقود طقار محرج بالذهب ، إنها الخيل التي كان

أعيان مكة يستعبرونها من بنى النضير إذا كان لأحدهم عرس .

ودفع رسول الله ﷺ — بكانة محمد بن مسلمة فضرب عنقه

بأخيه محمود ، وقال — ﷺ — لأصحابه :

— يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا .

وراح المسلمون يتطلعون صوب المدينة فإذا ركب يشتد على

الطريق ، إنه جعفر بن أبي طالب ومعه الأشعريون أبو موسى الأشعري

وأخوه أبو رهم وأبو بردة وسعدون رحلا عليهم ثياب الصوف ، منهم

أثنان وستون من الحبشة وثمانية روميون من أهل اشام . وراح المسلمون

القادمون من الحبشة يقولون في شوق :

- عدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .
 وأقبل عليه — ﷺ — جعفر فقام عليه السلام إلى جعفر وقبلة بين
 عينيه وقال :
 — جعفر أشد الناس في تحلقا وتحلقا .
 فانتشى جعفر هذا القول ورقص من بشوة الخطاب ، وراح —
 ﷺ — يخدم وقد الحاشى بنفسه فقال له أصحابه :
 — نحن نكفيك يا رسول الله .
 — إهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم .
 واستمر رسول الله عبيه السلام يخدم وقد النحشى بنفسه ويطر إلى
 جعفر بن أبى طالب في عدوه وراحه وهو مسرور ثم قال :
 — لا أدري بأيهما أنا أسر ، بفتح خير أم بقلوم جعفر .

(١٥)

أمر رسول الله — ﷺ — بالمائتم فجمعت واستعمل عليها فروة بن
 عمرو البياضى ، وأمر بذلك فحزى خمسة أجراء وكتب في سهم مها
 لله وسائر السهمان أعمال ، فكان أول ما خرج سهم النبى — ﷺ ،
 وأمر ببيع الأربعة الأخماس فيمن يريد فاعها فروة وقسم ذلك بين
 أصحابه .
 وكان الذى ولى إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفا وأربعمائة
 رجل ، والخييل مائتى فرس ، فكانت السهمان على ثمانية عشر سهما
 لكل مائة سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله — ﷺ —

يعطى منه على ما أراه الله .

وكانت المقاسم على أموال خير على الشق وبطاة والكثيعة فكانت الكثيعة خمس الله وسهم السى — ﷺ — ودوى القرى واليتامى والمساكين ، وطعم أرواج السى — ﷺ — وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ ، وبين أهل ذلك بالصلح . فإيه لما أقبل رسول الله — ﷺ — على حير ودنا منها بعث محبصة بن مسعود إلى أهل فذلك يدعوههم إلى الإسلام ويخوفهم فحاءهم محبصة فجعلوا يترقبون ويقولون :

— إن حير عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه .

فمكث محبصة عندهم يومين ثم أراد الرجوع فقبو .

— نحن نرسل ملك رجالا منا يأخذون لما الصلح .

كانوا يطبون أن رسول الله — ﷺ — لا يقدر على فتح خير حتى جاءهم أناس من حصص ناعم وأحبروهم أن رسول الله — ﷺ — فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع في نصر يصاحون رسول الله — ﷺ — أن يحرق دماءهم ويحلبهم ويحبوا بيته وبين الأموال ، فكانت فذلك لرسول الله — ﷺ — لأنها لم تؤخذ بمقاتلة فكان عليه السلام يفرق منها ويعود بها على صعيصى هاشم ويزوج منها أئيمهم .

وأعطى عليه السلام من أموال حير محبصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقا^(١) من شعير وثلاثين وسقا من تمر وكانت الشق والبطة في

(١) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

سُهِمَانِ الْمَسْمُومِينَ . وَقَسَمْتُ حَبِيرَ عَلَى أَهْلِ اخْدِيبِيَّةِ مَنْ شَهِدَ مِنْهُمْ وَمَنْ عَابَ وَلَمْ يَغِبْ عَنْهَا إِلَّا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَسَمَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — كَسْهُمْ مِنْ حَصَرِهَا .

وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ — مِنَ الْكُتَيْبَةِ — وَهُوَ وَادِي حَاصٍ — لَهَا طِمَّةٌ اسْتَهَ مَائَتَى وَسَقَى . وَلَعَلَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مَائَةَ وَسَقَى ، وَلَأْسَامَةَ بْنَ رَيْدٍ مَائَتَى وَسَقَى وَخَمْسِينَ وَسَقَا بَوَى ، وَلِعَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مَائَتَى وَسَقَى ، وَلَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مَائَةَ وَسَقَى ، وَلَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مَائَةَ وَسَقَى وَأَرْعِينَ وَسَقَا ، وَلِبْنَى جَعْفَرَ خَمْسِينَ وَسَقَا ، وَاسْتَمَرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقْسِمُ السُّهِمَانَ فَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْفَرَجِ .

وَكَانَتْ عَطْفَانٌ قَدْ أَرَادَتْ وَسِيدَهُمْ عَيْبَةَ بْنِ حَصَصٍ أَنْ يَعْبُوا أَهْلَ حَبِيرٍ وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ ، فَإِنَّ يَهُودَ حَبِيرٍ نَا سَمَعُوا بِمَحَبَّتِهِ — إِلَيْهِمْ أَرْسَلُوا كِمَانَةَ بْنَ أَبِي الْحَقِيقِ وَهُودَةَ بْنَ قَيْسٍ فِي أَرْبَعَةِ عَشَرَ رَحْلاً إِلَى غُظَمَانَ لِيَسْتَمْلُوا بِهِمْ وَشَرَطُوا لَهُمْ نِصْفَ ثَمَارِ حَبِيرٍ إِنْ عَلَبُوا الْمُسْلِمِينَ ، فَجَمَعُوا ثُمَّ حَرَجُوا لِيُطَاهَرُوا يَهُودَ حَبِيرٍ فَلَمَّا سَارُوا قَلِيلًا سَمِعُوا صَوْتًا . — يُبَايِعُ النَّاسُ أَهْلَكُمْ حَوْلَ عَمِّ إِلَيْهِمْ .

فَأَلْقَى اللَّهُ الرِّعَابَ فِي قُلُوبِهِمْ فَرَجَعُوا عَنِ الصَّعْبِ وَانْدَلُولِ فَأَقَامُوا فِي أَهْلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَحَلُّوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ — وَبَيْنَ أَهْلِ حَبِيرٍ :
وَقَدِمَتْ عَطْفَانُ عَلَيْهِ — حَبِيرَ ، قَالَ عَيْبَةُ بْنُ حَصَصٍ :
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ وَجَدَهُ فَتَحَ حَصُونَهَا :

— تُعْطَى مِمَّا عَمِيتَ مِنْ حِمَايَ فَإِنِّي اِمْتَنَعْتُ عَنْكَ وَعَنْ قِتَالِكَ
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

كَدَيْتَ وَلَكِنَّ الصِّيَاحَ ائْتَدَى سَمْعَتِ أَنْفُكَ إِلَى أَهْلِكَ ، وَلَكِنْ لَكَ

دو الرقية .

قال عيينة في دهش :

— وما دو الرقية ؟

— الخيل الذي رأيت في ممالكك أنك أحدثه .

لما سمع عيينة بن حصص الخليلع المطع الذي تنعه ألف امرأة الصوت ورجع إلى أهله ولم يجد شيئاً رجع بعد ذلك بمن معه إلى حير ، فلما كانوا بالقرب منها برلوا ليقصوا ليدتهم فنام عيينة وانشه وقال لقومه .

— أفسروا فإنى رأيت الليلة في النوم أنى أعطيت ذا الرقية (وهو جبل بخير) لقد والله أخذت برقية محمد .

وقدم حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان الحجاج مكثرًا من المال فقال :

— يا رسول الله إن مالى عند امرأتى بمكة ومتفرقة في تجارة مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لأخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شيء منه .

فأذن له رسول الله ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لا بد أن أقول .

كان الحجاج يلتبس من رسول الله عليه السلام أن يقول وأب يدكر خلاف الواقع وأن يقول ما يبتاع به لما يوصله إلى أحد ماله ، فقال له ﷺ .

— قل .

وحمل رسول الله ﷺ — صفيّة عند أم سبيح التى هى أم أنس خادمه لتصبح من شأنها حتى تطهر من الخبص فلما اطمأن رسول

الله — ﷺ — أهدت له ريب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية وقد سألت :

— أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله — ﷺ ؟
فقبل لها :

— الذراع .

فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، ففما وضعتها بين يدي رسول الله — ﷺ — تناول الذراع فلاك منها مضعة ثم يسفها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله — ﷺ — فأما بشر فأساعها وأما رسول الله — ﷺ — ففمطها ثم قال :

— إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت فقال :

— ما حملك على ذلك ؟

— بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخبر .

فتجاوز عنها رسول الله — ﷺ ، ومات بشر من أكلته التي أكل .

وركب الناس وانطلقوا وكل حالحة فيهم تشكر الله على ما آتاهم من نصر ، ولما قطع عليه السلام ستة أميال من خيبر وأراد أن يعرس بصفيّة فأنت هوجد^(١) ابني — ﷺ — في نفسه ، فلما سار ووصل الصهباء ما إلى دومة هالك ودخل على صفيّة وما من الناس أحد أكره إليها مه ،

قبل أباهما وروحهما وقومهما ، فقال — ﷺ :

— أما إنى أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إني صعدوا كذا وكذا .
وما رال يعتذر إليها حتى ذهب ذلك الكره من نفسها ، وحبها عليه
السلام بين أن يعتفها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتجدها
لنفسه فقالت :

— أختار الله ورسوله .

ورأى عليه السلام بأعلى عينها حصرة فقال :

— ما هذه الخصرة ؟

— كان رأسى في حجر ابن أبى الحقيق وأنا عروس وأنا بائنة ، فرأيت
كأن القمر وقع في حجرى فأخبرته بذلك فلطمى فقال :

— والله ، ما تتمنين إلا ملك العرب .

وأعرس بها رسول الله — ﷺ — بعد أن ظهرت من الحبص في
قبة ، مما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها منه — ﷺ .
وباتت تلك الليلة أبو أيوب الأنصارى متوشحاً بسمه بحرسه ويظوف
تلك القبة حتى أصبح رسول الله — ﷺ — رأى مكان أبى أيوب
فقال :

— مالك يا أبا أيوب ؟

— يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة قتلت أباهما وروحهما
وقومهما وهى حديثة عهد بكفر ، فسأحتطك
— اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .
فأصبح النبي — ﷺ — عروساً فقال :

— كل من عبده شيء فليحىء به .

وسط نَصْعاً فجعل الرجل يحميء بالتمر وجعل الرجل يحميء باسم
وجعل الرجل يحميء بالأقط^(١) والسويق^(٢) وحلط السمن والتمر والأقط
والسويق وصنع الخيس ، وقال عليه السلام لأُس بن مالك :
— آذن من حولك .

وأولم عليه السلام على صفية ، فلما انتهى الناس من الويلمة قالوا :
— إن لم يحجبها فهي أم ولد وإن حجبها فهي امرأته .
وأقام عليه لسلام بذلك المخل ثلاثة أيام ، وحين أوان الرجل
موصح — صلوات الله عليه — ركبته لتركب صميمة عليها فأنت أن تصع قدمها على
ركبته ووضعته فحدها على ركبته وركبت على حجر راقته ، فحاء الليل
فجعل يسع فتصرب رأسها مؤخره ارجل فيمسها بيده ويمس .
— يا هذه مهلا .

ووجدت منه رقة وكياسة ولطفا فقامت :
— ما رأيت أحدا قط أحسن حنفا من رسول الله — صلوات الله عليه .
وحجبها عليه السلام فأصبحت صفية بنت حبي بن أحطب أم
المؤمنين .

(١) الأقط : يخذ من لبس الخيص يصبح ثم يترك

(٢) السويق : طعام يصنع من الحطة والشعير .

بلغ قريش أن رسول الله ﷺ — سار إلى خيبر فأظهر جماعة منهم السرور وقالوا إنها قرية الحجاز ريفاً ومعة ورجالا ، وأن محمد بن عبد الله سيدوق الهزيمة عند حصون خيبر ، وقال حويطب بن عبد العري إن رسول الله يغيب أهل خيبر ، ووقع بين الفريقين مراهة على مائة بعير ، وخرجوا يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان . فلما رأوا الحجاج قالوا :

— الحجاج بن علاط عنده والله الخير .

وخفوا إليه وقالوا :

— أحبرنا يا حجاج فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهي بلد

يهود وريف الحجاز .

— قد بلغني ذلك وعندي من الخير ما يسركم .

فعدوا إلى ناقته وطافوا بها يقولون :

— إيه يا حجاج !

— هزم هزيمة لم تسمعوا مثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله

قط وأسر محمد أسرا وقالوا : لا نقله حتى يبعث به إلى مكة فيقتلوه بين

أطهرهم ممن أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا :

— لقد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل

بين أظهركم .

وقال حجاج :

— أعيوني على جمع مالى بمكة على عرمانى فإنى أريد أن أقدم خير فأصيب من قل^(١) محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هالك .

فقاموا فجمعوا له ماله كأحث جمع سمع به ، وجاء صاحبه فقال : — مالى لعلنى ألحق بخير فأصيب من حرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فحمل لا يستطيع أن يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال : — قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا .

فقال له الحجاج :

— اقرأ على أبنى الفضل السلام وقل له ليحل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتب عني .

فأقبل الغلام فقال :

— أبشر أبا الفضل .

فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس وقال :

(١) المل : الجمع .

— لله على عتق عشر رقاب .

ولم يستطع عباس صد فخرج إلى حيث كان حجاج حتى وقف إلى جبهه وهو في حيمة من حيام لتجار فقال :

— يا حجاج ، ما هذا الخير الذي حثت به ؟

— وهل عندك حفظ لما وصعت عندك ؟

— نعم

— فاستأخر عني حتى أفرغ .

فلما فرغ حجاج من جمع كل شيء كان له بمكة وأجمع الخروح لقي العباس فقال .

— احفظ علىّ حديثي يا أبا الفضل فإني أحشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما شئت .

— أفعل .

— إني قد أسلمت وإن لي مالا عند امرأتى ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إلى إني تركت رسول الله ﷺ — قد فتح حير وحرث سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروساً باينة ملكهم حبي بن أحطب وقتل ابن أبي الحقيق

فلما أمسى حجاج خرج وطالب على العباس تلك البيات الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس إلى حلة فلبسها وتعلق بحلق وأخذ بيده قضيباً ثم أقبل يحطّر حتى أتى محالس قریش وهم يقولون إذا مر بهم :

— لا يصيبك إلا حير يا أبا الفضل هذا والله التجلد بحر المصيبة .

فقال العباس في هدوء ليحصى شماتته :

— كلا والله الذي حلمتم به لم يصبنى إلا حير بحمد الله ، أحيرني

حجاج أن حير فتحها الله على يد رسول الله — ﷺ — وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطلمى رسول الله صفية بنت ملكهم حبي بن أحطب لنفسه وأنه تركه عروسا لها . وإما قال ذلك لكم ليخلص ماله وإلا فهو ممن أسلم .

فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون :

— انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ولم يلتوا أن جاءهم الخبر بذلك وأن رسول الله لما فرغ من حير انصرف إلى وادي القرى فزل به مع غروب الشمس ومعه علام له يقال له مدعم أهدها إليه رفاعة بن ريد الخدامي ، فيها هو يضع رحل رسول الله — ﷺ — أتاه سهم غرب فقتله فقال الناس :

— هنيئا له الجنة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كلا والذي نفس محمد بيده ، إن شملته لثحرت عليه في النار .

كان عليها من فيء المسلمين يوم حير ، فسمعها رحل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أصبت شركاين لتعلن لي .

— يقد لك مثلهما من النار .

كانت يهود وادي القرى قد ثوى إليها ناس من العرب ، فلما نزل المسلمون استقبلوهم بالرمي حيث برلوا ، ولم يكن المسلمون على تعبئة وهم يصيحون من آطامهم ، فعأ رسول الله — ﷺ — أصحابه وصمهم للقتال ودفع لوائه إلى سعد بن عباد وراية إلى الحباب بن اسدر

وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأحبرهم أنهم إن أسلموا أحرروا أمواهم وحقوقوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم فبرز إليه الربيع بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجاجة الأنصاري فقتله ، حتى قتل منهم اثنا عشر رجلا كلما قتل رجل منهم دعى من بقى إلى الإسلام

ولقد كانت الصلاة تحصر فيصلى عليه السلام بأصحابه ثم يعود فيدعو أهل وادى القرى إلى الله ورسوله ، فقال لهم — ﷺ — حتى أمسى ، وعدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عبوة وغنم أمواهم وأصابوا أثانا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله — ﷺ — بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والحل بأيدي اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود تيماء ما كان من أمر حير وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله — ﷺ — على الحرية .

وشرد سلمان الفارسي يفكر . إنه يرى مصه وقد انتهت رحلة البحث عن الحقيقة إلى عمورية ببلاد لروم ، إنه سمع هناك أنه قد أطل رمان سى يعث بدين إبراهيم حنيفا بهاجر إلى أرض ذات حل بين حرتين ، ومعه ركب ذات يوم فسألهم عن بلادهم فعلم أنهم من جزيرة العرب مبعث ذلك النبي الأمي ، فأعصاهم بقراته وغنمه على أن يحملوه معهم إلى أرضهم . واصطحبوه معهم حتى قدموا به هذا الوادى وادى القرى ، وتذكر سلمان كيف طعموه وباعوه إلى رجل من يهود فاذا بالدموع تظهر إلى عيسى الباحث عن الحقيقة وراح يقلب عيسه في

النخيل ، إنه طمع في ذلك اليوم أن تكون هي البلدة التي وصفت له والتي ستكون مهاجر النبي المنتظر .

وأثبات الذكريات على رأس سلمان فإذا به يرى ذلك اليهودي الذي قدم يوما من بني قريظة إلى وادي القرى فابتاعه من مولاه ، واحتلقت مشاهد بيعه ومشاهد خروج بني قريظة من حصونهم ومشاهد عمله في محل بني قريظة بتلك اللحظات التي لا تنسى خطوات أول مرة سمع فيها بمقدم رسول الله ﷺ — إلى المدينة .

وترسمت في رأسه ذكريات سلامه وذكريات أيامه مع رسول الله عليه السلام ، ثم شرد إلى الأفق البعيد وهو يحمد الله على أن هداه إلى الصراط المستقيم وأن سكب في قلبه أنوار اليقين .

وانصرف رسول الله ﷺ — راجعا إلى المدينة ، فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل :

— من رجل يحفظ علينا الفجر لعنا ننام ؟

فقال بلال :

— أنا يا رسول الله .

فزل رسول الله ﷺ — ونزل الناس هاموا وقام بلال يصب ، فصلى ما شاء الله أن يصب ثم استند إلى بعيره واستقبل الصبح يرمقه ^(١) فعلمته عينه فلم يوقفهم إلا من الشمس ، وكان رسول الله ﷺ — أول أصحابه استيقاظا فقال .

— ماذا صنعت يا بلال ؟

(١) يرمقه : يظفر إليه .

— يا رسول الله أحد بنفسى الذى أحد بنفسك .
— صدقت .

ثم افتاد رسول الله — ﷺ — بعيره غير كثير ثم أناخ فتوصاً وتوصاً
الناس ، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلى رسول الله — ﷺ — بالناس ،
فلما أفل على الناس فقال :
— إذا سبتم الصلاة فصوصها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل
يقول ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لَذِكْرِي ﴾ (١) .

(١٧)

خرجت لمدينة تسقبل رسول الله — ﷺ — عند عودته من غزوة
خيبر ، الرجال تهلل وجوههم بالبشر والولدان يعمرهم المرح والساء
على أسطح المنازل فدعمرت أفئدتهم بالسرور ، والمناقول في كمد
يطهرون غير ما تحفى الصدور .

وكانت النسوة في دور الرسول عليه السلام يتأهسن لاستقبال سبي
الإسلام الذى بصره الله بقلوب سليمه ، إلا عائشة فقد أحدثت العيرة
تهش قلبها بعد أن جاءها بأرواح رسول الله عليه السلام من صعية ست
حيى منك اليهود الشبة الجميلة ذات السعة عشر ربيعا .

وكانت أم حبيبة أم المؤمنين ترقب عودة رسول الله — ﷺ — صوات الله
وسلامه عليه — في لهفة ؛ إنها عادت من الحشة مع جعفر بن أبى طالب
وعمر بن أمية الصمرى والمهاجرين الذين كانوا في الحشة واستقرت في
المدينة تنتظر أوبة السى عليه السلام ، بينما انطلق الرجال إلى خيبر

ليجاهدوا في سبيل الله .

وكانت عائشة على علم بأن رسول الله — ﷺ — كتب إلى السحاشي يروجه بست أمي سميان . فلما جاءت أم حبيبة إلى المدينة لم تستشعر عائشة نحوها غيرة فهي في الأربعين من عمرها ، وهي تستشعر في أعماقها أن ذلك الرواح مبعثه سياسي أما الزواح من اليهودية الحساء فقد شغنها وأرق نومها .

وبلغ الركب المدينة ، وآثر النبي عليه السلام ألا يدخل على روحاته بصفية فأنزلها في بيت حارثة بن النعمان ، وتسامعت ساء الأصارها فحزن بطرن إلى جمالها . وراح عليه السلام يرور أهل بيته فدا بالرهراء وأحد يقبل الحس والحسين ، ثم دار على سائه فأحد يرحب بتقديمه ويهسه بما فتح الله عليه ، وقد قرأ عليه السلام العيرة في عيني بست الصديق فراح يرقبها .

وخرجت عائشة متنقبة على حذر وأحد رسول الله عليه السلام يتبع خطاه ، إنها تسير إلى دار الحارثة بن النعمان حيث استقرت صرمتها الحديد . ودخلت عائشة وانتظر رسول الله عليه السلام حتى خرجت فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

— كيف رأيت يا شقراء ؟

وحاهدت عائشة لثد عيرتها وقالت وهي تهر كتمها في استحقاف .
— رأيت يهودية .

— لا تقولي ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها !

وعادت عائشة إلى حفصة لتبشها بنحوها ، وكانت حفصة موضع سر عائشة ، وكانت عائشة أكثر ساء النبي عيرة عليه حتى إنها كانت تعار

من حديجة إذا مدحها رسول الله عليه السلام ، فقد قالت له ذات يوم لما ذكر حاضنة الإسلام بخير :

— قد يدللك الله خيرا منها .

فغضب رسول الله ﷺ — وقال :

— والله ما أبدلى الله خيرا منها ، آمت بي حين كدبني الناس ، وو ستى عماها حين حرمى الناس ، وررقت منها الولد وحرمته من غيرها .

واتفق له عليه السلام أنه أرسل لهما لامرأة تناولوه — ﷺ — ودفعه لآخر يدفعه ها ، فسألته عائشة عن تلك المرأة فقال :

— إن حديجة أوصتنى بها .

فقالت عائشة في غضب :

— لكأنا ليس في الأرض امرأة إلا حديجة .

فقام رسول الله ﷺ — معصيا ، فلبث ما شاء الله ثم رجع فإذا أم رومان أم عائشة فقالت :

— يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثه السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فأخذ شدي عائشة وقال :

— والله لقد آمت بي إذ كفر بي قومى ، وررقت منها الولد وحرمتوه

كانت تعار من الأموات فما بالك بالأحياء الحسان !

وانتقلت صمية إلى دور السى عليه السلام فأثرت السلامة ، فقد قطعت مد وطئت قدماها وجود حزين في دور رسول الله — صلوات

الله وسلامه عليه : حرب بقيادة عائشة ومعها حفصة وحزب من
الروحات الأحرىات تؤيده فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام ،
فغزمت على أن تكون صديقة الجميع فأهدت الزهراء حلية لها من ذهب
رمر مودة وولاء .

وراحت تقترب من بنت الصديق وبنت عمر ، وكانت حفصة فيها
حدة وكانت تعارض رسول الله عليه السلام وما كان عمر ليتصور أن
ابنته تراجع الرسول الكريم . وذات يوم صحب على امرأته فراجعت
ونكر أن تراجعها ، فقالت :

— وم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أرواح النبي — ﷺ —
ليراجعه وإن أحدهم لتهمجه اليوم حتى الليل .

فأفزع ذلك مهن فدخل على حفصة فقال لها :

— أتعاصب إحداكن النبي — ﷺ — حتى الليل ؟ !

— نعم .

— قد خبت وخسرت ، أفئأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله
فتهلكي ؟ لا تستكثري النبي — ﷺ — ولا تراجعيه في شيء ولا
تهجره وسليسي ما بدا لك ، ولا يعربك أن كانت جارتك أوضاً منك
وأحب إلى النبي — ﷺ — .

وذهبت نصيحة عمر أدراج الرياح ، فحفصة معترية بشخصيتها لا
تنخرج من معارضة الرسول عليه السلام ، إنه عليه السلام يذكر عندها
أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال :

— لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا

تحتها .

— بلى يا رسول الله !

فانتهرها . فقلت الآية :

— ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْصِيًا ﴾ ^(١)

— قال الله . ﴿ ثُمَّ سَجَىٰ أُنْدِيَا تَتَقَوَّلُ عِدَا الْظَّالِمِينَ فِيهَا حَنْثِيَا ﴾ ^(٢) .

وشجر بين السبي — صلواته — وبين حفصة أمر ، فقال لها :

— اجعلي بيني وبينك رجلا .

— نعم .

— فأبوك إذا .

فأرسلت إلى عمر فحاء ، فلما دخل عليها قال لها السبي — صلواته :

— تكلمي .

— بل أنت يا رسول الله تكلم ولا نقل إلا حقا .

فرفع عمر يده فوجأها ^(٣) في وجهها ، فقال له السبي — صلواته :

— كف يا عمر .

فقال عمر في غضب :

— يا عدوة الله ، السبي — صلواته — لا يقول إلا الحق والذي بعثه

بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتى .

كانت صفة ترى ما يجري في دور الرسول عليه السلام فكانت وهي

العاقلة الفاضلة تحاول أن تنأى بنفسها عن المعارك الحمية الناشئة بين

روجات الرسول عليه السلام . وكانت تنودد إلى عائشة وحفصة لعلها

(١) (٢ ، ١) مريم ٧١ — ٧٢ .

(٣) وجأها ضربه بها .

تعم بالهدوء وتسعد بحبا لنبي الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ،
ولكنها لم تسلم من التحقير . دخل عليها — ﷺ — يوما وهي تنكي
فقال لها في ذلك فقالت :

— بلعني أن عائشة وحفصة يالان مني ويقولان نحن خير من
صفية ، نحن بنات عم رسول الله — ﷺ .

— قولي من كيف تكبري خيرا مني وأني هارون وعمي موسى عبيهما
الصلاة والسلام ، وزوجي محمد .

وطئت صفية تحس في أعماقها أنها غريبة في دور الرسول ، فأرواجه
عليه السلام لا يستطيع أن يسيّر أصلها إنه كان في سفر وهي معه
وريب بنت ححش فاعتل بعير صفية وفي إبل ريب فصل ، فقال لها :

— إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا ؟

— أنا أعطيت تلك اليهودية ؟

فهجرت ريب بنت ححش لذلك ذا الحجة واحرم وبعض صفر ، ثم
أتاها بعد وعاد إلى ما كان عليه معها .

(١٨)

المدينة تحتل بصر الله والفتح قد ملأت الشوة أفئدة الناس ، فما
كان يدور بخند أحد من الأوس والخررج فل أن يشرفهم الله برسالة أن
يأتى يوم تكون فيه كلمة العرب هي العليا ، وأن يصرب اندلة والمسكة
على بني إسرائيل الذين عبدوا أنفسهم عرورا وقالوا في تبجح بهم
وحدهم الناس .

وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان في الدار تنتظر دخولها على رسول الله ﷺ — وقد غمرها سرور امتزج برهة ، وترامى إليها أصوات الرجال الذين اجتمعوا حول الوليمة التي أعدها عثمان بن عفان فتهللت بالفرح فأميتها التي عاشت طمأنة أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمري إلى النحاشي ليروجهما معه ، ﷺ — تتحقق ، فلن يقضى الليل قبل أن تنأجى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . ومس أديها صوت دى النورين عثمان بن عفان فإداها تتذكر أيام أن كان عثمان وروحه رقية بنت رسول الله ﷺ — في الحشمة ، كانا ملاد المسلمين هناك وكان عثمان على خلق كريم يحشى الله ويستحي منه الناس ، فكان ربة المسير ، وكانت وشائج القرى تربط بيه وببها فصية بنت أبي العاص بن أمية أمها عمته ، وكانت سعيدة مهددة القرابة ولكن أحوه الإسلام كانت تحبه أقرب إلى نفسها من أبيها أبي سفيان ودحت أم حبيبة على رسول الله ﷺ — وأخذت تحبره كيف كانت الخطبة ، قالت :

— رأيت في المنام كأن قائلا يقول يا أم المؤمنين هزعت فأولتها بأن رسول الله ﷺ — يتزوجني ، فما شعرت إلا وقد دخلت على جارية النحاشي فقالت لي إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ — كتب إليه يروحك معه ، فقلت لها بشره الله بأخير .

ويقول لك وكفى من يروحك ، فأرست بانوكالة إلى خالد بن سعيد وأعطيت تلك الحارية سوارين وخدمتين (حلالين) وحواتهم قصة سرورا عما بشرت به .

فلما كان العشي أمر النحاشي جعفر بن أبي طالب ومن معه من

المسلمين فحاصروا ، وحطب الجعاشي فقال : احمد الله الملك القدوس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه لدى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام ، أما بعد فإن رسول الله ﷺ — كتب إلي أن أروحه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأحب إلي ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعمائة دينار — ثم سكب الدنانير بين يدي ، فقوم ، فتكلم خالد بن سعيد بن لعاص فقال : الحمد لله أحمدته وأستعيه وأستعمره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أما بعد فقد أجت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ — وروحه أم حبيبة بنت أبي سفيان فبارك الله لرسول الله ﷺ ودفع الجعاشي الدنانير لخالد ابن سعيد فقبضها منه .

ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العهد قال لهم الجعاشي احسبوا فإن من سس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تروحووا أن يؤكل طعام على الترويح ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . فلما كان من العهد جاءني جارية الجعاشي فرددت عني جميع ما أعطيتها وقالت : إن لمست عرم عي ألا أراك شيئا ، وقد أمر الملك بساءه أن يعثن إليك بكل ما عندهم من العطر . وجاءت بورس وعمر ورياد كثير وقلت : حاجتي إليك أن تقرني رسول الله ﷺ — مني اسلام وتعلميه أني قد اتعت ديه .

وكانت كما دحيت علي تقور . لا تنسى حاجتي إليك .

فتبسم رسول الله ﷺ — وقال

— وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته .

كانت أم حبيبة راضية مستشرة بيا كان أبوها أبو سفيان في حيرة قد

برل به هم ثقيل . إنه في دار لندوة يتشاور مع سادات قريش ، فأبو بصير وأبو جدل ومن معهما من المسلمين لا يطعمون بأحد من قريش إلا قتلوه ، وما قترهم غير إلا أحدوها . كان سهيل بن عمرو يوم اشترط في صلح الحديبية أن من جاء رسول الله — ﷺ — مسلما من قريش رده إليهم بحسب أنه انتصر لما أُملي ذلك الشرط ، وقد برهنت الأيام أنه فتح على قريش بابا من الشر تصطلي بباره ؛ فقواهل قريش الرائحة العادية بين مكة والشام باتت في حطر ، وتجارة قريش توشك أن تنور شر أبو سفيان ثورة عارمة وقال لو أنه حضر صلح الحديبية ما أصر على ذلك الشرط الذي ظن المسلمون أنه مححف بهم وكاد يصدع انقلابهم بولا قوة شخصية بني الإسلام ، وقد برهنت الأيام أنه عليه السلام كان وحده يعرف أن ذلك الشرط الذي يبدو بصرا لقريش سيصبح شوكة في حوزهم تقص مضاجعهم ويجعلهم يهرعون إليه يتمسكون به أن يخلصهم من ثورة الذين لن تغلبهم المدينة ولن يعودوا إلى مكة ليفتوا عن دينهم ويساموا ألوان العذاب .

وراح سادات قريش يقنون وجوه الرأي ، قال قائل منهم :
— نكتب له نساله بالأرحام إلا آوهم ولا حاجة لنا بهم .

وكادوا يستقرون على هذا الرأي ولكنهم حشوا ألا تكون الكتابة وحدها كافية لإسقاط شرط في صلح أقره الحباب وشهد عليه شهود ، فعروا أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ليقر بأن من أتى رسول الله عليه السلام من مسلمي مكة فهو آمن ولا حاجة هم به .

وشد أبو سفيان بن حرب الرحال إلى المدينة وهو يحس في عين داته أن اليوم غير الأمس . إنه قاد جيش قريش يوم أحد وهو يرحو أن

يستأصل شأفة المسلمين ، وقاد الأحزاب يوم الخندق وهو في رهوه لا يخالجه شك أن النصر حليفه ، أما اليوم فهو يطلق إلى المدينة ليتمسك من محمد أن يسقط شرطاً في المعاهدة كان سادات قريش يحسبونه عين النصر .

ودخل زعيم قريش وسيدها المدينة فهرع إليه المسلمون يقودونه إلى حيث كان رسول الله ﷺ ، واجتمع الرجال في المسجد ولم يكن يفصل بين أبي سفيان وأنته أم حبيبة سوى حدار الدار ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يذهب إليها ليملاً عينيه منها ، فهي قد احتارت الله ورسوله على أبيها وكل قومها الذين عميت قلوبهم التي في صدورهم عن النور .

وقال أبو سفيان : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاءهم إليك فأمسكه في غير حرج ، فإن هؤلاء لركب قد فتحوا علينا باب لا يصلح إقراره .

وراح عمر بن الخطاب يطر إلى ما يجري أمامه وهو مشدوه إنه يحس عرق الخجل يغمره وتذكر ثورته يوم الحديبية إذ وثب فأتى أبا بكر فقال : أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : فعلام يعطى الدنيا في دينا ؟

ورد في أعواره صوت أبي بكر وهو يقول : « يأيتها الرجل إنه رسول الله ﷺ — وليس يعصي ربه وهو ناصره ، استمسك بعمره ^(١) حتى تموت » فأحس كأن الأرض تميد به ^(٢) ، ووقعت عيناه على أبي

(١) العر بالعين والركاب للعرس والمراد : لارمه .

(٢) تميد : تصطرب .

عينة بن الحراح فإذا بقوه يوم الحديسة يجر روحه ويصبيه : « ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ » تعود بالله من الشيطان الرجيم .

إنه تكلم في ذلك اليوم كلاما رجا أن يكون حيرا فإذا به يسم الساعة أن عضبه لرد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو م يكن صوابا ، وأن طاعة رسول الله — ﷺ — حير مما أحبه . وعزم عمر على أن يصوم ويتصدق ويصلي ويعتق مخافة كلامه الذي تكلم به في صلح الحديبية .

وكتب رسول الله — ﷺ — إلى أبي جندل وإلى أبي بصير أن يقدما عليه ، وأن من معهما من المسلمين يلحقون ببلاذهم وأهليهم ولا يتعرضوا لأحد منهم من قريش ولا لغيرتهم .

كان أبو بصير وأبو جندل ومن انضم إليهما من عفار وأسلم وحبيبة وطوائف من العرب قد نزلوا محلا من صريق الشام تمر به عيرات قريش ، وكانوا ثلاثمائة مقاتل لا تمر بهم غير إلا أحدوها فضاقت قريش بفعالهم وكانوا يعرفون خطر ما يقومون به فكاتب نفوسهم راضية وإن كانوا في شوق إلى رؤية رسول الله — ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه .

وأحسن أبو بصير بالوهن يبدب في كيانه وعرف أنه الموت فلم يرجع ، ولكن فؤاده كان يهوى إلى المدينة وإلى رسول الله عليه السلام . وسجى في فراشه ليحود بأنفاسه ، وبيا هو يقاسي سكرات الموت قدم كتاب رسول الله ﷺ فلما قرعوه ارتفعت الأصوات بالتكبير ، فمد أبو بصير عييه إلى حيث كان أبو جندل لكأنما كان يسأله عن البأ العظيم الذي أشاع العرح بين الرحا ، فمد أبو جندل إليه يده بالكتاب فأخذ

أبو بصير يقرأه بعينين واهيتين ورففت عن شفتيه بسمة رصا ، ثم مات
وكتاب رسول الله ﷺ — في يده .

وراح الرجال يظفرون إليه بأعين دامعة ويرحمون عليه ويتذكرون
قول رسول الله ﷺ — في حقه :

— ويل أمه مسعر حرب أن لو كان معه رجل .

وكان معه رجال .

(١٩)

وعد على رسول الله ﷺ — قبل صلح الحديبية تسعة رهط من
بني عس فكانوا من المهاجرين الأولين ، قالوا :

— إنه قدم علينا قرأنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا
أموال ومواشي هي معاشنا ؛ فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعاشا
وهاجرنا .

فقال رسول الله ﷺ :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فليس يفتكم^(١) من أعمالكم شيئا ولو كنتم
بصمد وجاران^(٢) .

ولما سمعت سعد العشيرة بحروح النسي — وثب رجل من
بني أسد الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فراس فحطمه ، ثم وعد

(١) يلتكم : يقصصكم .

(٢) موضع في طريق حاج صعاء .

إلى النبي — ﷺ — فأسلم وقال :

تعت رسول الله إذ جاء بأهلى

وخلفت فرّاصاً بدار هوان

شدت عليه شدة فتركته

كأن لم يكن والدهر ذو حدثان

فلما رأيت الله أظهر ديه

أجبت رسول الله حين دعاني

فأصبحت للإسلام ما عشت ناصراً

وألقيت فيها كل كلى وجران

فمن مبلغ سعد العشيرة أنسى

شريت السدى يقى بأحر فاني

ووفد إليه عليه السلام عبد العزى بن بدر بن ريد بن معاوية الجهني

ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله — ﷺ —

لعبد العزى :

— أنت عبد الله .

وقال لأبي روعة :

— أنت رعت العلو إن شاء الله .

وقال :

— من أنتم ؟

— أبو غيَّال .

— أنتم يورشدان .

وكان لهم صمم وكانوا يعصمونه ، وكان عمرو بن مرة الجهني

سادنه ، فلما سمع برسول الله ﷺ — كسره وخرج حتى أتى
النسي — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاء به من حلال
وحرام ، ثم قال :

شهدت بأن الله حق وأنسى
لآلهة الأحجار أول تبارك

وشمرت عن ساقى الإزار مهاجرا
إليك أجوب الوعث بعد الدكادك^(١)
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول منك الناس فوق الحبائلك^(٢)

فبعثه رسول الله ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه
إلا رجلا واحدا ، رد عليه قوله .

وكان أول من وفد على رسول الله ﷺ — من مضر أربع مائة من
مريّة ، وذلك في شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ﷺ —
الهجرة في دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

وكان أول من قدم معهم خزاعي بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ،
وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث والعمان بن مقرن ، ثم خرج إلى
قومه فلم يجدهم كما طس فأقام ، فدعا رسول الله ﷺ — حسان بن

(١) لوعث المكان السهل والدكادك . أرض فيها عبط .

(٢) الحبائلك : طرائق الهجوم . أراد فوق السموات .

ثابت فقال :

— اذكر خراعيًا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزاعياً رسولا

بأن الذم بغسله الوفاء

وأنت خير عثمان بن عمرو

وأسنها إذا ذكر النساء (١)

وبايعت الرسول وكان خيرا

إلى خير وأذاك الثناء

فما يعجزك أو ما لا تطقه

من الأشياء لا تعجز عداء

وعداء بطنه الذي هو مه ، فقام خراعى فقال .

— يا قوم قد حصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

— فإننا لا نبوء (٢) عليك .

فأسلموا ووهبوا عى النسي — ﷺ .

وبعث أبو سعد بن بكر إلى رسول الله — ﷺ — رجلا منهم يقال

له ضمام بن ثعبان في شهر رجب سنة خمس ، فقدم وأباح بعيره على باب

المسجد ثم عقله . ثم دخل المسجد رجلا جلدا أشعر ذا عذيرتين فأقبل

حتى وقف على رسول الله — ﷺ — في أصحابه فقال :

(١) أسأها : أكثرها صياء والمراد أشرفها .

(٢) بعد عنك .

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ﷺ :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أحمد ؟

— نعم .

— يا ابن عبد المطلب ! إني سائلك ومعلط عليك في المسألة فلا

تجد^(١) في نفسك .

— لا أحد في نفسي فاسأل عما بدا لك

— أشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله

بعثك إليا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا بشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه

الأبداد^(٢) التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— اللهم نعم .

— فأشدك الله إهلك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ،

الله أمرك أن تصلي هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر مرائض الإسلام مريضة مريضة : الركاة والصيام

(١) لا تجد في نفسك : لا تصمر غيظا .

(٢) الأبداد : جمع بد ، وهو النظم المعادل .

والحج وشرائع الإسلام كلها يشده عن كل مريضة منها كما يشده في التي قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه لفرائض . وأجتنب ما هيى عنه ثم لا أريد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— إن صدق ذو العقيصتين (الضفيرتين) دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقله ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به :

— بش اللات والعزى .

هالوا :

— مه يا صمام ! اتق البرص ، اتق الخدام ، اتق الجيول

— ويلكم ! إلهما والله لا يسمعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا

وأزل عليه كتابا فاستمعدكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة ،

رأسهم مسعود بن رحيلة بن نؤيرة بن طريف فتزلوا شعب سلع (جبل

بضاحيه المدييه) فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمرهم بأحمال

التمر ، فقالوا :

— يا محمد ! لا تعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك ما ولا أقل

عددا ، وقد ضيقا بحربك وبحرب قومك فحشا نودعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .
 كانت الوفود تأتي إلى رسول الله عليه السلام قبل صنع الحديدية ،
 وقد جاءت الوفود بعد الصلح ، قدم أبو ثعلبة الخشسي على رسول
 الله ﷺ — وهو يتحجر إلى حير فأسلم وخرج معه فشهد حير ،
 ثم قدم بعد ذلك نفر من خشين فزلوا على أبي ثعلبة فأسلموا وباعوا
 ورجعوا إلى قومهم .

ووفد الأشعريون مع جعفر وأصحابه على رسول الله ﷺ ، وكان
 الأشعريون خمسين رجلا منهم أبو موسى الأشعري ومعهم رجلان من
 عك ، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بحدة ، فلما دنوا من المدينة
 جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله ﷺ — في سفره بخير ، فلقوه —
 ﷺ — فبايعوه وأسلموا ، فقال رسول الله ﷺ :
 — الأشعريون في الدس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله ﷺ — رجل من بني سليم يقال له قيس بن
 سبيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابته ووعى ذلك كله ، ودعاه
 رسول الله ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :
 — قد سمعت برحمة (١) الروم وهيمة فارس وأشعار العرب وكهانة
 الكهان وكلام مفاول حير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم
 فأطيعوني واخلوا نصيبكم منه .

كانت هدية الحديدية سببا في انتشار الإسلام ، فإن الكفار لما أمروا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم حتى إن الذين أسلموا في سنتين بعد الصلح يعدلون الذين أسلموا قبلهما ، وقال أبو بكر الصديق :

— ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديدية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد — ﷺ — وربه ، والعباد يعجبون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد الله .

(٢٠)

أنزل رسول الله — ﷺ — مارية في بيت لحارثة بن العيمان فكانت على قرب من مسجد الرسول ودور نسائه . إنها حميلة جعدة فأعجب بها رسول الله عليه السلام فكان عامة الليل والنهار عندها ، فخرجت عائشة بت أنى بكر وما غارت على امرأة إلا دون ما عارت على مارية .

كانت مارية من قرية من صعيد مصر تدعى « حصن » قرية من بلدة « أنصتا » على الضفة الشرقية لليل تجاه الأشمونين ، وكانت لأب فبطى وأم مسيحية رومية فجاءت حميلة أروع ما في الدم المصرى والدم الرومانى .

وأعاد وهود مارية في هدايا المقوقس إلى رسول الله — ﷺ — واصطفاهما لها لنفسه ذكريات بعيدة ، ذكريات إهداء ملث مصر هاجر المصرية إلى حبليل الرحمن عليه السلام فقد أصبحت أم العرب ما أنجبت إسماعيل أبى العرب . ترى أنحب مارية لرسول الله ولذا فيجدد الأواصر

بين العرب والمصريين ويصبح الحسر بين حصاره الماضي وديس المستقبل ؟

وراحت عائشة ترقب في قلق هذه الخارية الحلوة التي وفدت من وادي اسيل لشير غيرتها فجرعت لما رأت الرسول الحبيب عليه السلام يكثر من التردد عليها ويمكث لديها طويلا ، ولما كانت عائشة وحفصة صديقتين لا سر بينهما فقد عبرت عائشة عن قلقها وهي تناجي ست عمر وتمنت لو أن الله يريحها من ست شمعون القبطية .

وطال الحديث بين مارية ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حول هاجر المصرية وإبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل الذي تكونت ببركته مكة حول الشرف التي فجرها الله تحت قدميه وقد أشرف على الهلاك عطشا ، فألغت مارية حين تحلو بنفسها أن تفكر في هاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل والعرب ، وبانت أحلامها المخنقة تتمنى أن تهب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الولد كما وهت هاجر جده إبراهيم الولد . وكان صلوات الله وسلامه عليه — في بيت حفصة فاستأذنت في زيارة عائشة لأمرهما كانتا متصادقتين فأدبها ، فأرسل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى مارية وأدخلها بيت حفصة فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبي — صلوات الله وسلامه عليه — في بيتها فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت وقالت له : — إنى رأيت من كان معك في البيت .

وعضبت وبكت وقالت :

— يا رسول الله لقد جئت إلى بشيء ما جئت به إلى أحد من

نسائك ، في يومي وفي بيتي وعلى فراشي !

فلما رأى رسول الله في وجهها الغيرة قال لها :
 — أما ترضين أن أحرمها على نفسي ولا أقربها أبدا ؟
 — بلى .
 وحلف ألا يقربها وقال :
 — اكتمى على .

ولم تستطع حفصة أن تكتم السر فاطلقت إلى عائشة وقالت :
 — قد أراحنا الله من مارية فإن رسول الله — ﷺ — قد حرّمها
 على نفسه .

وعرف رسول الله عليه السلام أن حفصة لم تكتم عليه وأنها أنبأت
 عائشة بأمر مارية ، فلما أحرر عائشة ببعض ما أسرته لها حفصة قالت
 عائشة :

— من أنبأك هذا ؟
 — نبأني العليم الخبير .

وسرعان ما ذاع الخبر بين سماء رسول الله عليه السلام فجئت يحضن
 في الحديث ، فأقسم عليه السلام أن لا يجتمع بهن شهرا ، وصعد إلى
 مشربة له يرق إليها بعجنة وهو جدع يرقى عليه إلى المشربة ويسحدر منها
 عليه ، وعلام له أسود يقال له رياح على رأس العجلة ، وأمر الله تعالى :
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ * قَدْ فَرَصَ اللَّهُ لَكُمْ تُحُلَةَ آيَاتِكُمْ وَاللَّهُ مُوَلَّاهُكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *
 وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
 عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَايَأَ بِهَا بِهَ قَالَتْ مِنْ أَنْبَأِكَ هَذَا قَالَ
 سَأَى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ

فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير .
عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجا حيرا مكر مسلمات مؤمنات
قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴿١﴾ .

وحاء الليل ورسول الله عليه السلام في المشربة ، فقدم على عمر بعض
أصدقائه من الأنصار فدق عليه بابه وناداه فخرج إليه فقال :
— حدث عظيم .

— ماذا ؟ أجاءت غسان ؟

كانوا حدثوا أن غسان سعل الخيل لغروهم ، فحسب عمر أن غسان
قد جاءت تدهم المدينة فقال الأنصاري :

— لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله ﷺ —
سأه .

— حانت حفصة وحسرت ! كنت أظن هذا كائنا .

— حتى إذا صلى الصبح شد عليه ثيابه ودخل على حفصة وهي تبكي
فقال :

— أطلقك رسول الله ﷺ ؟

— لا أدري هو هذا معتزلا في هذه المشربة .

— لأقول من الكلام شيئا أصحك به السي — ﷺ .

وأقرب رباح وهو واقف على رأس العجلة فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج وقال :

— قد ذكرتك له فصمت .

ونطلق عمر حتى أتى المسجد فجلس قليلا ثم عليه ما يجد ، فأتى الغلام فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إليه فقال :

— قد ذكرتك له فصمت .

فما كان في المرة الرابعة وقال له مثل ذلك ولى مديرا فإذا الغلام يدعوه فقال .

— ادخل قد أذن لك .

فدخل فسلم على رسول الله ﷺ — فإذا هو منكىء على رمل حصير قد أثر في جنبه فقال :

— أطلقت يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه إلى عمر وقال :

— لا .

— الله أكبر .

— ثم قال :

— كنا معشر فريش نمكة نعلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وحدنا قوما تعلمهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت روحي فراجعتني فأكرت عيها فقالت تكرر أن راجعتك فوالله لقد رأيت أرواج البنى — ﷺ — يراحعه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد حاب من فعل ذلك وحسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عنيها لغضب روحها رسول الله ﷺ — ؟

فذهبت إلى حفصة فقلت أتراجع رسول الله ﷺ ؟ فقالت نعم
وتحجره إحدانا اليوم إلى الليل . فقلت قد حاب من فعل ذلك مسكن
وحسر ، أنا من إحدائك أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله —
ﷺ ؟ لا تراجعين رسول الله ﷺ — ولا تسألينه شيئا وسليبي ما
بهذا لك ، ولا يغربك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله ﷺ —
منك .

فتبسم عليه السلام فقال عمر :

— أستاذس يا رسول الله ؟

— نعم .

فجلس وقال :

— يا رسول الله قد أثر في جيبك رمل هذا الحصر وفارس والروم قد
وسع عليهم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى — ﷺ — جالسا وقال :

— أفي شك أنت يا بن الخطاب ! أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم
في الحياة الدنيا .

— أستغفر الله يا رسول الله .

ومرت الأيام ورسول الله عليه السلام يمضي سحابة يومه في شئون
الناس وطرفا من الليل في مسجده يصلي ثم يصعد إلى المشربة ، وخلت
دور الرسول عليه السلام من البهجة وراا عليها ترقب وقلق وانتظار .
فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخرج نساء في
قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
فَرِيضَتُهَا مِثْلُ نَفْسِكُمْ وَأَمَّا كُنْتُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسات منك أجرا عظيما * يا
 نساء النبي من يأت منك بضحة مية يصاعف لها العذاب ضعفين
 وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقست منك لله ورسوله وتعمل صالحا
 نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما * يا نساء النبي لست كأحد من
 النساء إن اتقين فلا تحصص بالقول فيطعم الذي في قلبه مرض وقل قولا
 معروفا * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة
 وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
 البيت ويطهركم تطهيرا * واذكر ما يتلى في بيوتكن من آيات الله
 والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ^(١)

هرل عليه السلام ودخل على عائشة فقالت له :

— يا رسول الله أقسمت أن س تدخل علي شهرًا وقد دخلت وقد

مضى تسع وعشرون يوما أعددهن .

— إن هذا الشهر تسع وعشرون .

ثم قال — ﷺ :

— يا عائشة إنى ذا كرك أمرا فلا عليك أن لا نعللى حتى نساأمرى

أبوك .

— فما هو يا رسول الله ؟

فقرأ عليهما : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم ترهون الحياة الدنيا

وريتها فتعدين أمتعنكم وأسركن سراحا حميلا . ﴾

— أى هذا أستاأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

ثم قالت له .

— لا تحير امرأة من سائلك بالذى قلت لك .

— لا تسألنى امرأة منهن إلا أحببها أن الله لم يعشني متعنتا وكس

بعثنى معلما ميسرا .

ثم فعل بقية أرواحه — ﷺ — مثل ما فعلت عائشة ، وعاد إلى دور

الرسول عليه السلام النور الذى عاب عنها .

(٢١)

كان أبو هريرة يلزم رسول الله — ﷺ — بشبع بطنه حتى لا يأكل

الخمر ولا يلبس الخمر ولا يخدمه أحد . وكان في سبعين رجلا من أهل

الصفحة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم

يشتمهم الألم من الخوع ، فيخرج من بيته إلى المسجد لا يخرج إلا

الخوع ، فيجد نفرا من أصحاب رسول الله — ﷺ — يقولون .

— يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة ؟

— ما أخرجنى إلا الخوع

— نحن والله ما أخرجنا إلا الخوع .

فقاموا فذهبوا على رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما جاء بكم هذه الساعة ؟

— يا رسول الله جاء بها الخوع .

فدعا رسول الله — ﷺ — بطلق فيه تمر فأعطى كل رجل منهم

تمرتين ، فقال عليه السلام :

(صلح الحديدية)

— كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء فإيهما ستحريانكم يومكم هذا .

فأكل أبو هريرة ثمرة وحمل ثمرة في حجرته ، فقال رسول الله ﷺ —

— يا أبا هريرة لم رفعت هذه الثمرة ؟

— رفعتها لأمي

— كلها فأنا سنعطيك لها تمرتين .

فأكلها فأعطاه عليه السلام لها تمرتين ، وكانت أمه بقيت على الشرك فدحل يدعوها إلى الإسلام فلم تستحب لدعوته وأعرضت عنه فأحس أبو هريرة أسي ، إنه يحب أمه وإنه يحاهد على أن يرحلها عن النار ولكنها تأتي في صلف واستكبار .

صحب أبو هريرة رسول الله ﷺ — في حله وترحاله يدخل بيته ويحضر مجلسه وقد اتخذ الصفة مكانا له ينتقل بين الصحابة يمرثونه انقرا ، وجعله رسول الله ﷺ — عريف أهل الصفة فإذا أراد رسول الله ﷺ — أن يجمعهم لطعام حضر تقدم إلى أبي هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم ومباركهم ومراتهم .

وقصيب صلاة العشاء فانصرف الناس إلى دورهم وبقي أبو هريرة يفضي إليه في المسجد ودخل الرسول ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — مرله وبنام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه حرح الرسول عليه السلام إلى المسجد وقال لأبي هريرة :

— ادع لي أصحابي .

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقطهم حتى جمعهم فحاءوا باب

الرسول عليه اسلام فاستأذنوا فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا هرايه ثلاثين رجلا فوضع الرسول لهم صحيفة فيها صبيح شعير ووضع يده عليها وقال :

— خلدوا باسم الله ، والذي نفس محمد بيده ما أمسى في آل محمد طعام ليس شيء ترونه .

كان أبو هريرة يقاسي من الجوع ولكن ما كان يعاينه من أمه أقسى وأشد ؛ إنه يدعوها إلى الإسلام فلا تستجيب فأصابه من الهم والحزن ما أصناه .

وكان أبو هريرة يحب رسول الله ﷺ — حبا حما ويحب من أحبه رسول الله ﷺ — فقد لقي أبو هريرة الحسن بن علي فقال له :
— أرى أقصر منك حيث رأيت رسول الله ﷺ — يقبل .
فرفع القميص وقبل سرتة .

وددت يوم كان الجوع يمزق أمعاءه فألقى عمر بن الخطاب فقام له وهو يسبح بعد الصلاة ، فانتظره فلما انصرف دنا منه فقال :

— أقرئني آيات من كتاب الله
وما يريد إلا الطعام فأقرأه آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركه على الباب فقال :

— ينزع ثيابه ثم يأمر لي بطعام .
فلم ير شيئا فلما طال عليه قام فمشى ، فاستقبله رسول الله ﷺ — فكلمه فقال :

— يا أبا هريرة إن حلوف فمك البينة لشديد ؟ !
— حل يا رسول الله لقد طللت صائما وما أفطرت بعد وما أجد ما

أفطر عليه .

— انطلق .

فانطلق معه عليه السلام حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال :
— آتينا بتلك القصعة .

فأتتهم بقصعة فيها بقية من طعام قد أكل وبقي في حوانها بعضه ،
فسمى عليه السلام وحمل أبو هريرة يتبعه عليه السلام فأكل حتى شبع
كان أبو هريرة لا يقطع عن محالس رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه ، وكان حريصا على أن يسأل رسول الله — صلوات الله عليه — عن
أشياء لا يسأله أصحابه عنها ، قال :

— يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني ، فأشئني
عن كل شيء .

— كل شيء خلق من ماء .

— يا رسول الله أئسى عن أمر إذا أخذت به دخل الجنة ؟

— أفش السلام وأطعم الطعام وصل للأرحام وقم بالليل والناس
بيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

وكان أبو هريرة حريصا على أن يتعلم من رسول الله عليه السلام
فيما يريد بن ثابت وأبو هريرة وآخر في المسجدين يوم يدعوب الله تعالى
ويدكروا إدا حرح عليهم السى — صلوات الله عليه — حتى جلس إليهم فسكتوا ،
فقال عنه السلام :

— عودوا إلى الذى كنتم فيه .

فدعا ريد هو وصاحبه قبل أنى هريرة ، وجعل رسول الله — صلوات الله عليه — يقول :

— آمين .

ثم دعا أبو هريرة فقال :

— اللهم إني أسألك ما سألك صاحبائى وأسألك علما لا ينسى .

فقال — ﷺ :

— آمين .

فقالا .

— يا رسول الله ونحن نسأل الله علما لا ينسى ، فقال :

— سبقكما بهما الغلام الدوسى .

كان أبو هريرة فى الثلاثين وكان ملارما أمه ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه الحبيبة عن الإسلام . إنه يتوسل إليها أن تلقى إليه سمعها ، ولكنها كانت تصع أصابعها فى أذنها وتشيع عنه فيستشعر كأن حناجر تصوب إلى قلبه وكان أشواك الأرض تحز روحه فلا يجده عراء إلا أن يتوجه إلى الله يدعو أن يهدى أمه الصراط المستقيم .

كان حريصا على إسلام أمه حرصه على شكر الله على هدايته ، فكان

يقول :

— الحمد لله الذى هدى أبى هريرة للإسلام ، الحمد لله الذى عزم أبى

هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبى هريرة بمحمد — ﷺ .

وكان حريصا على أن يحفظ أحاديث رسول الله — ﷺ — حرص

عند الله بن عمر على أن يتبع آثار النبى — ﷺ — فى منازله ، قال عليه

السلام :

— من يأخذ من أمتى خمس حصال فيعمل من أو يعلمهن من يعمل

من ؟ .

قال أبو هريرة :

— أنا يا رسول الله .

فأخذ عليه السلام بيده فعدى فيها ثم قال :

— اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارص بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

ولا تكثر الصحك فإن كثرة الضحك تميت القلب

ودأت يوم رفع رسول الله ﷺ — الدرة ليضربه بها فقال أبو هريرة :

— لأن يكون صبرنى بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأنى أرحو

أن أكون مؤمنا وأن يستجاب لرسول الله ﷺ — دعوته

كان أبو هريرة راضيا بحياته سعيدا بصحبة رسول الله عليه السلام ،

وم يكن يعكر صفو حياته إلا إغراض أمه عن الإسلام ، فذهب إليها

ودعاها إلى الإسلام فأسمعتته في رسول الله ﷺ — ما يكره ، فحاء

إلى رسول الله ﷺ — وهو يكي فقال :

— يا رسول الله انى كنت أدعو أم أبى هريرة إلى الإسلام فتأبى على ،

وإنى دعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يعدى أم أبى

هريرة إلى الإسلام .

ففعّل ، فحاء أبو هريرة البيت فإذا الباب محاف وسمع حصحصنة

الماء ، وسمعت حسه فقالت :

— كما أنت .

فلبست درعها وعمت عن مخارها ثم قالت :
— ادخل يا أبا هريرة .

فدخل فقالت :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فجاء يسعى إلى رسول الله — ﷺ — يبكي من الفرح كما يبكي من
الحزن فقال :

— أبشر يا رسول الله فقد أحاب الله دعوتك ، قد هدى الله ثم أبى
هريرة إلى الإسلام .

وتهللت أساريه من الفرح وقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يحصى وأمى إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى
كل مؤمن ومؤمنة .

— اللهم حب عبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة .

واشتد فرح أبى هريرة ، فلما عاد إلى الدار وقف على بابها فقال :

— السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته .

رحمك الله كما ريتنى صغيراً .

— رحمك الله كما بررتنى كبيراً .

حاض سابور الثانى غمار معارك مع العرب انتهت بأن احتلت فارس البحرين ، وعرف سابور بذى الأكتاف لأن ساسان الأول تبا بأن ملك الساسانيين سيزول على أيدي أصحاب نبي عرقى بشر به ررادشت بقوله اتبعوا وصاياى حتى يأتى صاحب الحمل الأحمر من بلاد العرب ، فكان سابور يقب أكتاف أسراه العرب .

وحكم البحرين منذ ذلك الوقت مرزبان من قبل كسرى فراح يبنى بيوت تار فى الولاية ويشتر اندين الخومى فتعللت الخوسية فى عرب البحرين وآمو بالأوستا الساسانية وعكفوا على « الرند » تفسير الكتاب المقدس وتكلموا فى امبدأ والمعد وغيرهما من أركان الدين ، وتزوجوا المحارم كما كان يفعل السادة الإيرانيون ، وعبدوا ميترا إنه انعقد ونور الصباح الذى عرفه ابديون بشمس . وكانوا يرتلون : لا سلطان لك لترفع عادة الشمس نى تصيء بورها الكول كله ، والتي تضجع بحرارتها عداء الناس والحيوان ، والتي سميت بإله مهر بسبب سخائها وتشملى وكرمها العادل لأنه ليس فيها مكر أو جهل .

وقد سوا عناصر الطبيعة ، وحافظوا على الماء وأدار من الحاسة حتى إهم لا يغسلون باماء وحوهمم ولا يمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو رى الررع ، وميرت الأوست (كتابهم المقدس) بين خمسة أنواع من النار : نار المعدد والنار التى يتمتع بها الناس عادة ، والنار التى توحد فى

جسد الإنسان والحيوان ، والبار التي توحد في النباتات ، والنار الكامنة في السحاب ، والبار التي تشتعل أمام أهوار مرذا في الحمة .

وعرف عرب البحرين الصراع بين أهوار مرذا عالم البور وأهزمين عالم الظلمات واختلاط الخير والشر والصراط المستقيم والبعث والحمة ، وما بقي من دين زرادشت القيم بعد أن طعت عليه الخرافات لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وظلت قبضة الفرس قوية على البحرين حتى إذا ما انتهت الخروب بين الفرس والروم بانتصار هرقل على كسرى الثاني نراحت قصة الفرس وأصبح أمر البحرين للسدر بن ساوى ، وعرف الإسلام طريقه إلى تلك البلاد فقد أرسل الرسول عليه السلام إلى اسدر العلاء بن الحصرمى وبعث معه كتابا ورحالا فيهم أبو هريرة ووصاه عليه السلام به ففعله العلاء مؤدبا بين يديه ، وكان العلاء يصلى بأصحابه وقد سبهم بآمين بعد أن قرأ الفاتحة ، فقال له أبو هريرة :

— لا تسبقنى بآمين أيها الأمير .

وبلع الركب البحرين فإذا بأهلها على دين المحوس واليهودية يهرعون إلى بيوت النار أو الكنيس إذا ما أرادوا شكر الله على ما أنأهم من خير . ودخل العلاء عن المنذر وراح يعرض عليه الإسلام ، وقال ههما قال :

— يا منذر، بك عظيم العقل في الدنيا فلا تصعرون عن الآخرة . إن

هذه المحوسية شر دين يكح فيها ما يستحيا من بكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعدون في الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى فابظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا يصدق ؟ ولمن لا يحون ألا يأمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا شق به ؟ فإن كان هكذا فهذا

هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهي عنه أو ما نهى عنه أمر به .

وراح المدر بن ساوى يقرأ كتاب رسول الله — ﷺ — على أهل البحرين ، وجعل العلاء وأبو هريرة ومن معهما من المسلمين يشرحون للناس أركان الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فانشروا له صدور وأصاءت أنواره أفقده هداها الله الصراط المستقيم ، فاعتنق كثير من أهل البحرين الإسلام كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والجنود فلما حدثهم المسلمون عن الإسلام وجدوه من نفس النعم الذي اعترف به رادشت إلا أن الإسلام قد أراح عنه الأساطير وما تمحه العروس . ورايت الدهشة على المدر لما كان يصدق أن الناس يقبلون ديناً جديداً في مثل ذلك اليسر .

وأطرق المدر يفكر فيما جاء به رسول الإسلام عليه السلام فوجده يطابق الفطرة ولا يدعو إلا لكل كريم ودوى بين حسيه حديث العلاء وتذكر ما أوصى به رادشت من الاستمسك بما جاء به إلى أن يأتي صاحب الحمل الأحمر من جزيرة العرب ، وها هو ذا صاحب الحمل الأحمر يبعث إليه رسنه ليدعوه إلى الهداية والرشد . أو يعلق قلبه دون لنور ؟

ودخل العلاء وصحبه على المدر بن ساوى فقال :
— قد نظرت في هذا لدى في يدى موحده لنديا دون الآخرة ، ونظرت في دينكم رأيته للآخرة والنديا . فما يعمى من قبول دين فيه أمية الحياة وراحة الموت ؟ ونقد عجب أمس من يقبله وعجب اليوم ممن يرده . وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنتظر .

وكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ — كتابا جاء فيه يا رسول الله فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرضي محوس ويهود فأحدث لي في ذلك أمرك .

وقرأ عليه السلام كتاب المنذر وسمع من رسله ، ثم كتب له كتابا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإني أحمد إليك الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فإني أذكر الله عز وجل فإنه من يصبح فإثما يصبح لنفسه ، وإنه من يقطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن يصبح لهم فقد يصح لي ، وإن رسلي قد أثنوا عليك حيرا ، وإن قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح هل نعتلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو محوسيته فعليه الجزية) .

(٢٣)

كانت المدينة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولكن بعض قبائل العرب كانت تفكر في غزو المدينة أو الإغارة على سرحها لليل من هبة المسلمين ، فصلح الحديبية شجع كثيرا من الناس على أن يشدوا الرحال إلى المدينة وأن يلقوا إلى نبي الإسلام عليه السلام آذانهم فيدخلوا في دين الله أفواجا ، مما يزعم عقائد العرب ودين الآباء .

ولم يكن الرسول عليه السلام ليبدأ بالعدوان فهو على نور من ربه لا

بخالف أمره وهو جل من قائل ﴿١﴾ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴿٢﴾ ، ولكنه ما كان يترث حتى يدمه في داره فما إن تلوح له عليه السلام بادرة من عدوه بأنه يتأهب للعدوان حتى يبعث البعوث ليقصى على الفتنة قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب الذي نصر به في قلوب الأعداء .

حماه عليه السلام أن يسي عوال وبي عبد بن ثعلبة وهم بالميمعة — وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلا باحية نجد — يستعدون لشى غارة على المدينة ، فبعث إليهم عليه السلام في شهر رمضان سنة سبع من مهاجرة عالى بن عبد الله البشبي في مائة وثلاثين رجلا كان فيهم أسامة ابن زيد حب رسول الله عليه السلام .

وفي الصباح هجم المسلمون على القوم وكان فيهم رجل يدعى مرداس بن سهيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم على المسلمين وإذا أدبروا كان من حاميتهم . وانتهت المعركة بانهازم الكافرين وولى مرداس الأدبار فتبعه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ، فرفع أسامة عليه السيف فقال :

— لا إله إلا الله .

فكف الأنصارى قطع أسامة برمح حتى قتله ، ثم وجد في نفسه من ذلك موجدة شديدة حتى ما يقدر على أكل الطعام حتى قدم على رسول الله ﷺ — فقبله واعنقه . وكان عليه السلام إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ويجب أن يشي عليه حيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه

فجعل القوم يحدثون رسول الله ﷺ — ويقولون :

— يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ! لقيه رجل فقال الرجل لا إله إلا الله فشد عليه أسامة فقتله .

وراح — ﷺ — يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه رفع رأسه لأسامة فقال :

— يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

— يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا من القتل .

— أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ! فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا

جاءت يوم القيامة ؟

— إنما قالها خوفا من السلاح .

— هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

وود أسامة أن ما مضى من إسلامه لم يكن وكان أسلم يومئذ وقال :

— يا رسول الله استغفر لي .

فاستغفر له وقال :

— اعتق رقبة .

وودى رسول الله عليه السلام مرداس بن سهنيل وعاهد أسامة بن زيد الله ألا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .

وفي شوال من نفس السنة بع رسول الله ﷺ — أن جمعا من

عطمان قد واعدتهم عينة بن حصص ليكون معهم ليرحفوا إلى رسول الله

ﷺ — ، فدعا عليه السلام بشر بن سعد فعقد له لواء وبعث معه

ثلاثمائة رجل ، فساروا حتى أتوا يثرب وجبار فدبوا من القوم فأصابوا لهم

نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فحذروا القوم فتفرقوا ولحقوا بعلياء

بلادهم ، وخرج بشير بن سعد في أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد فيها أحداً فرجع بالعم ، وأصاب منهم رحلين فأسرهما وقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ .

ودخل الرجلان على رسول الله عليه السلام وهما يرتجفان ، فما إن وقعت أعينهما عليه حتى أحسا شيئا من الطمأنينة . إنه جهير الصوت حسن النعمة طيب الريح خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، لا يتكلم من غير حاجة ، يتكلم بمجامع الكلم فصلا لا فضول فيه ولا تقصير .

وراح الأسيران يصعيان إليه عليه السلام وقد سكنت الطمأنينة أقدنهما . انه ليس بالخفي ولا بالهين لا يعضب لنفسه ، ولا يتصر لها وإنما يعضب للحق حتى يصره ، لا يستخفه فرح ولا غم ، يحسن الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويبسه ، يعطى كل حنيس له نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

يؤثر الداخل بوسادته ويسط له ثوبه ، من سأله حاجة لا يردده إلا بها أو بما يسر من القول ، وسع الناس بسطه وحلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء متعاضلين بالتقوى ، مجلسه مجلس حرم وحياء وأمانة لا ترفع فيه الأصوات .

وراح عليه السلام يتكلم فأطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، فلما سكنت تكلموا متواضعين يشع من أحاديثهم التقوى ، فحمل الأسيران يصعيان وهما في دهشة من أمرهما فقد ظنا أنه سيأمر بصرب عقهما فإذا به عليه السلام يعرض عليهما الإسلام ويقرأ القرآن ، فيشعران أنهما قد أصبحا أكثر حرية مما كانا عليه وهما في أهلتهما فقد

صفت قلوبهما وأطلقهما حرية الفكر والاختيار ورفعنا إلى السماء
ليقرعا أبواب الملكوت ، فامتلا بشوة روحية لم يسعدا بمثلها من قبل .
ولهما دافعا لده المعرفة وتتوجا بشرف المعلومات وأحسا قربا حقيقيا
من رب الناس إله الناس ، فحديث رسول الله ﷺ — أصاء
لبصيرتهما الحقائق فظهرت في قلوبهما الأنوار واستعدت لحمل الأمانة .
وأحسا بسايم الأنطاف تهب عليهما ، وبالحجب تنكشف عن أعين
أفئدتها ، وبالرحمة تفيض عليهما وبإشراح الصدر ، وبحقائق الأمور
الإلهية تتلأأ في النفوس ، وبالبور يعمر الوجدان فإذا الوجود كله
أنوار ، فقالا وهما متفرحان في الله :
— شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

(٢٤)

دار لعام وطهر هلال دى القعدة من السنة السابعة وهو الشهر الذى
صده عليه السلام فيه المشركون عن البيت الحرام ، فأمر أصحابه أن
يعتمروا وألا يتحلف أحد من شهد الحديبية فلم يتحلف إلا من مات أو
قتل بخير ، وخرج مع رسول الله ﷺ — قوم المسلمين عمارا ممن لم
يشهد الحديبية فكانوا ألفين .
واستحلف رسول الله ﷺ — على لمدينة أبادر العمارى ، وساق
— ﷺ — سنين بدة وقندها وجعل على هديه ناجية بن جسد
الأسلمى .
وحمل رسول الله ﷺ — السلاح والدروع والرماح وقاد مائة

مرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد . وأحرم —
 ﷺ — من باب المسجد فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه
 فقيل :

— يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ألا ندخلها عليهم بسلاح
 إلا سلاح المسافر ، السيوف في القرب !
 فقال رسول الله — ﷺ :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه ، فإن
 هاجمنا هيج من القوم كل السلاح قريبا منا
 فمضى بالخيول محمد بن مسلمة فلما كان عمر الظهران وحد هرا من
 قريش فسألوه فقال :

— هذا رسول الله — ﷺ — يصبح هذا المرل عدا إن شاء الله .
 وقد رأوا سلاحا كثيرا فحرحوا سراعا حتى أتوا قريشا فأحبروهم
 بالذي رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش وقالوا :
 — ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا فقيم يغزونا محمد في
 أصحابه ؟ !

وأقبل المسلمون يلبنون :
 — لييك اللهم لييك . لييك لا شريك لك لييك . إن الحمد والنعمة
 لك والمملك . لا شريك لك .

وارتج مر الظهران بالتلبية ، وجاء مكرر بن حمص في سر من قريش
 إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح
 في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا سلاح المسافر

السيوف في القرب !

— إلى لا أدخل عليهم بالسلاح .

— هو الذى تعرف به البر والوفاء .

ثم رجع إلى مكة سريعا وقد رضى عن سفارته ، فقرئش التى سافت الجيوش من قبل وجمعت الأحزاب لاستئصال المسلمين باتت ترتحف فرقا من أن يغروها عليه السلام . وقدم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلاح إلى بطر يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وحلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، فلما اتصل بخروجه لقرئش خرج كراؤهم من مكة حتى لا يروه — صلوات الله — يطوف بالبيت هو وأصحابه . كانت العداوة تهش قلب أى سفيان فما كان يعيق أن يرى المسلمين يطوفون بالبيت وهم يلبون تنبيه التوحيد ، وكان عكرمة بن أبى جهل يعص محمد عليه السلام فمحرر من مكة وهو حائق فطواف الصائىء بالبيت العتيق وهم يظفرون هزيمة للكفاح الطويل الذى حاصره لكم أنفاس الإسلام .

وحرر خالد بن الوليد مع الخارجيين وإن كانت مشاعره تختلف عن مشاعر الشائين^(١) ، إنه أصبح يستشعر ميلا إلى الإسلام ولو طاور قلبه لهرول إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأعلن شهادة الحق ولكنه كان يترتب ، وفكر فى أن يبقى فى مكة إلا أنه حشى أن تلتقى عياله بعبى أخيه الوليد بن الوليد الذى كان فى صفوف المسلمين فهو واثق فى أعوار نفسه لو أن ذلك حدث لحقق قلب فارس

(١) الشائين : الحاقدين

قريش رهبة وهو الذي لم يعرف الخوف في حومة القتال .
 وخرج صفوان بن أمية حسدا لرسول الله عليه السلام ، وانطلق
 سهيل بن عمرو مع المطلقين وبقي حكيم بن حزام وقد أشرف على
 الستين فهو يحب أن يرى زوج عمته سيدة نساء قريش . فما أسعد
 الأوقات التي أمضاها وهو يصغى إلى عذب حديث أبي القاسم ، ولولا
 دعوته بأن الله قد أرسله إلى الناس لما كان بين حكيم وابن عبد الله أي
 خلاف .

وقدم رسول الله ﷺ — اهدى أمامه فحبس بدي طوى ،
 وخرج على راحلته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محذقون
 به ^(١) — يبنون وقد تدفقت أرقى المشاعر إلى الصدور واشتد
 وجيب الأفتدة وامتألت المآقي بالدموع ، فالمهاجرون يطلقون إلى أحب
 أرض الله إليهم ، إلى أرض الذكريات التي ما فتئو يحملون بالعودة إليها مد
 أحرحوا من ديارهم ، والأنصار يلمسون ما وعدهم به الله ورسوله ، إليها
 أميال قليلة ثم يطوفون بأول بيت وضع للناس ليكون سارة التوحيد .
 ودخل صاحب الجمل الأحمر الذي بشرت به الأنبياء على الثنية التي
 تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة أحد برمام راحلته وهو يقول :
 حلوا بنى الكفار عن سبيله حلوا فكل الخير في رسوله
 يا رب إني مؤمن بقبيله أعرف حق الله في قبوله
 نحن قتلناهم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
 ضربا يذبل الهام ^(٢) عن مقلبه ويذهل الخليل عن خيله

(١) محذقون به : ملتفون حوله .

(٢) يذبل الهام عن مقلبه : يذبل الرعوس يقصد : ضربا شديدا يهون له الرعوس

فقال له عمر بن الخطاب :

— إنها يا بن رواحة .

فقال رسول الله ﷺ :

— يا عمر إني أسمع

فأسكت عمر وقال رسول الله ﷺ .

— إنها يابن رواحة اقل : لا إله إلا الله وحده ، بصر عبده ، وأعر
جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وأطرق عليه السلام تواصعا لله وهو يدي حتى استلم الركس
بمححه^(١) مضطجعا^(٢) بثوبه وطاف على راحته والمسلمون يطوفون
معه وقد اصطبحوا بثيابهم ، وقريش على حل أبي قبيس وقببعا تطر لا
تكاد تصدق أن ابن أبي كبشة قد جاء بأصحابه يطوف بالبيت بعد أن
خرجوا من مكة إلى رعويس الجبال :

وقال قائل من قريش :

— إن المهاجرين أوهتهم حمى يثرب .

فأطبع الله سبه على ما قالوا ، ثم قال ﷺ —

— رحم الله امرأة أراهم من نفسه قوة .

وكشف عصبه اليمنى ففعلت الصحابة كذلك وراحوا يسمعون بين
النصفا والمروة ، ثم أمرهم أن يرملوا (يهرلوا) الأشواط الثلاثة ليروا

(١) المحس . العضا معوجة

(٢) اصطباع الثوب . جعله كملاس الإحرام حيث يطهر أحد لص عن أى

لمشركين أن لهم قوة ، فلما رأى المشركون أصحاب محمد يهرولون قال بعضهم لبعض :

— هؤلاء الذين رعنتم أن احمى قد وهنتهم ، إنهم لينفروا نفر الطي .

فلما كان الطواف السابع عند فرعاه وقد وقف الهدى عند المروة قال :

— هذا اسحر وكل فجاح مكة محر .

فحمر عند المروة وحق هناك وكذلك فعل المسمون وأمر رسول الله ﷺ — ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بطن يأجج فيقسموا على السلاح ويأتى الآخرون فيمضوا سكرهم ففعلوا

وعاد رسول الله عليه السلام ، وصحبه إلى الكعبة ودخلها فم يروها حتى أدن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، فراح سادات قريش يظفرون إلى مؤذن الرسول في حق ، وقال فائز منهم لحارث بن هشام

— ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

— دعه فإن يكن الله يكرهه فسيكرهه .

وقال عكرمة بن أبى جهل :

— لقد أكرم الله أنا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

وقال صفوان بن أمية :

— الحمد لله الذى أذهب أبى من أن يرى هذا .

وقال خالد بن أسيد :

— الحمد لله الذى أذهب أبى ولم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال

بهبق فوق الكعبة .

وعطى سهيل بن عمرو وجهه فقد كانوا يحبون أن يكون لهذا الكون ربا واحدا بينا أصنام الآلهة تكدست في جوف الكعبة ومن حولها .

وخرج عليه السلام من الكعبة وأم الصحابة وقد اصطفوا حلما ورجال مكة وساقوا ما أعجبهم وأرهبوا أذانهم ليسمعوا قرآن محمد ، فإذا به بيده عقولهم مما أكثر ما سمعوا الشعر وحفظوه وألقوا أسماءهم إلى رمة السحرة وسجع الكهنة ، إنه شيء آخر يحرك العواطف ولولا عنى القلوب لانحدروا من الخيال مؤمنين .

ودهب رسول الله ﷺ — إلى قته التي نصبا بالأنطح ليستريح فيما كان قلب برة بت الحارث الهلالية يهجو إليه عليه السلام — إياها أخت أم الفصل روج العباس أول من آمنت به من النساء بعد حديجة ، وأخت أسماء بنت عميس الخثعمية روج جعفر بن أبي طالب ، وسلمى بنت عميس روج حمزة بن عبد المطلب أسد الله — إياها الأخوات المؤمنات وإياها أرملة في السادسة والعشرين من عمرها مات عنها زوجها فصارت أميتها أن تصح أم المؤمنين . وإد رسول الله — عليه الصلاة والسلام — قد جاء إلى مكة وصار على مقربة منها فأصبح عليها أن تتحرك قل أن يقضى الأيام الثلاثة التي حددتها قريش لمكث المسلمين بأمر القرى — إياها كلمة تتحرك بها شفتاه ثم تتحقق الأحلام .

وجاء العباس إلى قبة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليطفىء نار الشوق وليرى جعفرا وعليها ورجال بني هاشم . وفيما كان الحديث دائرا بين رسول الله عليه السلام ومن جاءوا لتحيته التفت — إلى الوليد بن الوليد وقال :

— أين خالد ؟

فقال الوليد بن الوليد في ثقة :

— يأت الله به .

— ما مثله يحجل الإسلام .

وخرج الوليد بن الوليد يطلب حالدا فلم يجده ، فكتب إليه كتابا وهو يدعو الله أن يهدي أياه إلى الإسلام .

وكانت برة قد حدثت أم الفضل بأمرتها أن تكون روجة لرسول الله

— صلوات الله وسلامه عليه — لتكون لسي هلال شرف مصاهرة

رسول الله — ﷺ — كما قالت بنى تيم وبنى عدى وبنى أمية وبنى محزوم

وهواري وبنى أسد وبنى المصطلق ذلك الشرف ، فحدثت أم الفضل

زوجها العباس فأقصى العباس إلى ابن أخيه بأمية برة ، فعث عليه

الإسلام جعفر بن أبي طالب إليها ليحفظها . فما إن خرج جعفر من عندها

حتى استحف بها الطرب فركت بعيرها وانطلقت إلى حيث كان سي

الإسلام عليه السلام ، فلما أن وقعت عياها عليه — صلوات الله

وسلامه عليه — قالت :

— البعير وما عليه لله ولرسوله .

وتحدث الناس عما فعلت برة ، إنما لم تستطع الانتظار فحاعت تهب

نفسها لله ولرسوله . وقد سماها عليه السلام ميمونة وكثر احمس

استحفاها بالشابة التي استجاب استجابة صادقة لعواطفها دون رياء ،

ووجد المنافقون فرصة للعمز واللمز ومحاولة بدر بذور الاستياء في قلوب

المسلمين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنْ أُخْلِلَ لَكَ أَزْوَاجٌ

اللاتي آتيت أحورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك

وبنات عمك وبنات عماتك وبنات حالك وبنات حالاتك اللاتي
هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن
يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في
أرواحهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله عفورا
رحيما ﴿١﴾ .

(٢٥)

اسباب المهاجرون في دروب مكة يشمون غير أرض الدكرات
ويلثمون بأعيهم الدور ويهرعون إلى مراتع الصبا والشباب فرحين .
كانت بعض بيوتهم حاوية لا حركة ولا بأمة قد حيم عليها لسكون تعث
الأسبي في النفوس ، ولكنهم ألقوا عليها بطرات عابرة دون أن تزل
بأفئدتهم المموم فقد كان اليوم يوم نصر وحيور .

كانوا في المدينة يستشعرون شوقا طاعيا إلى مكة وكانت أعر أمانيهم
أن يعردوا إلى أم القرى وأن يرووا طمأهم من ماء رمرم وأن يطوفوا
باليب العتيق وأن يسمروا بالحجون ، فإذا بكل آمأهم تتحقق ، ولم
يمعص عليهم صفو انتصارهم إلا تلك الأصنام التي تقع أعيهم عليها في
كل مكان فإذا بأمنية جديدة تغطي على كل الأماني ، أن يأتي ذلك اليوم
الذي يسود فيه الحق ربوع أحب بقاع الأرض إلى نفوسهم وأن ترمرف
راية التوحيد على البيت العتيق .

وكان حكم بن حرام قد اشترى حلة سيف بن دى وزن بثلاثمائة دينار من سوق عكاظ ، فلما وجد أن روح عمته حديجة أم المؤمنين في مكة وأن يبه وبينهم هدية رأى أن يهدي إليه تلك الحلة فانطلق بها إلى حيث كان الرسول عليه السلام وأهداها إليه ، فأبى رسول الله عليه السلام أن يقبلها وقال .

— لا أقبل هدية مشرك .

فجرع حكيم حزعا شديدا ، حيث رد هديته فباعها من أول سامم سامه ، ودرس رسول الله إليها ريد من حارثة فاشتراها فلبسها رسول الله ، فلما رآه حكيم فيها قال :

ما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو عرة وحجول^(١) واستمر حكيم يملأ عينيه من رسول الله عليه السلام فما رأى أحدا قط أجهل ولا أحسن من رسول الله في تلك الحلة .

وحلها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان يحب أن يرهو بجيد الثياب فكساها أسامة بن زيد من حارثة ، فراها عينه حكيم فقال :

— يح بخ يا أسامة ، عليك حلة ذى وزن !

فقال لأسامة رسول الله :

— قل له وما يمعنى وأنا خير منه وأبى خير من أبيه ؟

و نقصت الأيام الثلاثة ورسول الله — ﷺ — مع الأنصار يتحدث

(١) العرة : بياض في جهة الفرس والمراد بها الإشراف والصور ، وحجول : بياض في أرجل الخيول والمراد بها جمال المطر

مع سعد بن عبادة ، فحاء إليه سهل بن عمرو وحويطب بن عبد المرى
في نفر من قریش فصاح حويطب :

— ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مصت
الثلاث .

فعصب سعد بن عبادة لما رأى من غلظ كلامهم للنبي — ﷺ —
فقال لحويطب :

— كذبت لا أم لك ليس بأرسلك ولا أرض آباتك ، والله لا يرح
منها إلا طائعا راضيا .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال

— يا سعد لا تؤذ قوما زارونا في رحالنا .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يبسى بميمونة في مكة ، فقال لحويطب
وصحبه :

— إني قد مكحت فيكم امرأة . فما يضركم إن مكنت حتى أدخل بها
وأصع الطعام فتأكل وتأكلون معا !

— لا حاجة لنا في طعامك . اخرج عنا من أرضنا هذه الثلاثة قد
مضت .

وهم سعد بن عبادة بأن يتكلم وتأهب حويطب للرد عليه فأسكت
عليه السلام الفريقين ، ثم إنه — ﷺ — أمر أبا رافع أن ينادى بالرحيل
لا يبسى بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتي له بميمونة حين
يبسى .

وتدفق المسلمون على الحرم يطوفون طوف الوداع ويسحبون
بظهورهم دون أن يولوا الكعبة لأدبار تعظيما لها ، وفي الأعين دموع

وفي الخلق عصص ، وكفار قريش على رؤوس الجبال ينظرون في دهش
فقد قيل لهم فيما قيل إن محمدا وصحبه لا يوقرون البيت ، فإذا بتلك
الحجة تنهار فالمسلمون يعظمون بيت أبيهم إبراهيم ويتجشمون المشاق
لزيارته والطواف به ورفع أكف الضراعة إلى الله عند باب بيته .

وفعلت الأيام الثلاثة في قنوب مشركي قريش الأناعيل ، كانوا
يرصدون حركات المسلمين ويرقبون صلواتهم وبلغون السمع إلى القرآن
الحجيد فحطروا لأناس مهم أن ينحدروا من الجبال إلى حيث استقر
المسلمون ليهلوا من النبع الصافي الرقاق الذي هفت^(١) إليه الأفئدة لولا
الخوف من الناس وخشية بطش الجبارين

واسل المسلمون من مكة حتى إذا ما غابت الشمس حلف الحبال
وبدا رحف الليل لم يكن لها غير أبي رافع وميمونة ، فذهب أبو رافع
ليقود بعير ميمونة إلى معسكر رسول الله عليه السلام ، وطفق أبو رافع
يشق طريقه بين الحموع المهادرة في غضب في جهد شديد ، وكان يؤديه
ما لقي من عدا من أهل مكة ويريد في غضبه ما نال النبي — ﷺ —

من أدى ألسنتهم وميمونة ، فلم يجد مفرا من التهديد فقال لهم :
— ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح يبطل بأحج وأنتم تريدون
نقص العهد والمدة .

كانوا يرتجفون من مكرة نقص العهد فقد أصبح من الراضع وصوح
النهار أنه لا قيل لهم بمحمد وصحبه ، فإن أراد أن يعيل عليهم فلن يجد من
يقف في وجهه وإلهم هذه السباب المتدفقة من أفواههم يعطونه فرصة

(١) ههنا إليه : مال إليه وأحبه

نقص لعهد وفتح مكة ، فتقاصرت أفس السهواء فولوا راجعين
مكسين

ولما حرج رسول الله ﷺ — من مكة جاءه على بن أبى طالب
وكلمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت مع أمها سلمى بنت
عميس ، فقال :

— علام شرك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين ؟

وبعث عليه السلام إلى أبى رافع أن يأقى بعمارة ، فخرج أبو رافع
ميمونة وعمارة حتى إذا ما لحق بركب المسلمين تناول على كرم الله
وجهه ابنة عمه فأخذ بيدها وقال لفاطمة الزهراء :

— دولك ابنة عمك .

وسار ركب المسلمين حتى إذا بلغوا سرف نزلوا بها ونصبت قبة
رسول الله عليه السلام تحت شجرة هناك ، ودخل ميمونة بعد أن صعد
طعاما لأصحابه . وسعدت الروجة الشبة بذلك الزواح الذى شرفها
وشرف قومها وحفرت فى عين ذاتها ذكريات هذه البقعة المباركة التى
جعلت منها أما للمؤمنين ، إن لحطات سرف هى راد حيتها وهى خير
زاد يعذى روحها حتى الممات .

وانصرف المسلمون راجعين إلى المدينة ، واختلف على بن أبى طالب
وريد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى أيهم يكفل عمارة بنت حمزة أسد
الله وأسد رسوله ، فقال زيد بن حارثة :

— أنا أحق بها لأنها بنت أحمى وأنا وصيه .

وقال ريد حقا فالتبى — ﷺ — كان قد آخى بين حمزة وريد وجعفر
حمزة وصيه .

وقال على كرم الله وجهه :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمى وجئت بها من مكة .

وقال جعفر :

— أنا أحق بها لأنها بنت عمى وحالتها تحتى .

وكانت أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، وكانت سلمى بنت عميس

أم عسارة بنت حمزة ، وكان جعفر يرى أنه أحق الثلاثة بكفالة بنت

عمه ، فلما بلغ الأمر رسول الله عليه السلام قضى بها لجعفر وقال :

— الخالة ممرلة الأم .

وهر المرح جعفر فحجل حول النبي — ﷺ — فقال عليه السلام .

— ما هذا يا جعفر ؟

— يا رسول الله كان المجاشي إذا رصى أحد أقام فحجل حوله .

وقدم رسول الله — ﷺ — الخالة في الحضرة على العمة فقد كانت

صمية بنت عبد المطلب موجودة ، وقال — ﷺ — لعلى :

— أنت أحنى وصاحبى ، أنت منى وأنا منك .

وقال جعفر :

— أشبهت خلقتى وخلقتى

وقال يزيد :

— أنت مولى الله ومولى رسوله

عاد خالد بن الوليد إلى داره وهو مطرق يفكر فيما رأى من محمد بن عبد الله وصحبه . إنه قد خيل إليه أنهم مصاييح نور وأن هؤلاء قد هفا إليهم وأن صدره قد انشرح لما سمع من الذكر الحكيم ، وراح يسأل نفسه ما الذى يجعله يحجم عن الحق ما دام قد استبان الطريق ؟ إنه يستشعر سائم الألفاظ تهب عليه والحجب تنكشف عن عين قلبه فاشتعل سراح هؤلاء بأبوار بصيرته فإذا به يشاهد ما وراء حواسه الخمس ويفذ في عالم الملكوت .

وحف إليه أحد مواليه وقال له :

— إن مولاي الوليد بن الوليد قد طلبك فلم يجده فكتب لك هذا الكتاب .

وتناول خالد الكتاب في هفة وراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أعجب من دهاب رأيك عن الإسلام وقنة عقلك ومثل الإسلام لا يحمله أحد . قد سألتك عنك رسول الله — ﷺ — فقال أين خالد ؟ فقلت يا نبي الله به . فقال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل بكايته مع المسلمين على المشركين كان حيرا له . فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتك مواقف صالحة . ونشط خالد للخروج وزاده الكتاب رغبة في الإسلام وسرته مفاة رسول الله . وأطلق لخياله العنان ، إنه حارب محمدا — ﷺ — وهو

يعتقد أنه في جانب الحق ، وإنه شهد المواطن كلها على محمد عليه السلام فليس موطن يشهده إلا يصرف وهو يرى في نفسه أنه موضع^(١) في غير شيء وأن محمداً — ﷺ — يظهر ، حتى إذا كانت عمرة القصية قدف الله في قلبه الإسلام وحضر له رشده .

فتحت نفسه لاستقبال الأنوار واستعد للمعرفة بفؤاده لا بخارجة من جوارحه ، ففاضت عليه الرحمة واشرح صدره وتأنفت في وحدانه حقائق الأمور .

واحتلجت الخواطر في نفسه فتذكر تلك الأيام التي كان أبوه الوليد بن المعيرة ينشئ النبي وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه أسلم ، رتمي في فرارة نفسه لو أن أباه قد أسلم في تلك الأيام كما أسلم أخوه لوليد ، وأحسن أسى لما تذكر أنه أدق أحياه العذاب وهو يحسب أنه يحسن صنعاً . ليت ربه يعفر له ما كان منه من قتل المؤمنين وتعذيب المستضعفين .

ولو أن أباه قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة لحقن دماء كثيرة روت أرض بدر وأحد ، ومات قريش العيين كما يموت المؤمنون . ولكنها لإرادة الله لا راد لقضائه فعال لما يريد .

ودار في وجدانه ذلك الحوار الذي شب بين أبيه وأبي جهل :

— إن قريشا ترعم أنك إنما تأتى محمداً وإن أئى قحاحة نضب من طعامهما .

— إنكم دؤو أحساب ودؤو أحلام وإنكم ترعمون أن محمداً

(١) وضع : حمل ركابه على العدو ، والمراد هنا أن لا تائدة من عداوته

لرسول .

مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟

— اللهم لا .

— تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه يطق بشعر قط ؟

— لا .

— فترعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟

— لا ، فما هو ؟

— ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .

— لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

— فدعنى حتى أفكر فيه .

وكاد خالد بن الوليد يصرخ في مجلسه يقول ميم تمكر يا أبى وقد
ستبان لك الحق ؟ فأبوه الوليد قد عرف جوهر رسالة محمد — ﷺ —
وألقى إليه سمعه وقال عن قرآنه إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلما دأب أسكبر ولم
يتبع البور ؟ لو أنه أسلم لكاد حال قريش غير الحال ولكن الله يؤتي الملك
من يشاء ويرفع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويدل من يشاء بيده الخير
وهو على كل شيء قدير .

وراحت آيات من القرآن المحيد تضيء وجدان خالد وتمس أذنيه مسا
رقيقا فيحشع قلبه ويفيض دمه من عينيه وتتفرح نفسه بالله : ﴿ إن في
خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في
البحر مما ينفع الناس وما أفرل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد
موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين
السماوات والأرض آيات لقوم يعقلون ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا • وَاجْعَالَ أَوْتَادًا • وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا •
وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبِيلًا • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا • وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا • وَبَيَّأَ
مَوَاقِعَ سَبْعِ شَدَادَا • وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا • وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً
ثَبَّاجًا • لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا • وَجَبَاتٍ أَلْفَافًا ﴾ (١)

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُونَ • أَلَأَنْتُمْ تَخْفَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ • نَحْنُ قَادِرٌ بِإِسْكَمِ
الْمَوْتِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْقُوفِينَ • عَلَى أَنْ سَدَلْ أَمْثَلَكُمْ وَنَنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا
تَعْلَمُونَ • وَلَقَدْ عَنُتُمْ الشَّأْنَ الْأَوَّلَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ • أَفَرَأَيْتُمْ مَا
تَحْرَثُونَ • أَلَأَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الرَّارِعُونَ • لَوْ شَاءَ لَحَمَلْنَاهُ حَطَابًا مَطْلَمَ
تَمْكُهُونَ • إِنْ أَلْمَزْتُمْهُ بِمَا لَمْ رَمَوْا • بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ •
أَلَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمَرْلُونَ • لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ آحَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ • أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ • أَلَأَنْتُمْ تُشَأْنُمُ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ
الْمُشْفِقُونَ • نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَفِتْنَةً لِلْمُقَوِّينَ • فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ
الْعَظِيمِ ﴾ (٢) .

فإذا خالد بن الوليد يتمم في إيمان عظيم :

— سبحانه الله .

ودخل خالد وبان فرأى في المسام كأنه في بلاد ضيقة حدية مفرح إلى
بلاد خصرء واسعة . فلما هب من بومه ذهب ليتجهز لبطلق على حجاج
الأنشوق إلى المدينة ليقبى محمداً — ﷺ — وليعلن على الملأ شهادة أن لا
إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فقد كان خالد فارساً حقاً حارب
الإسلام لما اعتقد أنه في حجاب الحق ، وعزم على الهجرة لما أراح الله

الحجب عن بصيرته وألقى في صدره أنوار اليقين .
 وحرّح خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ، فلقى
 صفوان بن أمية فقال :
 — يا أبا وهب أما ترى محمداً ظهر على العرب ؟ فلو قدمنا عليه
 فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال صفوان في انفعال :
 — لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً .
 فانصرف عنه خالد وهو يقول في نفسه : « هذا رجل قتل أبوه
 وأخوه بيدى » . فلقى عكرمة بن أبي جهل فقال له :
 — يا بن أخي أما ترى محمداً ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه
 فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .
 فقال عكرمة مثل ما قال صفوان ، فقال خالد :
 — فاكمم ذكر ما قلت .
 — لا أذكره .

ثم لقي عثمان بن طلحة الحبشي فقال في نفسه : « هذا لي صديق » .
 فأراد أن يذكر له ثم تذكر أن أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة
 مسامح والخلاس والخيال وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد فكره أن يذكر
 له . ثم قال في نفسه : « وما عني ؟ » فقال له :
 — إنما نحن عسكرة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب ماء لخرج .
 فالتفت إليه عثمان بن طلحة في ابتاه وهو يرقب ما يقصده خالد من
 هذا الحديث ، فقال خالد :

— أما ترى محمداً ظهر على العرب فهو قدمنا عليه فاتبعناه وإن شرفه

شرف لنا ؟

فقال عثمان في فرح :

— هذا هو الرأي .

فواعد عثمان بن طلحة خالد بن الوليد إن سبقه أقام محفل كذا وإن سبقه خالد إليه انتظره . فلم يطلع الفجر حتى التقيا فانطلقا على رواحلهما حتى انتبيا إلى الهدة فوجدا عمرو بن العاص بها ، فقال عمرو :

— مرحبا بالقوم .

— وبك .

وقال عمرو لخالد :

— يا أبا سليمان أين تريد ؟

فقال خالد بن الوليد في حماس :

— والله لقد استقام الميسم (الطريق) وطهر الأمر ، وإن هذا الرجل

لنبي فاذهب فأسلم فحنى متى ؟

وقال عمرو :

— وأنا ما جئت إلا لأسلم .

وانطلقوا وعمرو بن العاص يقص ما كان بينه وبين نحاشي الحشة وكيف أن النجاشي قد نصحه أن يتبع النبي الأمي الذي يجده مكتوبا عنده في التوراة والإنجيل وكيف بايعه على الإسلام ، وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة يصغيان وهما يحسان أن رويهما أصبحتا قادرتين على التحليق وقرع أبواب المنكوت .

وأحوا بظهر الحرة ركابهم وأحبروا رسول الله أنهم قدموا ليشهدوا

شهادة الحق ، فسر بهم وقال لأصحابه :

— رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وداع بين المسلمين أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد جاءوا طائعين ليدخلوا في دين الله بعد أن استبان هم الأمر ، وطاف بالمدينة مرور وهرع بعض الناس إلى رحالهم ، وكان الوليد بن الوليد يهرول وهو يكاد يطير من الفرح فإن نبأ إسلام أخيه خالد كان أحب إليه من كنوز الأرض .

وراح خالد وعمرو وعثمان بن طلحة يلبسون من صالح ثيابهم وقد اشتد وجيب قلوبهم فهم لا يقدمون على الصلوة ولا ابن أبي كبشة بل يقدمون على رسول الله — ﷺ — الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر فإذا بخالد وصاحبه يرهصون اسمع فيستشعرون كأن أنواراً تملأ جوارحهم ، وانفتحت الوليد بن الوليد إلى أخيه وقال :

— أسرع فإن رسول الله — ﷺ — قد سر بقدمكم وهو ينتظركم .

فأسرعوا المشى حتى بلغوا المسجد ، فانطلقوا إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وأعين المسلمين تمتد إليهم وقد تفرقت فيها الدموع من الانفعال ، ولو طأوعوا عواطفهم لانطلق التكبير من حناجرهم فإسلام فارس قریش وعمرو بن العاص داهية قریش وعثمان بن طلحة سادن الكعبة شيء يهر المشاعر ويملأ القلوب بالبشر .

ورأى عليه السلام خالد وهو يتقدم فتسم إليه ، وما رالت البسمة

نوح شميه حتى وقف خالد بعد خطوات منه وقال في صوت متهدح من التأثر :

— السلام عليك يا رسول الله .

فرد عليه النبي — صلوات الله وسلامه عليه — بوجه طلق فقال :

— وعليك السلام يا أبا سيمان ورحمة الله .

فقال خالد وهو يهتز من رأسه إلى قدمه من شدة الانفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله

فقال عليه السلام في رضا :

— الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا

يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد في ابتهاج :

— يا رسول الله ادع الله أن يعمرني نيك الموطن التي كنت

أشهدها عليك .

فقال عليه السلام .

— الإسلام يحب ما كان قبله .

وتقدم عمرو بن العاص إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه

— وإن توجهه عليه السلام تهللا والمسلمون حوله يترفق في محاسنهم

السرور ، فما هو إلا أن جلس عمرو بين يديه — عليه الصلاة والسلام

— فما استطاع أن يرفع طرفه حياء منه — عليه السلام ، إنه هجاه في مكة

هجوفا حشوا وعلم الأطفال الشعر ليشذبوه حنقه في دروب أم القرى ،

وآداه وأرسل ألون العذاب بأصحابه وهو يأتي اليوم ثانيا ، فقال بعد أن

شهد شهادة الحق :

— أبايكم يا رسول الله على أن يعفروا لي ما تقدم من دنى
ولم يحضره ما تأخر ، فقال عليه السلام :
— إن الإسلام يحب ما قبله والهجرة تحب ما قبلها .
وأسلم الرجال الثلاثة ووقفوا خلف رسول الله يصلون مع المسلمين
أول صلاة وقد خشعوا لله .
﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط
مستقيم ﴾ ^(١) .

(٢٧)

كانت سليم ترى في الإسلام قيذا يحد من حريتهم ويعرض عليهم
الركاة التي نظروا إليها على أنها أتاة ، وقد أسلم بعض رجال سليم فهم
يقابل الناس ذلك بالارتياح بل كانوا يعيرون الذين اعتنقوا الدين الجديد
ويجهونهم ، وقد قال أبو شحرة بن الخنساء قصيدة طويلة يفرع فيها من
قد أسلم :
ألا أيها ملول بكثرة قومه وحظك منهم أن تصام وتقهرا
وقد رأت سليم نفسها بعد روال المستعمرات اليهودية أنها أمام الدولة
الإسلامية وجهها لوجه ، فلم يكن أمامها إلا أن تعتنق الإسلام أو تصم
إلى عطفان وهوارن وأعدائها الألداء الذين يقفون في وجه الدعوة
الحديدة ، واستمرت سليم في حيرتها لا تدري إلى أي المعسكرين تنضم .

.. وأذاقت سليم ألباءها الدين دخلوا في دين الله صفوف العذاب . لقد بدأتهم بالعدوان فبعث رسول الله ﷺ — ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين رجلا إلى بني سليم — فكان هم جاسوس مع انقوم فحرح يعدو إلى بني سليم وحذرهم فجمعوا جمعا كثيرا وأحدوا ينتظرون سرية ابن أبي العوجاء فانقلب الحال . كان ابن أبي العوجاء يعتمد على المفاجأة في الإغارة على قومه فإذا بفارسان سليم يرصدون مقدمه وقد تأهبوا للقتال .

ووقف ابن أبي العوجاء السلمي والذين معه أمام فارسان بني سليم وجها لوجه ، فتقدم ابن أبي العوجاء إلى صفوف بني سليم ودعاهم إلى الإسلام فقالوا :

— أي حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟

فتراموا بأسل ساعة وجعلت الأمداد تأتي بني سليم وأحدفوا بالمسلمين من كل ناحية ، ودارت رحى معركة رهيبة لم تكن متكافئة ، وثبت المسلمون يقاوتون في ثقة يرجون إحدى الحسينيين الاستشهاد أو النصر .

وسالت دماء طاهرة واستشهد عامة المسلمين ، وقد عجب فارسان بنى سليم من تلك الروح القتالية العالية والاستيسال الذي أبداه المؤمنون فأثرت فيهم مواقف الشجاعة الرائعة حتى إنهم فكروا في ذلك الدين الذي يقدم له أتباعه أرواحهم مستبشرين .

وأصيب ابن أبي العوجاء جريحا مع القتل ، وأدار البصر بعوس بني سليم فلم يحجروا على المحرعى . وتحت جحج الدين راح ابن أبي العوجاء يتحامل حتى أتى رسول الله ﷺ — وأحسره بأ حياة ذلك

الجانسوس وما حاق بالمسلمين .

وبعث عليه السلام غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوّح في بضعة عشر رجلاً لما بلغه أن القوم يأتهمون بالمسلمين ، فخرج غالب في أصحابه حتى إذا كانوا يقديد لحقوا الحارث الليثي فأسروه فقال .

— إنما حررت إلى رسول الله ﷺ — أريد الإسلام .

فقالوا له :

— إن كنت مسلماً لم يضربك ربطاً لك يوماً وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك .

فشدوه وثاقاً وحلموا عليه رجلاً أسود منهم وقالوا له :

— إن نازعك فاحترز رأسه .

وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكموا في ناحية الوادي ، وأرسل القوم جند الجهمي جاسوساً لهم فخرج حتى أتى تلا مشرفاً على القوم المقيمين محلهم ، فلما استوى على رأسه ابسط عليه ليطر إذا خرج رجل منهم فقال لامرأته :

— إني لأنظر على هذا الخيل سواداً ما رأيته قبل ، انظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئاً .

فنظرت فقالت :

— والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً .

— يا أوليني قوسى ونبل .

فماولته قوسه وسهمين فأرسل بهما فـأخطأ ما بين عيسى جندب ، وودّ حنذب أن يثن ولكه كتم آلامه فانزع السهم وثبت مكانه ، وأرسل الرجل سهماً آخر فوضع في مكب جندب فاسرعه وثبت

مكانه ، فقال الرجل لامرأته :

— والله لو كان حاسوسا لتحرك ، لقد حالطه سهمان لا أبا لك ،

فإذا أصححت فانظريهما لا تمصعهما الكلاب

ثم دخل ، فلما اطمأن به المنوح وبامواش المسلمون عليهم انعارة ،

فدارت معركة في سواد الليل أسعرت عن قتل المقاتلة وسبى الدرية

واستاقوا النعم والشاة . ومروا على حارث النخعي فاحملوه واحتموا

صاحبهم الذي تركوه عنده ، فخرج صريح القوم في قومهم فحاء ما لا

قبل للمسلمين هم فصار بين المسلمين وبينهم انواذى

وأيقن المسلمون أنه الموت فاستنوا سيوفهم وتأهبوا لخوض معركة

حتى آخر رجل ، فلم يعد هناك منجأ إلا الله والسيوف واشتد بو

المنوح ليقبضوا الذين تستروا بالنيل بش عذارته وإذا بسحابة تحجب

السماء وإذا بمنظر يهزل مدرارا فسأل الوادى فلم يستطع الكافرون أن

يجرؤوا به فصاروا وقوفا يضربون في عبط شديد إلى المسلمين وهم

متوجهون إلى المدينة .

وكان رسول الله في المدينة يعقد اللواء للرير بين العوام ليتقم بسرية

بشير بن سعد الأنصاري التي بعثها عليه السلام في بي مرة بعدك فأحاص

هم القوم وهتكوا بهم فتك دريعة . وقبل أن يتحرك الرير قدم غلب من

الكديد مؤيدا مبصورا فعنه عليه السلام في مائتي رجل إلى حيث أصيب

أصحاب بشير بن سعد وقال عليه السلام للرير :

— اجلس .

فسار عاب وصحبه ، فلما دنا من أعدائه جلا قام فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال :

— أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن تطيعوني ولا تخالموا إلى أمرا فإنه لا رأى لمن لا يطاع .

ثم ألف بين القوم فقال :

— يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، وإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبت فيقول لا أدري ، فإذا كثرت فكروا .

وأحاطوا بالقوم لما بدا نور الصباح ، ودوى صوت غالب في المضاء

— الله أكبر .

وإذا بأصوات المسلمين تهدير كأنها الهريم^(١)

— الله أكبر .. الله أكبر .

وجردوا السيوف وخرج بنو مرة للقتال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيوف وهم يصيحون :

— أمت .. أمت .

واجملت المعركة عن هزيمة بنى مرة والثأر لأصحاب بشير بن سعد ، وساق المسلمون النعم والشاء والدرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبخرة .

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولم يرض ذلك بعض قبائل العرب فكانوا يطعمون أن يقضوا عليهم . ولكمهم كانوا يريدون أن يعدوا على الملأ أن العداوة بينهم وبين الإسلام لا تزال قائمة فكان عليه

(١) الهزيم : صوت الرعد .

السلام يبعث السرايا ليهاجموا هؤلاء الثائرين في عقر دارهم ليقصى على
الفئة قل أن تستفحل ، وليصون عاصمة الدولة الإسلامية الدثنة من
العث .

(٢٨)

المسلمون في مسجد رسول الله ﷺ — التفتوا حول جعفر بن أبي
طالب وعمرو بن العاص يصعرون إلى ما كان بين الرجلين عند الحاشي ،
وكان عمرو يروي طرفا من الحديث وقد رقت على شفتيه بسمه هارقة
من أقواله وأفعاله ، فإنه كان يحسب في ذلك الوقت أنه يستطيع بدهائه
أن يظفيء نور الله وما دار تحلده أن الله ناصر ديه ، فلما أشرق قلبه
بالأنوار أصبحت نفسه تنقاصر كلما تذكر ما كان ، وحمد الله أن
الإسلام يجب ما قبله .

قال عمرو بن العاص :

— لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار .
وهاجر رسول الله ﷺ — إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ،
اجتمعوا في دار الندوة وقت : « إن لنا في أصحاب محمد الذين عند
الحاشي ثأرا عمن قتل منا بدر ، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى الحاشي لعله
يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلا من دوى
الرأي » .

فبعثوا وعمارة بن أبي معيط مع الهدايا والأدم وغيره ، فركبا البحر
وأتيما الحبشة . فلما دخلوا على الحاشي سجدوا له وسلموا عليه وقتا .

« من قوما لك باصحوح شاكرون ، ولصلاحتك محبون ، وبهم بعثونا إليك لحذررك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك ، وكنا قد صيغما عبيهم الأمر وألحناهم إلى شعب بأرضا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد قد قتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيته ، فاحذرهم وادفعهم إلينا لكفيكمهم ، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحبونك بالتحية التي يحببها الناس رعية عن دينك وستك » .

وشرد المسلمون يتذكرون أيام الشدة ، أي أن داق المهاجرون ألوان الاضطهاد وحسوا في شعب أي طالب . وارتجف سعد بن أبي وقاص في مجلسه ، به تذكر ذلك اليوم الذي استبد به الجوع حتى إنه وحدثنا طريا على الأرض فابتلعه وهو لا يدرى حتى الآن ما كان ، إن حديث عمرو ليعيد إلى ذاكرتهم أيام الكفاح يوم كانوا عزلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان . بهم عذبوا مما لم يعد به أحد واصطهدوا في الله وصبروا وصبروا فصبرهم الله ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتذكر الربير بن العوام عمته حديجة ، إن الطاهرة سيدة نساء قريش قد تنوت من الجوع ، ولولا رقة قلب حكيم بن حزام على عمته لمات المسلمون جوعا في شعب أي طالب ، فحكيم كان يحمل البعير بالأقوات ويأتي بها إلى باب الشعب ثم يطلقها إلى المحصورين الخائفين ، وراح الربير يعجب من أمر حكيم فإن مثله لا يحفل بالإسلام ، وقد كان يحس أن حكيم بن حزام سيأتي إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مهاجرا ليعلى إسلامه قبل أن يأتي ابن العاص طائعا يعلى على الملأ الإيمان

والتسليم

وراح عمرو يروى قصته قال . « فدعاهم الجاشي فلما حصروا صاحب جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله . فقال الجاشي : مروا هذا الصائح فبعد كلامه . فقال جعفر : يستأذن عليك حزب الله . قال الجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله ودمته . فنظرت إلى صاحبي فقلت : ألا تسمع كيف يوطون بحرب الله وما أحاسهم الجاشي ؟ ! فسأما ذلك ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له ، فقلت ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟

والتقط جعفر بن أبي ظالم طرف الحديث فقال :

— قال لنا الجاشي : ما يمنعكم أن تسجدوا لي وتحيوني بالتحية التي يحییي بها من أتاني من الآفاق ؟ قلنا : يسجد لله الذي خلقك وملكك ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن بعد الأوثان فبعث الله فيما بينا صادقا وأمرنا بالتحية التي بعثنا^(١) الله لنا ، وهي السلام تحية أهل الحق .

واشالت الذكريات على رأس عثمان بن عفان ، إنه كان هناك وكانت معه رقية بنت رسول الله ﷺ . إن الجاشي قد أكرمهما ولكن رجاء اللام قد أدوه بالطر إلى رقية فقد كانت رحمها الله رائحة الحسن تحطف الأبصار .

واسمر جعفر في الحديث قال : قال الجاشي أيكم المهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قلت أد قال فتكلم ، قلت إنك منك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا لطم ، وأنا أحب أن أحيي عن أصحابي فمر هذين الرجلين فبينتكم أحدهما

(١) بعثنا الله : وصمها لنا ووضحها .

وليسكت الآخر فتسمع محاورتنا فقال لي عمرو تكلم فقلت
 لسحاشي سل هذا الرجل أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أبقا من
 أربابنا فارددنا إليهم . فقال السحاشي أعبيد هم أم أحرار ؟ فقال عمرو بل
 أحرار كرام . فقال السحاشي حرجتم من العبودية . قلت سلهما هل
 أهرقا دما بغير حق فيقتص ما ؟ فقال عمرو لا ولا قطرة . قلت سلهما
 هل أحدا أموال الناس بغير حق فعليا قصاؤها ؟ قال السحاشي يا عمرو
 إن كان قطارا فعلى قصاؤه . فقال عمرو لا ولا قيراط . قال السحاشي فما
 تطلبون منهم ؟ قال عمرو كما وهم على دين واحد وأمر واحد على دين
 آثما ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولرما نحن ، فبعث إليك قومهم
 لتدفعهم إلينا . فقال السحاشي ما هذا الدين الذي كنتم عليه والدين الذي
 اتبعتموه ؟ أصدقني . قلت أما الذي كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان
 وأمره . كنا نكفر بالله عز وجل وبعيد الحجارة وأما الذي تحولنا إليه
 فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم
 موافقا له . فقال السحاشي يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى
 رسلك^(١) .

ثم أمر السحاشي فصر ببالقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ،
 فيما اجتمعوا عنده قال السحاشي : أشدكم الله الذي أرسل الإنجيل على
 عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامه سببا مرسلا ؟ فقالوا : اللهم
 نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن لي ومن كفر به فقد كفر
 لي . فقال لي السحاشي : ماذا يقول لكم هذا الرجل ويأمركم به وما يهاكم

عنه ؟ قلت : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف ويهيى عن المنكر
ويأمر بحسن الخوار وصلة الرحم وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده
لا شريك له . فقال : اقرأ علينا شيئاً مما كان يقرأ عليهم . فقرأت عليهم
سورة العنكبوت والروم ففاصت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع
وقالوا : يا جعفر ردا من هذا الحديث الطيب . فقرأت عليهم سورة
الكهف . فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى
وأمه ، فقال النجاشي : ما يقولون في عيسى وأمه ؟ فقرأت عليهم سورة
مريم ، فلما أثبت على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي بقية من سواك قدر
ما يفذى العين وقال : والله ما راد المسيح على ما تقولون هذا . ثم أقبل
عنى وعلى أصحابي فقال . اذهبوا فأنتم سيوم^(١) في أرضي آمنون ، من
سيكم أو آذاكم غرم .

ثم قال : أبشروا ولا تخافوا ، ولا دهوره اليوم على حرب إبراهيم .
قالوا . يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط^(٢) وصاحبهم
الذى جاءوا من عنده ومن اتبعهم .
وقال عمرو .

— ثم رد النجاشي علينا المال الذى حملناه وقال إنما هديتكم إلى رشوة
فاقبصوها ، فإن الله ملكنى ولم يأخذ منى رشوة .
وقال جعفر :

— وابصرفنا فك في خير دار وأكرم جوار .

(١) السائمة : الإبل الراحية ويقصد أنهم هائون ناعمون

(٢) الرهط . ما دون العشرة من الرجال ليست بهم امرأة

واستمر عمرو بن العاص يروى ما كان بينه وبين الجاشي في ريارته
التالية قال :

— لما انصرفنا مع الأحراب عن الخندق جمعت رجالا من قريش
كاتبوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر
محمد يعلو الأمور علواً مبكراً وأنى قد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا :
وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالجاشي فنكون عنده فإن ظهر
محمد على قومنا كما عند الجاشي فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من
أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فمحس من قد عرفوا فلن يأتيها
منهم إلا خير .

قالوا : إن هذا الرأي قلت : فاجمعوا لنا ما هديه له وكان أحب ما
يهدي إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدماً كثيراً ثم حرقنا حتى قدما
عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الصمري وكان رسول الله —
ﷺ — قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من
عنده فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الصمري لو قد دخلت على
الجاشي وسألته إياه فأعطانيه نصرت عمقه ، فإذا فعلت ذلك رأيت
قريش أنى قد أجرات عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقى
أهديت إلى من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أمها الملك قد أهديت إليك أدماً
كثيراً ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه . ثم قلت له : أيها الملك إني قد
رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطيه لأقتله
فإيه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفى

ضربة طست أنه قد كسره ، فلو اشقت لى الأرض لدحت فيها فرقا^(١) مه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو طست أنك تكره هذا ما سأنتكه . قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس^(٢) الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : وبحك يا عمرو أطعني وابعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما طهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه وكنمت أصحابي إسلامي .

كان عمرو بن العاص ذاهية من دهاة العرب فاستطاع أن يندمخ في المجتمع المدني سريعا وأن يعيد الصلوات القديمة بينه وبين المهاجرين الأوائل . أما خالد بن الوليد فقد كان يحس أنه حارب الإسلام وهو ظالم لأهله وكثيرا ما كانت تشب مشادات بينه وبين صحابة الرسول عليه السلام حتى إن عبد الرحمن بن عوف اشتكى خالد بن الوليد لسي — ^{عليه السلام} فقال :

— يا خالد لم تؤدى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله .

فقال خالد :

— يا رسول الله بقعون في فأرد عليهم .

فقال عليه السلام لأصحابه :

(١) العرق : الخنوق والفرع

(٢) الناموس ، ملك الوحي : جبريل عليه السلام .

— لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله .

وحزعت قريش لإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة
الذي كان عنده مضاجع البيت العتيق ، فقال شاعرهم ابن الزهري
السهمي :

وأشد عثمان بن طلحة حلفنا	وملقى نعال القوم عند المصيل ^(١)
وما عقد الآباء من كل حلفة	وما خالد من مثلها بمحلل
أفتتاح بيت غير بيتك تتغنى	وما يتغنى من مجد بيت مؤثّل ^(٢)
فلا تأنس خالدا بعد هذه	وعثمان حاء بالدهيم المعضل ^(٣)

(٢٩)

بعث رسول الله — ﷺ — عبد الله بن رواحة إلى أهل حبر
حارصا^(٤) بين المسلمين ويهود فيحرص عليهم ، فقد دفع — ﷺ —
لأهل خيبر الأرض لما قالوا له :
— نحن أعلم بها منكم .
وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو ررع ، وحرصها ابن رواحة
أربعين ألف وسق فقالت يهود :
— تعديت علينا

(١) يريد بالمقبل : موضع تقبيل الحجر الأسود .

(٢) المؤثّل : القديم .

(٣) الدهيم : الداهية

(٤) حارصا : حاررا ومقدرا .

وأرادوا أن يرشوه فقال :

— يا أعداء الله تصعمون في السحب ^(١) ؟ والله لقد حثكم من عند
أحب الناس إليّ ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير ، ولا يحسبني
بغضى إياكم وحى إياه على ألا أعدل
وقسم ما خرج من أرض حير شطرين وحيرهما في أن يختاروا أى
الشطرين قال :

— ان شئتم فلکم وإن شئتم فلنا .

فقالت يهود :

— بهذا قامت السماوات والأرض .

كان عبد الله بن رواحة من النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا رسول الله
— ﷺ — في بيعة النخلة ، وقد قال فيه كعب بن مالك لما ذكر انقباء .

وأبضا فلا يعطيكه ابن رواحة وإحماره ^(٢) من دونه السم نافع

وقد شهد بدرا وأحدا والخندق ومشاهد رسول الله — ﷺ — . إبه

اعترض ناقة رسول الله — ﷺ — يوم أن خرج عليه السلام من ماء إلى

المدينة لما مرت بدار بني الحارث بن الخزرج وقال :

— يا رسول الله هلم إينا ، إلى العدد والعدة والمنعة

كان ابن رواحة ورجال بني الحارث يقولون أن يرون رسول الله عليه

السلام فيهم ، ولكنه عليه السلام قال لهم :

— حلوا سبلها فإنها مأمرة

(١) السحب : كل مال حرام لا يحل كسبه

(٢) الإحمار : إعطى والحماية .

ويوم بدر حرج عنة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابيه الوليد حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المارزة فحرج إليه فتة من الأنصار ثلاثة هم . عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عمراء وعدا الله بن رواحة . كان من أوائل من برروا للقتال في ذلك اليوم المشهود ولكن رجال قريش قالوا من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى منادهم : يا محمد أخرج إلينا أكفأنا .

ولما تم النصر للمسلمين يوم بدر بعث رسول الله — ﷺ — عبد الفتاح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية عما فتح الله عز وجل على رسول الله — ﷺ — وعلى المسلمين ، وبعث ريد بن حارثة إلى أهل السافلة فراح الرجال يذكران قتل من قتل من أشركين فقال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طييء ثم أحد بنى سهاك وكانت أمه من بني الصير حين بلغه الخبر : — أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجال فهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم فطلى الأرض حير من طهرها .

فراح عبد الله بن رواحة يؤكد مقتل أشرف العرب وملوك الناس وهو يود لو يموت عدو الله كعب بن الأشرف كمدا .

وكان عبد الله بن رواحة فيمن حفروا الخندق ، فلما حمل حبي بن أحطب كعب بن أسد القرطبي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم على بقص عهده لرسول الله — ﷺ — وانتهى إلى رسول الله عليه السلام الخبر وإن المسلمين ، وبعث رسول الله — ﷺ — سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وحوات ابن حير قال :

— انطلقوا حتى تطروا أحق ما ينصا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن
كان حقا فاحضوا إلى لحنأ أعرفه ولا تعتوا في أعصاد الناس ، وإن كانوا على
الوفاء فيما بينا وبينهم فاجهرو به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أحدث ما يلعمهم عهم فيما بالوا
رسول الله ﷺ — وقالوا :

— من رسول الله ؟ لا عهد بينا وبين محمد ولا عقد .

ثم أقبل السعدان وعبد الله بن رواحة وحواب إلى رسول الله
ﷺ — فسلموا عليه ، ثم قالوا :

— عصبل والقارة .

أي كعدر عصبل والقارة بأصحاب لرحيم حبيب وأصحابه ، فقال
رسول الله ﷺ —

— الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وكان حسان بن ثابت حاض في حديث الإفك وهجا صفوان فصر به
صفوان بالسيف ثم قال :

تلق دباب^(١) السيف عني فإنني علام إذا هوحيت لست بشاعر
هوئب ثابت بن هيس بن الشماس على صفوان حين صرب حسان
فجمع يديه إلى عنقه محل ثم انطق به إلى دار بني الحارث بن الحارح ،
فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعحك صرب حسان بالسيف ! والله ما أراه إلا قتبه

(١) دباب السيف : طرفه

قال له عبد الله بن رواحة :

— هل علم رسول الله ﷺ — بشيء مما صنعت ؟
— لا والله .

— لقد اجترأت . أطلق الرجل .

فأطلقه ثم أتوا رسول الله ﷺ — فذكروا ذلك له ، فدعا حسان
وصفوان فقال صفوان بن المعطل :

— يا رسول الله آداني وهجائي فاحتملى الغضب فضرته .

فقال رسول الله ﷺ — لحسان :

— أحسن يا حسان ، أتشدت^(١) على قومي أن يهداهم الله
للإسلام ؟

ثم قال عليه السلام :

— أحسن يا حسان في الذي أصابك .

— هي لك يا رسول الله .

وافتح رسول الله ﷺ — حبير عبوة فحمسها عليه السلام

وقسمها بين المسلمين ، ونزل من برل من أهلها على الحلاء بعد القتال
فدعاهم رسول الله ﷺ — فقال :

— إن شئتم دهعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها

بيسا وبسكم ، وأقركم ما أقركم الله .

فقبضوا فبعث — عبد الله بن رواحة ليقسم ثمارها ، فأرادوا

أن يرشوه فغضب ابن رواحة غضبا شديدا فما حطر له على قلب أن يوما

(١) تشده : تعجب واندهش .

يدور بخلد هم أن يرشوه ، فهو من بقاء الأنصار من شهد بدرا والمواقع كلها ووهب حياته لله ولرسوله ولنصرة الإسلام . إنه لا يريد الدنيا بل يطمع فيما عند الله فما نال هؤلاء الدين عربهم الدنيا يحاولون أن يطعموه في السحت وأن يملأوا بطبه نارا ؟ إنه نائر على هؤلاء الذين يريدون حرث الدنيا قد كرههم من أعماق قلبه ، ولكن بعصه إياهم لا يحمله على ألا يعدل فهو لا يريد في كل أعماله إلا وجه الله والله تعالى يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

(٣٠)

حزن المسلمون لما هزمت الفرس الروم لأن الفرس كانوا وثنيين مثل قريش والروم كانوا أهل كتاب مثل المسيحيين وبرز قرآن يؤكد أن الروم سيهزمون الفرس في يصع مسين الله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ببصر الله يصبر من يشاء وهو العزيز الرحيم .
وتحقق وعد الله وهزمت الروم الفرس ، وحاءت أساء ذلك الانتصار يوم أن فتح الله على المسلمين في بدر وفرح المؤمنون ببصر الله وليصبرن الله من يصبره إن الله نقوى عزيز . فلما استقرت الأمور في المدينة بعد صلح الحديبية بعث عليه السلام كتبا إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى

الإسلام فكان رد هرقل ملك الروم رقيقاً وإن لم يؤمن بالدين الحديد ،
 فرأى صدوات الله وسلامه عليه — أن يستمر الخلل موصولاً بين المسلمين
 والروم لعل الله يشرح صدورهم للإسلام . فبعث عليه السلام في حمادى
 الأولى ستة ثمان من المحقرة الحارث بن عمير الأردى إلى ملك بصرى
 يكتب ، فلما برل مؤنة تعرض به شرحبيل بن عمرو العسافى وهو من
 أمراء قيصر على الشام فقال له :

— أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد .

— نعم .

فأوثقه ربطاً ثم قدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ رسول الله ﷺ —
 ذلك اشتد الأمر عليه فم يقاتل لرسول الله عليه السلام رسول من قبل
 وكان قتل الحارث بمثابة إعلان الحرب من قبل الروم على المسلمين ، فلما
 اتصحت نيات الروم وبدت العدوة وبدعوا بالعدوان كان على رسول الله
 — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحرك وأن يرسل جيوشه إلى الشام
 قبل أن يجمع الروم جموعهم ويسيروا إلى المدينة ليفصوا على الإسلام
 وجهر عليه السلام جمعاً من أصحابه عدتهم ثلاثة آلاف وأمر عبيد
 زيد بن حارثة وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب
 جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس . وإن أصيب ابن رواحة فليترضى
 المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وعقد عليه السلام لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة وأوصاهم أن
 يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا
 وإلا استعانوا بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

— صاحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله ﷺ — مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال :

— أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين حيرا .

اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، واستحلون فيها رجالا في الصوامع معتزلين فلا تعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء .

وخرج جيش المسلمين فثار النقع وارتفع وقع حوافر الخيل على الأرض وأصرات أهل المدينة ترتفع بالوداع والدعاء .
— دفع الله عنكم وردكم عائمين .

فمضوا وفي الخيل خالد بن الوليد فارس قریش المطهر في كل موقعة ، ولم يكن إلا جديا من جود الإسلام خرج ليعلى كلمة الحق مع إخوانه الخارجين . إنه لأول مرة يخرج مطمئن العواد بعد أن هداه الله إلى الطريق ، فلم يعد يحفل أن يكون على رأس الجيش أو يكون في الذيل فإن ما يملأ قلبه رصا أنه في حاسب الحق وفي سبيل الله ، يستشعر في أعماقه أنه مع الله وأن الله معه .

ونزل المسلمون بأرض الشام فلعمهم أن هرقل إمبراطور الروم قاهر العرس في مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من قبائل العرب المنتصرة من بى بكر ولخم وجذام خمسون ألفا ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، فراحوا يتشاورون ليلتين هل يبعثون لرسول الله ﷺ — يخبرونه بعدد عدوهم فيما أن يمددهم برجال أو يأمرهم بأمر

فيمضوا إليه ، فنسجعههم عند الله بن رواحة على حوص غمار المعركة وقال لهم :

— يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى حرّحتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإما هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة .

فسرت حماسته إلى صدور القوم فقال الناس :
— صدق والله ابن رواحة .

فمضوا ليقاتل فقيهم هرقل بن سموع الروم والعرب ، فاحار المسلمون إلى مؤنة فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا فقاتل يزيد بن حارثة ومعه راية رسول الله ﷺ ، إنه يصول ويحول كليث كشر عن أيابه . وانطلق فرسان الروم إلى صاحب الراية ويزيد بن حارثة يدافع عنها دفاع الأبطال ويكر تكبيرة ترزّل قلوب الأعداء ، وتكاثّر عليه الرجال فحلصت إليه الحراخ وهو ثابت كالطود يرى صورة حبيبه رسول الله ﷺ — تملأ ما بين السماء والأرض فلا يزيده ذلك إلا عزمًا وتصميماً على النصر . وصويت إليه السهام وارتفع سيف وهوى على عاتقه فترخ ثم سقط على الأرض يحود بأنفاسه ، وصوت رسول الله عليه السلام يسرى إلى أذنيه كالسيم :

— إن أصيب زيد فعجفر بن أبى طالب على الدس .

وفتح عيبر واهتنس ويظفر فرأى جعفر بن أبى طالب قد أخذ الراية وهو يقاتل على فرسه ، فلمظ النفس الأخير وهو قرير العين فقد قيل له — لما قال عليه السلام إن أصيب زيد فعجفر بن أبى طالب على الناس —

اعهد يا زيد لمن ترجع لمحمد أبدا إن كان نبيا ، وهو يقول : أشهد أنه نبي .

وراح جعفر بن أبي طالب يقاتل على فرس أشقر وفد التف حوله صناديد الروم ، الدروع تغطي الصدور والخوذات تتألق في الشمس والصراع مرير والقوتان غير متكافئتين ، فمقابل المسلم عشرات من الرومان ومنصرة العرب ، وأحسن جعفر أنه مقتول فرل عن فرسه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين — وكان أول فرس عقر في سبيل الله ، وأحد يصرب بسيفه وهو يقول .

يا حدا الحنة واقتسراها طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دس عذابها كافرة بعسدة أسابها
على إن لاقيتها صرابها

كان جعفر في التاسعة والثلاثين من عمره مهيبا فحما يهجم على أعدائه كأنه سبع يذود عن عريه يصرب بسيفه حتى ينشئ في يده ، وكان اللواء في يمينه فإذا بصربة سيف أطاحت بدراعه ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعصديه فإذا بصربة بالسيف تسدد إليه فيسقط على الأرض يجود بأنفاسه .

ولعب خالد بن الوليد بسيفه ، كان يصرب بقوة فيطيح بالرعوس ، ودارت رحى معركة رهبة يشيب من هوها الوليد فإذا بالدماء تروى أرض مؤنة ، وإذا بجثث الروم والعرب تملأ الفضاء ، وإذا بالداءات تختلط بالآفات ، وراحت الشمس تفوص في الأفق العربي والقتال دوار لا هوادة فيه ولا رحمة .

وأحد عند الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل

يستزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزله لتزلن أو لتكرهه
 إن أحلب الناس وشدوا الرنة^(١) ما لي أراك تكهرين الحجة
 قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أتت إلا نطفة في شئة^(٢)
 وأراد أن ينزل عن فرسه ليحوض في صفوف الأعداء فإذا بخوف
 يكتفه ، وتذكر موت صاحبيه زيد وجمهر . إلهما استشهدا وحادا
 بروحيهما مستشريين متفرحين في الله ، فراح يلوم نفسه :
 يا نفس إلا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت^(٣)
 وما تميت فقد أعطيت إن تصلي فعلهما هديت
 واندفع كالعاصفة في صفوف الأعداء وهو يحمل لواء رسول الله —
 ﷺ ، واستمر يتقدم لا يلوى على شيء يصرب بسيفه أعناق الروم ومن
 حوله صناديد المسلمين يكبرون ويطعون الأعداء طعنا قاتلة فوق
 الدروع ويلقون الهامات .

وأق عبد الله بن عمر جمهر بن أبي طالب وهو مستلق آخر النهار
 معرض عليه الماء فقال :

— إلى صائم فضعه على ترسي عند رأسي ، فإن عشت حتى تعرب
 الشمس أظرت .

فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا مدلا للدينا بإدباره عبا .

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع مثل البكاء .

(٢) الشئة : قطعة من الخلد البالي .

(٣) صليت : صلي داق . صلي بالار : وجد حرها .

معزاً للآخرة بإقباله عليها .

وبال تعب من الرجال فما حيم الظلام حتى اسحب الخيشان كل إلى معسكره يضمده جراحه .

وتمدد عبد الله بن رواحة ليسترخ ، وأسل عييه فإذا به يرى بعين خياله ذلك اليوم الذي ودع فيه أمراء رسول الله — ﷺ ، إنه بكى في ذلك اليوم فقالوا له :

— ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما بي حب الدنيا ولا صباة بكم ، ولكي سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْصِيًا ﴾ ^(١) . فلت أدري كيف لي بالصدر ^(٢) بعد الورود .

ورن في ضميره أصوات المسلمين :

— صحبكم الله ودمع عكم وردكم إليها صالحين .

وسمع صوت ذاته يهمس في أغواره بالشعر الذي أشده :

لكنني أسأل الرحمن مغفرة

وضربة دت فرغ ^(٣) تقذف الرينا

أو طعة يدي حراة محهرة بحربة تنفذ الأحشاء والكبد
حتى يقال إذا مروا على جدتي أرشده الله من عازٍ وقد رشدا
إنه حرح وهو يسمى الاستشهاد مما باله قد تردد لما الت إليه راية

(١) مريم ٧١ . (٢) الصدر : الرجوع من مورد الماء .

(٣) ذات فرع : ذات تسعة ، والزيد هنا رعوة الدم .

رسول الله — ﷺ — ؟ إنه حاق على نفسه لا يفتأ يلومها حتى وهو يلتقط أنفاسه من التعب . إنه بات وهو واثق من القتل وأنه سيلحق بصاحبيه ريد وجعفر فلم ترتعد فرائضه ولم يرتحف حشية الموت بل أحس حيناً إلى رسول الله — ﷺ — فراح يرى بداكرته رسول الله عليه السلام وهو يودعه ، فارتفع صوته بهند في رقة وقد بدت لدموع عيبيه . أتت الرسول فمن يحرم نوافله (١) والرحمة منه فقد أررى به القدر فثبت الله ما آتاك من حسن في لمسلين وبصراً كالدي بصروا إلى تمسرت فيك الخير نافلة فرامة خالفت فيك الدي بطروا واحللت فكرة صورة رسول الله عليه السلام لما ودعهم وانصرف عنهم والشعر الذي قاله :

خلف السلام على أمرى ودعته في الحل خير مشيع وحليل
وعادت إلى رأسه مشاهد الرحلة كلها ؛ إنه أردف ريدس أرقم على
رحله وكان ريد يتيماً في حجره ، فأشد المسلمون في طريقهم إلى
النقاء :

إذا أدبسى وحملت رحلى	مسيرة أربع بعد الحساء
فشانك أنعم وخسلاك دم	ولا أرجع إلى أهلى ورانى
وحاء المسلمون وغادرونى	بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب	إلى الرحر مقطوع الإحساء
هالك لا أبالى طلع بعل	ولا نخل أسافلهم رواء

(١) نوافله : عطاياه

فلما سمع ريد بن الأرقم هذه الآيات بكى ، فحفقه بالدرة وقال :
— ما عليك يا كع^(١) أن يرزقني الله الشهادة وترجع بين شعيتي
الرحل ؟

ومد عييه في ظلام الليل يبحث عن ريد بن أرقم فألقاه يضمده
حراجه ، فاستمر يرنو إليه في حب فإذا بذكريات عزوة بى لمصطلق
تشال على رأسه ، إن أجبر عمر بن الخطاب يزدحم على الماء وحييف بى
عوف بن الخزرج ، فاقتلا فصرح حييف بنى عوف يا معشر الأنصار ،
وصرح أجبر عمر يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبي بن سنان
وعنده رهط من قومه فيهم ريد بن أرقم غلام حدث فقال :

— أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا
وجلايب فريش إلا كما قال الأول سمى كسك يا كلك ! أما والله لنرى
رحمنا إلى المدينة ليخرجن الأعر منها الأذل .

ثم أقبل على من حصره من قومه فقال لهم :

— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم
أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .
فسمع ذلك ريد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره
الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال :

— مر به عباد بن بشر فيقتله .

— فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن
أدن بالرحيل .

(١) يا لكع : يا لئيم ، والمقصود مجرد الردع

وبع عبد الله بن أبي بن سلول أن ريد بن أرقم قد بلغ رسول الله عليه السلام ما سمع منه ، فمضى عبد الله إلى الرسول عليه السلام ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، فقال من حضر رسول الله ﷺ — من الأنصار من أصحابه .

— يا رسول الله عسى أن يكون العلامة قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل

كان يمر من الأنصار يتحدثون على ابن أبي بن سلول ويدفعون عنه ولكن ابن ربيعة لم يحب نفاقه ؛ كان على ثقة من أن ريد بن أرقم لم يكذب في حديثه فقد شأ في حشره وما حرب عبيه كدنا قط ، وكان يرحو كما كان ريد يرحو أم يرى الله قرآنا يوضح فيه نفاق ابن أبي بن سلول ، وقد نزل القرآن المحيد مصدقا لريد : ﴿ إدا جاءك المنافقون قلوا شهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون • اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله لهم سوء ما كانوا يعملون • ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون • وإذا رأيتهم تتحدث أحسانهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسدة يحسون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون • وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوووا رعوهم ورأيتهم يصدون وهم مسكرون • سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستعمر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين • هم الذين يقولون لا تعفوا على من عبد رسول الله حتى يفيضوا والله حرّائ السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون • يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليحرجن الأعمر منها الأدل والله العرة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون ﴿١﴾ .

ورفت بسمه على شفتى ابن رواحة فهو يرى ببصيرته رسول الله عليه السلام يأخذ بأذن ريد بن أرفم ثم يقول :
— هذا الذى أوى لله بأذنه .

وهوم وطاف به الكرى ولكنه راح يقاوم النوم ، إنه يحس أن منيته قد دست وأنه على أبواب الاستشهاد فود أن يعيش ما بقى من حياته مع الدكريات ، فأطلق حصيه لتمر المشاهد فى رأسه نابضة حية تثير فيه الانفعال . إنه يرى جيش المسلمين يخرج من المدينة بقيادة ريد بن حارثة تموح فى صدور رحاله الآمال . كانوا متفرحين فى الله فهذه أول مرة يصلقون فيها إلى الشام للعرو عوضا عن التحارة ، لسأديب شرحبيل أمير العساسمة على ما ائترف فى حق رسول نبي الإسلام عليه السلام وما دار بحدهم أنهم سيقابلون الروم . إنه يرى الجيش وقد بلع معان وإذا بالأساء تأتى إليهم أن الرومان بقيادة تيودور أحمى هرقل قد حرجوا إليهم ، إهم توقفوا عن السير وركلوا معان يتشاورون .

كان رأى زيد أنهم ما حرجوا إلا لتأديب شرحبيل بن عمرو العسافى لضربه عنق الحارث بن عمرو الأردى رسول نبي الإسلام عليه السلام ، وقال جعفر بن أبي طالب إن رسول الله — ﷺ — لم يعينهم لقتال الروم ، إنهم قد أقاموا على معان ليتبين يفكرون فى أمرهم وقالوا :

— نكتب إلى رسول الله — ﷺ — فنحرقه بعدد غدونا ، فإما يمدنا برجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

ورأى عبد الله بن راحة نفسه وهو يشجع الناس على القتال ، ورد
في عين داته الشعر الذي قاله :

جلينا الخيل من أحأ ومرع ^(١)	تعر من الحشيش ها العكوم ^(٢)
حدوناهم من الصوان ^(٣) سينا	أرل كأ أن صفحه أديم ^(٤)
أقامت ليلتين على معان	فأعقب بعد فترتها حموم ^(٥)
فرحنا والحباد مسومات ^(٦)	تمس في ماحرها السموم ^(٧)
فلا وأنى مآب لئائينا	وإن كانت مها عسرت وروم
معبأنا أعستها فجاءت	عسايس والعبار ها بريم ^(٨)
لدى لحب كأ أن البيص فيه	إذا بررت قوايسها ^(٩) النجوم
فراصية المعيشة طلقفتها	أستها فتكبح أو تميم ^(١٠)

ورد في أديه أمر ريد من الحارثة بالنقدم . إنه ليرى جيش المسلمين
يساب إلى اللقاء فإذا يحيش الروم هناك بقرية من قرى اللقاء يقال لها
مشارف ، وإذا بالعندو يدنو وإذا بالمسلمين يحارون إلى مؤتة على مائة
ميل جنوب بيت المقدس على البحر الميت .

-
- (١) أحأ : أحد جبل طيء ، والمرع : أطول جبل بأحأ
(٢) العكوم : جمع عكم وهو الحب (٣) الصوان : نوع من الحجارة
(٤) الأديم : الخلد (٥) حموم : اجتماع القوة والشاط بعد الراحة
(٦) مسومات : معلمات . (٧) السموم : ريح حارة
(٨) البريم : الدمع المختلط بالآمد .
(٩) القوس : أعلى الرأس
(١٠) تميم : تدمر أحاه ورد معه ويقصد الكثرة والريادة

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى سواحل البحر الميت الموحشة ، فأخذ المسلمون مصافهم وتحركت فيالق الروم . إنها تندفع في صفوف المسلمين الذين كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يستطع زيد أن يقف مكتوف اليدين وأمر بالهجوم ، فأبرل الرجال والفرسان خسائر فادحة في جيوش الرومان ، فلو أن هناك مسمير أكثر من الموجودين قليلا لاندحر الروم .

إن زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله ﷺ — حتى شاط (١) في رماح القوم ، وإن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء يمينه فقطعت فأحذه بشماله فقطعت فاحتصه بعصديه حتى قتل ، وقد أصبحت راية رسول الله ﷺ — في يده ، فعزم على أن يقاتل حتى يفتح الله عليه أو يموت دونها .

(٣٩)

لاح في الأفق الشرق نور الصباح فنهبا الحيشان للقتال : المسلمون على تعبثتهم قد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بني عذرة يقال له قطبة بن قتادة ، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عباد بن مالك . والروم في دروعهم وعلى رعوهم الخوذات وفي أيديهم أسلحة بتارة ولكن قلوبهم لم تكن عامرة بالإيمان ، فلما شب القتال استشرى القتل في الروم ونزل عبد الله بن رواحة يخصوص عمار القتال وفي يده راية رسول الله عليه

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك .

السلام وإلى حواره خالد بن الوليد يقطر رقاب ويصع سيعه حيث شاء ،
وثابت بن الأرقم يلعب بسيعه يدافع عن راية الإسلام .

ومضى الهار والعرق يتصبب من ابن رواحة وهو يقاتل دون أن
يسترجح أو يبال طعما ، فأتاه ابن عم له عرق من اللحم فقال .

— شد هذا صبيك فايت قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت .

فأخذه من يده ثم انتفض منه شهة ، ثم سمع الخطمة^(١) في ناحية
الناس فقال :

— وأنت في الدنيا !

ثم ألقى عرق اللحم من يده ثم أحد سيعه فتقدم بهز راية رسول الله —
صواب الله وسلامه عليه — هرا ويشجع الناس على الثبات ، فتكثر
عبيه الروم فهروه بأسيا فهم فقتنوه وسقطت راية رسول الله عليه السلام
من يده .

وأحتبط المسلمون بالروم ومنتصرة العرب ، وأراد بعض المسلمين
الاسهرام فجعل عقبة بن عامر يقول :

— يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا .

ورأى ثابت بن أرقم راية رسول الله — ﷺ — في يد عبد الله بن
رواحة وقد فاصت روحه فأخذ الراية وقال :

— يا معشر المسلمين اصطحبوا على رحل مككم

فقالوا :

— أنت .

— ما أنا بما عل .

(١) الخطمة : رحام الناس وحطم بعضهم بعضا .

ودفعها إلى خالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال مني .

فقال له خالد :

— أنت أحق به مني لأنك ممن شهد بدر .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد فكانت الدموع تطهر من مقلتيه من التأثير : إنها أول مرة يحمل فيها راية الإسلام بعد أن كان حرباً على المسلمين ، وحمل على الروم حملة شديدة فاندقت في يده تسعة أسياف وما نشت في يده إلا صحيفة بياض ، واستمر القتال رهيب حتى سحاً^(١) الليل فعاد كل من الجيشين إلى معسكره .

وم يركن خالد إلى الراحة بل إنه جعل مقدمة الجيش سافة وساقته مقدمة ويمينه ميسرة وميسرته ميمية ، فكانت حركة طوال الليل في عسكر المسلمين فضل الروم يحىء مدد للمسلمين فرعوا فالشرذمة القليلة من العرب قد أزلت بهم حسائر فادحة ، فمادى سيرلون بهم من حسائر بعد أن جاءهم المدد ؟ !

وأشرقت شمس اليوم السانع فاستؤنف القتال وشن المسلمون على الروم هجوماً شديداً تكسرت منه صفوفهم ، ولما كان الروم يرون في أية مخاطرة عسكرية حماقة وقد أفرغتهم كثرة القتل الذي برز بهم قرروا أن يسحبوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لصد هجومات المسلمين ، فثبتوا حتى أحر النهار ثم راحوا يتفقهرون في جميع الظلام إلى أماكن محصنة نقيم من صراوة قتل هؤلاء العرب الذين حملوا راصير أرواحهم على أكفهم

(١) سحى الليل : ستر بصلته .

والدين يستقبلون القتل مستبشرين لكأنما يرهون إلى الموت ليحطموا ذلك الحاجر الذي يقف حائلا بينهم وبين سعادتهم الأبدية .

ولم ير خالد حافرا على أن يقتفى أثر الروم فحيشه قد أهك وقد ثنت سبعة أيام لجيش يفوقه في العدد والعدة ، فعزم القائد الموفق على العودة ففعل راحعا بالمسلمين إلى المدينة وقد حمل جثمان جعفر وفيه تسعون جراحة بين صدره ومسكبيه ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح .

وأطلع الله تعالى رسوله — ﷺ — على استشهاد قواده فنادى في الناس :

— الصلاة جامعة .

فهرع المسلمون إلى المسجد ، ثم صعد المنبر وعيابه تدرعان وقال — أيها الناس . باب حير . باب حير . باب حير . أحر كم عن جيشكم هذا العارى أهدم انظفوا ، فبقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستمعروا له ، ثم أحد الزابية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستمعروا له .

ثم صمت رسول الله — ﷺ — حتى تغيرت وجوه الأنصار وطوا أنه قد كان في عهد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال :

— ثم أحدها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، فاستمعروا له ، ثم أحد اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فأب نصره .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار جعفر بن أبي طالب فألقى روحه أسماء بنت عميس قد انتهت من العجز ، فقال :

— انشئ سبي جعفر

فأنته عليه السلام بهم فشمهم ودرفت عباة حتى نقطت لحينه ،
فقال أسماء في خوف :

— يا رسول الله بأى أنت وأمى ما ييكيك ؟ أبلعك عن جعفر
وأصحابه شيء ؟

فقال عليه السلام في حزن :

— نعم ، أصيبوا هذا اليوم .

فقامت تصيح واجتمع عليها النساء ، وجعل رسول الله — ﷺ —
يقول لها :

— يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضرى خدا .

ودخل عليه السلام على فاطمة وهو واله حزين وهى تقول

— واعماه !

فقال عليه السلام :

— على جعفر فلتبك البواكى .

ثم قال :

— اصعروا لآل جعفر طعاما فقد شعلوا عن أنفسهم اليوم

وعمدت مسلمى مولاة النبی — ﷺ — إلى شعير فطاحتته ونسفته ثم

طاحتته وأدمته بریت وحملت عليه فلعللا ، وحملته إلى دار جعفر

وبلع حساان بن ثابت مقتل جعفر فراح يكيه :

ونقد بكيه وعمر مهلك جعفر حب البى على الرية كلها

ونقد جرعت وقلت حين بعيت لى من للجلاد لدى العقاب^(١) وطنها

(١) العقاب : طائر جارح ويصده هنا الرية .

بالبيض حين تسل من أعمادها ضربا وإيهال الرماح وعنها^(٢)
 بعد ابن فاطمة المبارك جعفر حير البرية كنها وأجلها
 رزعا ، وأكرمها جميعا محمدا^(٣) وأعرهسا متظلمسا وأدها
 للحق ، حين يوب غير تحل كديا ، وأنداه^(٤) يدا وأقلها
 محشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى^(٥) فصلا وأبدها ندى وأبدها
 بالعرف غير محمد لا مثله حي من أحياء البرية^(٦) كلها
 وحده رسول الله عليه السلام رجل فقال :

— يا رسول الله إن النساء عيس وهن .

كان موت جعفر فاحمة لسي هاشم ، فما إن عاد من الحشة وقبل أن
 يتمتعوا به بعث إلى مؤبة ليقتل فكادت عقول نسوة أن تهيش وكادوا
 أن ينطقوا كعرا ، فقال له عليه السلام :

— رجع إليهن فأسكنهن .

فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول وقال :

— هينن فلم يطعننى .

— اذهب فأسكنهن فإن أبين فاحت في أفواههن التراب .

وكانت عائشة تسمع ذلك الحوار فقالت في نفسها :

— أبعدك الله ! فوالله ما تركت نفسك وما أنت مطيع رسول الله

عليه السلام .

(١) الإيهال : الشرب الأول والعمل الشرب الثاني . يريد الطعن بعد الطعن .

(٢) المحمدا : الأصل (٣) أنداه : أكرمها

(٤) المجتدى : يطلب جوده (٥) البرية : الناس

وعرفت أنه لا يفدر على أن يحتنى^(١) في أهواهس التراب .
 وراح عليه السلام يفكر في جعفر وقد استند به الحزن ، ثم قال :
 — انهم قد قدم أحسن الثواب فأحله في دريته بأحسن ما حلفت
 أحدا من عبادك في ذريته .
 وأحد رسول الله — ﷺ — عبد الله بن جعفر وإخوته في بيته
 يدورون معه كلما صار في بيت إحدى سائته ، فلما انقضى ثلاثة رجعوا
 إلى بيتهم لتصمهم أسماء بنت عميس إلى قلبها المحروح .
 وانصرف خالد بالناس وكان قطبة بن قتادة العدري الذي كان على
 ميمنة المسلمين قد حمل على مالك بن رافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :
 طعنت ابن رافلة — الأرا — من برح مصى فيه ثم اعظم
 صريت على حيله صربية — فقال كما مال عصا اسلم^(٢)
 وسقا ساء بسى عمسه — عادة رقوقين سوق العسم^(٣)
 ولما دنوا من حول المدينة تفقاهم رسول الله — ﷺ — والمسلمون
 ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله — ﷺ — مقبل مع القوم على دابة
 فقال :

— حدوا الصبيان فاحملوهم وأعطوني ابن جعفر
 فأتى بعد الله فأحده فحمله بين يديه ، وكان رسول الله عليه السلام
 حريبا على قواده الذين أصيبوا إنه فرح يوم خير بقدم جعفر فرحا
 يعدل فرحه بفتح خير ، أما اليوم فقد فقد ريد بن حارثة مولاه الذي

(٢) السلم : نوع من الشجر

(١) يحتنى : يلقى .

(٣) رقوقين : اسم موضع

تساءل دات يوم والذي شرفه الله بأن أتزل اسمه في القرآن من فوق سبع سموات . وقد جعفر بن أبي طالب الذي كان أشبه الناس به خلقا وحلقا ، وقد عبد الله بن ربيعة أحد نقيب الخرج ومن شهد معه المشاهد كلها ، ولم يكن وحده الذي ينزل قلبه بالأسى فمما أكثر المخروبين ! على بن أبي طالب واله حزين على أخيه جعفر . وأسامة بن زيد تكذب كذبه أن تفطر على أبيه ، والأنصار يحسون أسى على فقد اس ربيعة شاعرهم الذي كان من أوائل الذين تابعوا رسول الله ﷺ — ببيعة العقبية .

وجعل الناس ينجون على الخيش التراب ويقولون .

— يا فرار ، فررت في سبيل الله !

فيقول رسول الله ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى

وراح الشعراء يكون أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله

ﷺ ، قال حسان بن ثابت

وهم إذا ما سوم الناس مسهر

سموحا وأسباب البكاء الذكر

وكم من كريم يئس ثم يصير

شعوب وخلفاء بعدهم يتأحر

مؤتة منهم ذو الجاهدين جعفر

جميعا وأسباب المنة تخطر

إلى الموت ميمون القية أرهم

تأوبى ليسل بيثرب أعسر

لذكرى حبيب هيجت لي عبرة

بلى ، إن فقدان الحبيب بنية

رأيت حيار المؤمنين تواردوا

فلا يعبدن الله قتلى تابعوا

وريد وعبد الله حين تابعوا

عددا مصوا بالمؤمنين يقودهم

أمر كصوء البدر من آل هاشم
فطاعنى حتى صال غير مؤبد
فصر مع المستشهدىس ثوابه
وكنا نرى فى جعفر من محمد
فما زال فى الإسلام والناس حوظم
هم جيل الإسلام والناس حوظم
بهايل^(٤) منهم جعفر وابى أمه
وحرة والعباس منهم ومنهم
بهم نمرج اللأواء^(٥) فى كل مأرق

أبسى إذا صبح الظلامه بصر^(١)
معترك هيمه قبا متكسر
حان وملثف الحدائق أخضر
وفاء وأمرأ حارما حين يأمر
دعائم عمر لا يرلس ومفخر
رصام^(٢) إلى طود^(٣) يروق ويقهر
عن ومنهم أحمد التـــــــــــــــــــــــــــــــــحير
عقيل وماء العود من حيث يحصر
عباس^(٦) إذا ما صاق بالناس مصدر

وقعد أناس من الجيش فى بيوتهم فما يخرجون ، وقد قطعت أم سلمة
أم المؤمنين إلى عياب سلمة بن هشام بن العاص عن مسجده برسول
فقالته لامراته :

— ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله — ^{صلى الله عليه وسلم} — ومع
المسلمين ؟

قالت والأسى فى نبرات صوتها :

— ما يستطيع أن يخرج ، كلما حرج صاح به الناس يا فرار فررتم

(١) الجسر : المقدم الحسور

(٢) الرصام : الحجرة يتراكم بعضها فوق بعض .

(٣) الطود : الجبل .

(٤) البهايل : جمع مفرده بهلول وهو السيد العظيم

(٥) اللأواء : الشدة .

(٦) عباس : المطمئئ يريد ظلامه من كثرة القبح المنار وقت الخمر

في سبيل الله ! حتى قعد في بيته فما يخرج .
وراح قيس بن المسهر اليعمرى يعتذر مما صنع يوم مؤنة وصنع
الناس :

موا الله لا تمك بمسى تلومى عى موقى والخيلى فابعة قبل
وقعت بها لا مسجرا فاعدا ولا مانعا من كان حم له القتل
على أنى آسيت بمى خالد ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من عو جعفر مؤنة إدا لا يفع الببل الببل
وصم إليها حجزتهم^(١) كليهما مهاجرة لا مشركون ولا عرل

(٣٢)

كان السى — صلى الله عليه وسلم — إدا حطب قام وطال القيام فكان يشق عليه
قيامه، وثق بحدغ نخلة فحمر له وأقيم إلى جسده قائما للسى — صلى الله عليه وسلم ،
فكان السى عليه اسلام إدا حطب فطار القيام عليه استند فانكأ عليه ،
وكان تميم الدارى يرى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يشتد عليه وجع كان يجده
في فخذه فقال له تميم :

— يا رسول الله ألا أصنع لك مبرا تقوم عليه فإنه هون عليك إدا
فمت وإذا قعدت ؟

— وكيف المنبر ؟

— أن يا رسول الله أصنعه لك .

فحرج إلى العابة فقطع منها حشبات من أثل^(٢) فعمل له درجتين غير

(١) حجة الإزار

(٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

لمقعد ، فتحول رسول الله ﷺ — عن الخشبة التي كان يستند إليها إذا خطب .

وحاء الناس إلى المسجد يطرون إلى المبر ويصلون حنف النبي عليه السلام ، ودخل ثابت بن قيس المسجد وأراد أن يجلس فلم يفسح له رحل ممن كانوا ينتظرون الصلاة . فقال له في رايه :

— يا بن فلانة .

فقال رسول الله ﷺ :

— من الداكر فلانة ؟

فقام ثابت فقال :

— أنا يا رسول الله .

— انظر في وجه القوم .

مظفر فقال :

— ما رأيت يا ثابت ؟

رأيت أبيض وأحمر وأسود .

— فإنك لا تفصلهم إلا في الدين والتقوى .

فأمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وكان ثابت بن قيس في أده وقر ، وكان جمهوري الصوت ، وكان إذا كلم إنسانا جهر صوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ —

فتأدى صوته ، فأمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
صَوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ
أَنْ تَحْطُ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَمْصُونُ أَسْوَأَ مَا
رَسُلَ اللَّهُ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِيَتَّقُوا لَهُمْ مَعْرَةً وَأُجْرَ
عَظِيمٍ ۝ (١) ۚ

فَأَلَى بُؤِ بَكْرٍ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَكْلِمَ رَسُولَ اللَّهِ — ﷺ — إِلَّا كَأَخِي
لِسَرَارٍ .

وَقَدْ وَفَدَ سَيِّدُ نَجْمٍ عَلَى النَّبِيِّ — ﷺ — فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ ، فَادَّاءُ السَّيِّ
— ﷺ — مِنْ وَرَاءِ الْحِجَرَاتِ :

— يَا مُحَمَّدُ . يَا مُحَمَّدُ . يَا مُحَمَّدُ احْرَجِ إِلَيْهَا ، فَإِنَّ مَدْحَنَا رَيْنَ وَإِنْ
دَمْنَا شَيْنَ .

فَسَمِعَهُمُ السَّيِّ — ﷺ — فَحَرَجَ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَقُولُ .

— إِمَّا ذَلِكَمُ اللَّهُ الَّذِي مَدَحَهُ رَيْنَ وَدَمُهُ شَيْنَ

وَكَانَ فِيهِمُ الْأَفْرَعُ بْنُ حَاسٍ وَعَيْنَةُ بْنُ حَصٍّ وَالرَّبْرَقَانُ بْنُ بَدْرِ
وَقَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ أَوَّلُ مَنْ وَأَدَّى الْعَرَبُ فَقَالُوا :

— بَحْسُ بَاسٍ مِنْ سَيِّ تَقِيمُ حُنَّاءُ بِشَاعِرِنَا وَحَطِييْنَا بِشَاعِرِكَ وَنَعَا حَرَكُ .

— مَا بِالْشُعْرِ بَعَثَتْ وَلَا بِالْمَحَارِ أُمِرْتُ وَلَكِنْ هَاتُوا .

فَقَالَ الرَّبْرَقَانُ بْنُ بَدْرِ لِشَابِغٍ مِنْ شِيَابِهِمْ :

— قُمْ فَادْكُرْ فَصْلَكَ وَفَصْلَ قَوْمِكَ .

فَقَامَ فَقَالَ

— الحمد لله الذي جعلنا حير حقيقه وأتانا أمرا لا نفعل فيها ما نشاء ،
فحير من حير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا ، فمن أنكر
عينا قولنا فليأت بعول هو أحسن من قولنا ومعال هي حير من معالنا .
كان بنو تميم على دين المجوس وكانوا على صلات طيبة بدولة الفرس
مظلوما أنهم أرق من سائر العرب ، وكانوا يعتقلون أنهم حير أهل الأرض
فقال رسول الله ﷺ — ثابت بن قيس :
— قم فأجب .

فقال فقال :

— الحمد لله أحمده وأستعيه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا
المهاجرين والأنصار من بني عمه أحسن الناس وحوها وأعظمهم
أحلاما^(١) فأجابوا ، فالحمد لله الذي جعلنا أنصاره ووراء رسوله
وعز الدينه ، فحير نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قامها
مع ما نفسه وماله ، ومن أباه قتلها وكان رعمه من الله تعالى عينا
هيا ، أقول فولى هذا وأستعفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال البربرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم يا فلان فقل أيانا تذكر فيها فضلك وفعل قومك ، مقام
الشاب فقال :

عن الكرام فلا حتى يماحرا فيا الرعوس وفيا يقسم الربع^(٢)

(١) أحلاما : عقولا .

(٢) الربع : ربع العيمة كال رئيس القوم بأحده

ونطعم الناس عند القحط كلهم
 من السديف^(١) إذا لم يؤس القرع^(٢)
 إذا أيننا فلا يأتى لنا أحد
 إنا كذلك عند المحر نرتفع
 فأرسل رسول الله ﷺ — إلى حسان بن ثابت ، فاطلق إليه
 الرسول فقال :

— وما يريد منى وقد كنت عنده ؟
 — جاءت بني تميم يشاعروهم وحطيمهم ، فأمر رسول الله ﷺ —
 ثابت بن قيس فأجابه وتكلم شاعرهم فأرسل إليك تحية .
 فجاء حسان فأمره رسول الله ﷺ — أن يجيبه فقال حسان :
 نصرنا رسول الله والديين عنوة
 على رغم سار من معد وحضاير
 ألسنا نخوض الموت في حومة الوغى
 إذا طاب ورد الموت بين المعسكر
 ونضرب هام السدارعين ونتمنى
 إلى حسب من جرم عسان قاهر
 فبولا حياء الله قلنا تكمنا
 على الناس بالحقين هل من مناصر
 فأحيانا من خير من وطىء الحصى
 وأمواتنا من خير أهل المقابر

(١) السديف . الحاح الحلوب

(٢) القرع . صغار الإبل ، والسحاب .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إني والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء وقد قلت شعرا فاسمعه :

— هات .

فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فصا إذا فآخرونا عند ذكر المكارم
وإنا رعوس الناس من كل معشر وأن ليس في أرض الحجاز كوارم
وإن لنا المرباع في كل غارة نكون بحد أو بأرض التهام^(١)

فقال رسول الله — ﷺ

— قم يا حسان فأجب .

فقال :

بنسى دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالا عند ذكر المكارم

هيبتم^(٢) علينا تفخرون وأنتم
لما خول^(٣) من بين ظفرا^(٤) وحسادم

وأفضل ما نلتم من المجد والعل
رداقتنا من بعد ذكر الأكارم

فإن كنتم جعتم لحقن دمائكم
وأموالكم أن تقسموا في المقاسم

(١) البحد : المرتفع من الأرض ، والتهام المحمصات .

(٢) هيبتم : هببتم .

(٣) خول : خدم .

(٤) الظفر . المرأة تحصى ولد غيرها والرجل أيضا .

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا
ولا تفخروا عند النبي بدارم
ولا ورب البيت مالت أكفنا
على هامكم^(١) بالمرهقات^(٢) الصوارم

وأمر الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِي يَنَادُوكَ مِنْ وَرَاءِ الْحَرَاتِ أَكْثَرُهمْ لَا يَعْقِلُونَ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ حَبِيراً لَهُمُ وَاللَّهُ عَمُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إن محمداً المولى ، إنه والله ما أدري ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولاً ، وتكلم شاعراً فكان شاعرهم أشعر .

كان الأقرع بن حابس يصفى إلى القرآن وكان يرنو إلى نور الإسلام في إعجاب ، ولولا الكبر الذي كان في قلبه لأسلم وكان من السابقين في الإسلام ، فلما أراد الله له الهداية جاء إلى رسول الله عليه السلام ، وهو يتظاهر بأنه ما جاء إلا ليفاخره وإن كانت أنوار اليقين قد أصابت قواده

ودنا من النبي — ﷺ — فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله .

فقال النبي — ﷺ :

— ما صرك ما كان قبل هذا .

ثم أعطاهم رسول الله — ﷺ — وكساهم وقد عادوا إلى أهبيهم بوجوه تتألق بالأنوار .

(٢) المرهقات : السيوف .

(١) الهام : الرعوس .

(٣) الحجرات : ٤ — ٥ .

راح الروم يشجعون القبائل العربية ابقية من الشام على عسرو المسلمين بعد ما رأوا صلابة اسلمين في مؤنة ، وكان هدف الروم إضعاف القوة الحديدة التي بدأت تظهر في شبه جزيرة العرب وتزحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الدولة الرومانية التي أمهكتها حروبها مع الفرس ، وقد أخذ الروم يعرون قصاعة على عزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى يعموا براحة تمكهم من النقاط أنفاسهم والخروج من الأرملة المالية الطاحنة التي جلتها الحروب المستمرة بين الإمبراطوريتين العظيمةتين المتنافستين على سيادة العالم .

وبع رسول الله ﷺ — أن جمعا من قصاعة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ — عمرو بن العاص وذلك بعد إسلامه بسنة وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وبعث في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلقي وعدفرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار . فلما بلغ بلقي قبل بالترحاب فحدثه لأبيه العاص بن وائل كانت بلوبة ، وقد سرهم أن رسول الله عليه السلام قد أمر ابن أختهم فأمدوه برحال . وصدقت فراصة رسول الله ﷺ — صلوات الله وسلامه عليه — لما أراد أن يتألفهم بعمرو .

« اطلق عمرو يسير الليل ويكمن النهار حتى حلف وادى القرى

وراءه وأشرف على ذات السلاسل وبين المدينة عشرة أيام . فما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا هم يشأ أن يعامر وأن يدفعه الخماس إلى أن يحوط معركة قد يكون عاقبتها وحيمة على المسلمين ، فبعث رافع بن كعب الجهني إلى رسول الله ﷺ — ياتمس منه المدد ، وبقي عمرو بن العاص يصلي بأصحابه ينتظر مدد الرسول عليه السلام ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعمد له لواء وبعث معه سراة^(١) هاحرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يفتنا ، فلحق بعمرو وأرد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو :

— إنما قدمت على مدد وأنا الأمير

وعند ذلك قل جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو .

— أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه .

فقال عمرو :

— أنتم مدد لنا

فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف قال :

— لتعلم يا عمرو أن حشرى عهد إلي رسول الله ﷺ — أن

قال . إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تفتنا ، وإليك والله إن عصيتني لأطيعك .

— فإني الأمير عليك .

— كان أبو عبيدة حسن الخلق لس العريكة^(٢) فقال

(١) السراة : العطاء .

(٢) العريكة : النمس ، وليس العريكة . حسن الخلق .

— دونك .

وصلى عمرو بن العاص بالناس وصلى خلفه أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق والعاروق عمر بن الخطاب وسراة القوم من المهاجرين والأَنْصار ، فقد علمهم رسول الله ﷺ — الطاعة ولو أمر عليهم عد حيشى .

كان البرد شديدا ، ولما جن الليل اشتدت برودة الجو فأراد الناس أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من البرد فسمعهم عمرو وقال :

— كل من أوقد نارا لأقذفه فيها

فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكتمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فعالظه عمرو في القول وقال له

— قد أمرت أن تسمع لى وتطيع

— نعم .

— فافعل .

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب عصب وهم أن يأتيه فمعه أبو بكر وقال :

— إن رسول الله لم يستعمله إلا لعله بالحرب

وجلس الناس في المعسكر يرتحفون من البرد ، وشرذ عمرو بن العاص يفكر فإذا به يرى رسول الله عليه السلام يطله ، فلما وافى رسول الله عليه السلام أمره أن يأخذ ثيابه وسلاحه ، ودار في نفسه الحوار الذى كان بينه وبين النبي صلوات الله وسلامه عليه .

— يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيعنتك الله ويسمك .

— إني لم أسلم رغبة في المال .

— نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وكانت قضاة قد جمعت جموعا هائلة لتندم أطراف المدينة ، وتأهت للعروج دون أن تشعر أن على مقربة منهم قوة من المسلمين ترقب فرصتها لتنقض عليهم . وفي عماية الصبح أمر عمرو بن العاص بالهجوم فانقض المسلمون على أعدائهم انقضاض السور ، وارتفع هتافهم مجلجل في المكان ويخلع القلوب من الصدور .

— أمت . أمت يا منصور .

ومضت الرماح إلى الأقدسة ، وانهاالت صربات السيوف على الرقاب ، وارتفع صهيل الخيول حتى كاد يطفى على أعين الرجال ، وثار النقع فاحتلط بانفاس الناس ، وحى وطيس^(١) القتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وقد كسروا عن الأنياب ، وتألق السيوف القواطع وانعكست أشعة الشمس على الدروع والخوذات والصحائف والسيار فبدت كأنها شمس لا تعرف الاستقرار ، وشجرت الرماح فدخل بعضها على بعض ، وحصبت الرمال بالدماء وتبعثرت الأجساد ها وهناك ، وحامت طيور السماء حول حومة الموت ترقب انحلاء المعركة الرهية التي لا هوادة فيها لتنفذ على الأحداث قبل أن تأتى الساع . وراح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعمرو وصناديد^(٢) المسلمين يضربون ضربا رصينا كحمر النار مشتمل ، واستمروا يطلبون عدوهم لله

(١) الوطيس : التور ، وحى الوطيس كناية عن شدة الحرب .

(٢) الصناديد : جمع معرده صديد وهو الشجاع في الحرب .

وينتظرون نصر الله يمشون كلهم وقد وطئوا أنفسهم على الموت أو النصر
تعوح أسيافهم في الضرب أحياء وتعادل . وراع قضاة سرعة الخيول
واستسبال القوم والرحف القاتل الذي دهمهم والقتل الذي استشرى
فيهم فنفروا وولوا الأدبار ، وأراد المسلمون أن ينهزمهم فسمعهم عمرو
بن العاص وهم كارهون .

وحاء النيل وهبت الريح باردة فأحسن المسلمون كأن دماءهم
ستجمد في عروقهم ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا من البرد فسمعهم
وهم يعجبون فقد انتهت المعركة . ولكن القائد قد أمرهم فحق عليهم
الطاعة وإن شق عليهم ذلك من شدة البرد .

واحتجم عمرو وكانت تلك الليلة شديدة البرد جدا فقال لأصحابه :
— ما ترون قد والله احتلمت فإن اعتسلت مت .

فدعا بماء فغسل رجليه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس ولم يعترض
كبار الصحابة ، وصلوا خلفه ، ولم يحتجوا كما احتج اليهود فقد علمهم
— صلوات الله وسلامه عليه — أن الذين يسروا وأن التطلع في الدين
مفسدة ، ثم بعث عمرو عوف بن مالك مشرا للبيس — عليه السلام —
بقدمهم وسلامتهم ، فجاءه وهو يصلي في بيته فقال :

— السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . عوف بن مالك ؟

— نعم . بأني أنت وأمي يا رسول الله .

— أخبرني .

فأخبره بما كان من مسيرهم وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وعمرو
ابن العاص ومطوعة أبي عبيدة عمرو . فقال رسول الله — عليه السلام — .

— يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح .
وأخبره بمع عمر و المسلمين من اتباع العدو ، ومن إيقاد النار ، ومن
صلاته بأصحابه وهو جنب .
وقدم الجيش المظفر فخرج الناس لاستقبال الأجرة العائدين بالنصر ،
وخرج رسول الله ﷺ — لاستقبال وزيره الصديق والفاروق وتبعتهما
بسلامة العودة ، وكان لقاء وكان عناق وكانت دموع ، ولما استقر بهم
المقام كلم عليه السلام عمرو فيما فعل فقال :
— كرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قتلهم ، وكرهت أن
يتعقبوهم فيكون لهم مدد فيعطون عليهم .
فحمد رسول الله ﷺ — أمره ، وسأله عن صلته قال .
— يا عمرو أوصليت بأصحابك وأنت جنب ؟
— والذى بعثك بالحق إلى لو اعتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله ،
وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (١) .
فضحكت — ﷺ ، وكان على الرعم من أحزانه الدائمة بهضحك إذا
ما سمع أو رأى ما يوجب الضحك ، وكان ضحكه عليه السلام تبسما ،
فقد خرج نعيان وهو من أهل بدر مع أبى بكر الصديق إلى بصرى وكان
في الحملة سويط وهو بدرى أيضا ، وكان سويط على الراد فحماه
نعيان فقال له :

— أطعمنى .
— لا حتى يأتى أبو بكر .

— والله لأعظنك

وحاء إلى الناس قد جلبوا بعيرا وأبقارا فقال .

— ابتاعوا مني علاما عربيا فارها إلا أنه دعاء له لسان ، لعله يقول
إنه حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تمسكوا عليّ علامي .

— بل بشاعة منك بعشر قلائص (١) .

فأقبل بها يسرقها وأمل بالقوم حتى عقلها ثم قال .

— دويكم ! هذا هو .

ودهبوا إلى سويط فقالوا :

— قد اشترياك .

— هو كاذب ، أنا رجل حر .

— قد أحبرنا حبرك .

ووصعوا في عنقه حبلا ودهبوا به ، فحاء أبو بكر فأحبر بذلك
فذهب هو وأصحابه فردوا انقلائص على أربابها وأحدوه ، وأحبر
البي — عليه السلام — بالقصة فصحك منها حولا .

وأهدى عيمان إلى رسول الله — عليه السلام — جرة عسل اشتراها من
أعرابي ، وأتى بالأعرابي إلى باب البي — عليه السلام — نادى الأعرابي .

— ألا أعطى ثمن عسلي ؟

فقال البي — عليه السلام : —

— إحدى هات عيمان .

(١) القصوص : من الإبل . الشابة

وجيء بنعيمان فسأله عليه السلام :

— لم فعلت هذا ؟

— أردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء .

فتسم النبي — ﷺ — وأعطى الأعرابي حقه .

كان عليه السلام يمارح الصغير ويلعب الوليد ويمازح العجور ولا يقول إلا حقا ، ويقول : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كنت عميت » . وكان صحوك الس بسم الشيات وقيل « المراح هُجعة » فقيل « بل سنة لقوله عليه الصلاة والسلام إلى لأمزح ولا أقول إلا الحق » .

(٣٤)

أظهر حتى جبهة العداوة للمسلمين فعث رسول الله — ﷺ — أبا عبيدة بن الجراح في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب إلى ذلك الحى بالقبيلة مما يلي ساحل البحر ، وبها وبين المدينة خمس ليال ، ورودهم عليه السلام جرابا من تمر فجعل أبو عبيدة يقوئهم إياه

ومرت أيام وليال وهم في طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر وقد كاد التمر ينفد ، فراحوا يعللون النفس أنهم سيذهبون ذلك الحى ويعمسون ما يطعمون ، ولكمهم لم يجدوا أحدا ولم يلقوا كيده فراح أبو عبيدة يعد لهم التمر عدا حتى كان يعطي الواحد ثمرة كل يوم

وبلغوا ساحل البحر واستقروا هناك يرقبون فرصتهم ، وراح

أبو عبيدة يعطى عمر والزبير بن العوام وعباده بن الصامت والدين معه تمر ، فنقصت تمره عن رجل فوجدوا فقدوا ذلك اليوم .

وراح الزبير بن العوام يمتص التمرة كما يمتص الصبي ثدى أمه ثم يشرب عليها من الماء فتكفيه يومه إلى الليل ، وأخذ الرجال يصرون التمر بعد أن مصوه في ثيابهم في حرص شديد فلم يكن في المكان غير ماء البحر والسماء وارمال والخيط (ورق شجر السمرة) .

وتقصت أيام ونهد التمر فلم يكن أمامهم إلا الخبط فجعلوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم ، وتعدّد قيس بن سعد بن عبادة ما إذا به يذكر دارهم دار الخود ، إنه يرى بعين حياله رجلا واقفا على أطم ينادى :

— من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبي سعد دليم .

ورأى أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالآخر والرجل بالجماعة وأما أبوه سعد فيطلق بالثلاثين . ورأى رسول الله ﷺ — يزورهم في مرهم فيقول :

— السلام عليكم ورحمة الله .

ثم قال :

— اللهم اجعل صوابك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

إنه وهو من بيت حود لا يستطيع أن يرى رفاقه يموتون من الجوع وهو يظفر ، وقد ثار الدم في عروقه لما صك أذنيه قول قائل منهم :

— والله لو لقينا عدوا ما منا حركة إليه .

فما رأى رجلا من أهل الساحل قام فقال :

— من يشتري ما تمرا أوفنه له في المدينة بحر يومها إني ههنا ؟

فقال له رجل من أهل الساحل :

— أنا أفعل ، ولكن والله ما أعرفك فمن أنت ؟

— أنا قيس بن سعد بن عباد .

— ما أعرفني بسعد ، إن بسى وبين سعد حلة سيد أهل يثرب

فاشتري خمس جرائر كل جزور يوسق من تمر ، فقال الرجل :

— أشهد لي .

— أشهد من تحب .

فاشهد عرا من المهاجرين والأنصار ، وامتنع عمر بن الخطاب من أن

يشهد وقال :

— هدا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

فقال الرجل :

— والله ما كان سعد يحمي بابه .

كان الرجل وثاقا من أن سعد بن عباد سوف يوفى عن أبيه ما

الترمه ، فشب بين قيس وعمر كلام حتى أعبط قيس الكلام . وأحد

قيس الحرر فحرق منها واحدة فالتف الرجال يأكسون وقد تهلب

أسارىهم فقد انقصت عليهم أيام كاد اخوع أن يحرق فيها أحشائهم

وحرق سعد من الحرر ثلاثا في ثلاثة أيام ، وأراد أن يحرقهم في اليوم

الرابع فباه أبو عبيدة وقال :

— عرمت عليك ألا تحرق ، تريد أن تحرق دمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس في دهش :

— أترى أبنا ثابت يقضى ديون الناس ويطعمهم في المجاعة ولا يقضى

دينا استدته لقوم محادين في سبيل الله !

وساروا على ساحل البحر وإذا بشيء كهَيْث الكَيْث الصَّحْم ،
فهرعوا إليه ، فإذا به دابة من البحر فراح أبو عبيدة يمحص عنها فقال :
— ميتة .

— اضطروهم فكلوا .

فأقاموا عليها وهم ثلاثمائة ، ودخل حابر بن عبد الله وأربعة من رفاقه
عنها فما رأهم أحد وراحوا يفترون بها الدهن بالقلال ، ثم انطلقوا
عائدين إلى المدينة ، فلما قدم قيس قال له سعد بن عباد :
— ما صنعت في محاجة القوم ؟

— محرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— محرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— هبت .

— ومن هناك ؟

— أميرى أبو عبيدة .

فقال أبو ثابت في غضب :

— ولم ؟

— رعم أنه لا مال لي إنما المال لأبيك ، فقلت له أنى يفصى عن
الأبعاد ويحمل الكل ويطعم في المحاجة ولا يصنع هذا لي ؟ فلان لموفى
فأنى عبه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المص

فقال سعد لولده قيس :

— ذاك أربع حوائط (بساتين) أداها ما يتحصل منه خمسون وسقا .

ووفى قيس الرجل صاحب الحرر وأعطاه ما يركبه وكساه .
وراح الناس يتحدثون عن الدابة الهائلة التي ألقى بها البحر وقالوا إن
أبا عبادة نصب لهم صلما من أضلاعها ومر تحته قيس بن سعد بن عبادة
وكان أطول رجل في القوم راكبا على أطول بعير لم يطأ طيء رأسه .
وقالوا إن أبا عبيدة أحد منهم ثلاثة عشر رجلا فأفعدهم في وقت عيها
فأكلوا منها أياما .

وبلع النبي — ﷺ — ما فعل قيس فقال :

— إنه في بيت جود ، إن الخود لمن شيمة أهل ذلك البيت

وحاء سعد بن عبادة إلى النبي — ﷺ — فقال .

— من عديري من ابن الخطاب ييخل على ابني !

وأخبروا رسول الله — ﷺ — حير الدابة التي ألقى بها اسحر وسألوه

ما صنعوا في ذلك من أكلهم إياه ، فقال عليه السلام

— رزقي رزقكم الله أباه .

كانت غطفان مستمرة في عداوة المسلمين وما كانت تترك فرصة تستطيع أن تنال فيها منهم إلا انتهرتها وقد بلغ رسول الله ﷺ — أن رجلا يقال له رفاعه بن قيس في جمع عظيم برل بالعبادة يريد حرب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ — أبا قتادة أن يتجهز للخروج ليفتح ذلك الجمع قبل أن يتحركوا إلى المدينة .

وكان عبد الله بن أبي حذرد السلمي تزوج امرأة من قومه ، فجاء رسول الله ﷺ — يستعيه عن ذلك فقال عليه السلام .

— كم أصدقت ؟

— مائتي درهم .

— سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم بطل واديكم هذا ما ردتكم .
والله ما عسدي ما أعيبك ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلا في سرية فهل لك أن تخرج فيها فأني أرجو أن يعملك الله مهرا امرأتك .

— نعم .

وبعث عليه السلام أبا قتادة في خمسة عشر رجلا إلى غطفان وخرج معه عبد الله بن أبي حذرد السلمي ، ودفع له ولرجلين من المسلمين باقة مسة وقال :

— تلبعوا عليها واعتقبوها

فركبها أحدهم هو الله ما قامت به صعباً حتى ضربت ، وخرجت سرية أنى قتادة ومعهم سلاحهم السبل والسيوف يسرون الليل ويكمنون النهار حتى جاءوا القوم الرول على الماء ، فلما ذهبت فحمة العشاء حطهم أبو قتادة وأوصاهم بتقوى الله وألف بين كل رجلين وقال :

— لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل (يرجع) ، ولا ينجى إلى الرحل فأسأله عن صاحبه فيقول لى لا علم لى به . وإذا كثرت فكروا وإذا حملت فاحملوا ولا تغمسوا فى الطلب .

وكان عند الله بن أنى حذر د فى ناحية وصاحبه فى ناحية ينظران عرة القوم إلا ورعاة بن قيس المجمع للقوم للفرح فى طلب راع لهم فأبطأ عليهم وتخوفوا عليه ، فقال له نمر من قومه .

— نحن بكفيت ولا تذهب أنت .

فقال فى استخفاف .

— والله لا يذهب إلا أنا .

— فحس معك

— والله لا يتبعنى أحد منكم .

فخرج حتى مر بأنى حذر د ، فلما أمكنه نعه بهم فوصعه فى فؤاده فما تكلم ، فوثب عليه واحترر رأسه .

وأحاط المسلمون بالقوم فحذر د أبو قتادة سيعه وكبر ، وجرد المسلمون سيوفهم وكبروا معه .

وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل فأقل على أنى حذر د فقال له متبهما به :

— يا مسلم هدم إلى الحية .

فمال إليه أبو حدرد فذهب أمامه ، وصار يقبل عليه بوجهه مرة ويدبر عنه بوجهه مرة أخرى فراح يتبعه ، فقال له صاحبه .
— لا تتبعه فقد مهانا أميرنا أن نمن في الطلب .
وكان الرجل الطويل يحاول أن يستدرج أبا حدرد بعيدا ، فلما سمع تحذير صاحبه قال في حق :

— إن صاحبكم لدر مكيده ، وإن أمره هو الأمر .
وأدركه أبو حدرد فرماه بسهم فقتله وأحد سيفه ، وكان المسلمون يخصوصون عمار المعركة فقتلوا من أشرف لعصفان واستاقوا الإبل والعمم فكانت إبل مائة بعير والعمم ألفى شاة وسوا سيايا كثيرة .
وعاد أبو حدرد إلى صاحبه فأخبره صاحبه أنهم جمعوا لعائم وأن أبا قتادة تعيط عليهم . فعاد أبا قتادة فلامه فأخبره الخبر ، ثم قسمت العائم فأصاب كل رجل بعد إحراح الخمس اثني عشر بعيرا وعلس سبعين بعشرين من العمم ، ووقع في سهم أبا قتادة جارية حسناء وصيفة تأخذ بالألباب

وساقوا العمم وحملوا النساء وحمول السيوف معيقة بالأفتاب ، ثم لما أصبحوا رأى أبو حدرد في السبي امرأة كأنها طيبت كثير الالتفات حلفها وتبكي ، فقال لها :

— أي شيء تطيرين ؟
— والله أنظر إلى رجل لش كان حيا يستتقدنا مكم .
فوقع في رمس أبا حدرد أنه الذي قتله فقال لها :
— والله لقد قتلته وهذا والله سيفه معلق بالفتب
فقال والدموع في عيها كأنما لؤلؤتان :

— فأين غمده ؟

— هذا عمد سيفه .

فلما رأيته بكت أحر بكاء .

وعاد أبو قتادة وفي ركابه الحساء الوصيفة ودفع إلى رسول الله —
 ﷺ — خمس العيمة ليورعه على الفقراء والمساكين ويفك به رقاب
 العبيد ويؤلف به قلوب الناس ويسد منه دين المديين .

وحاء رجل إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب حارية وصيفة وقد كنت
 وعدتني حارية من أول فيء يميء الله به عليك .

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى أبي قتادة قال :

— هب لي الحارية .

فوهبها له ثم وهبها — ﷺ — لذلك الرجل الذي وعده بحارية من
 أول فيء يفيء الله به .

(٣٦)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيه
 أن من أحب أن يدخل في عقد محمد — ﷺ — وعهده فليدخل ، ومن
 أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر
 في عهد قريش ودحت حراة في عهد رسول الله — ﷺ .

وكان بين بني بكر وحراة دماء ، وحجر الإسلام بينهما لتشاغل
 الناس به وهم على ما هم عنه من العداوة . وكانت حراة حلفاء
 (صلح الحديبية)

عبد المطلب وكان هواهم مع سى هاشم . فإنه لما مات المطلب وثب
يوسف بن عبد مناف على ساحات وألفية كانت لعبد المطلب واعتصبه
إيها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهر قومه فلم يبهض معه أحد
مهم وقالوا له :

— لا ندخل بيتك وبين عمك .

وكتب إلى أخواله بنى الحار فحاء مهم سبعون راکا فأتوا يوسف
وقالوا له :

— ورب البية تزدن على ابن أختنا ما أحدث إلا ملأنا منك
السيف .

فردده ثم حالف عبد المطلب حراة بعد أن حالف يوسف بن عبد مناف
بنى أحيه عبد شمس . ومد ذلك الوقت وحراة تميل إلى سى هاشم
وكان هو حراة مسلمهم وكافرهم مع محمد — ﷺ .

وقد قرأ على رسول الله — ﷺ — أبى بن كعب كتاب حده عبد
المطلب حراة بالحديبية وهو : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب
اس هاشم لحراة ، إذا قدم عليه سرواهم ^(١) وأهل الرأي مهم عاثمهم يقر
بما قاضى عليه شاهدهم ، أن يسا ويبيكم عهد الله وميثاقه وما لا يسى
أند ، اليد واحدة ولبصر واحد ما أشرف خير ^(٢) وثت حراء مكانه ،
وما بل بحر صوفة » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أعرفنى بكنكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الخلف ؟

(١) سرواهم : عظماءهم . (٢) خير وحراء : اسماء حليل .

فلما كانت الهدنة التي وقعت في صلح الحديبية اعتمها بو بكر فراح
 شخص منهم يهجو رسول الله ﷺ — وصار يتعنى به ، فسمعه علام
 من حراة فضربه فشججه فثار الشر بين الحيين لما كان بينهم من عداوة .
 فطلب بو بكر من أشراف قريش أن يعيؤهم بالسلاح ولرجال على
 حراة فأمدوهم بذلك ، فجاءوا حراة ليلا بعتة وهم آمنون على ماء لهم
 يقال له الوثير فقتلوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا
 منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العري وعكرمة بن أبي جهل
 وشيبة بن عثام وسهيل بن عمرو ، ولا راثوا بهم إلى أن أدخلوهم دار
 بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان ، وطوا
 بهم لم يعرفوا وأن هذا لا يبيع رسول الله ﷺ .

فلما ناصرت قريش بني بكر على حراة وبقصوا ما كان بينهم وبين
 رسول الله ﷺ — من العهد والميثاق بدموا — وجاء الخنثاء بن هشام
 إلى أبي سفيان وأحبره مما فعل القوم فقال :

— هذا أمر لم أشهده ولم أعب عنه وإله لشر ، والله ليعروبا محمد .
 ولقد حدثني هذ بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من
 الخججون يسيل حتى وقف بالخدممة .

فكره القوم ذلك وخرج عمرو بن سالم الخزاعي سيد حراة في
 أربعين راكبا من حراة فبهم بديل بن ورقاء الخزاعي قاصدين المدينة
 ودخل رسول الله ﷺ — صبيحة لوقعة على عائشة أم المؤمنين
 وقال لها :

— حدث في حراة حدث .

— يا رسول الله أن ترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذي بينت

وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير .

— خير .

وبات رسول الله — ﷺ — عند ميمونة فقام ليتوضأ للصلاة
فسمعته يقول :

— لييك ! لييك ! لييك ! نصرت نصرت نصرت .

فلما خرج قالت

— يا رسول الله سمعتك تقول لييك لييك لييك ! نصرت نصرت نصرت

نصرت ! كأنك تكلم إنسانا مهمل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجع إلى كعب يرفع أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

ومضت ثلاثة أيام وصلى رسول الله — ﷺ — الصبح وحس في

المسجد بين الناس ، فإذا بوفد حراقة قد قدم إلى المدينة ودخل المسجد

ووقف بدليل بن ورقاء وقال :

يا رب إني ناشد محمدا حلف أيما وأبيه الأتلدا (١)

إن قريشا أخلفوك الموعدا ربقضوا ميثاقلك المؤكدا

هم يبتوا بالوثير (٢) هجدا وقتلوسا ركعسا وسجدا

فقال النبي — ﷺ — :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

(١) الأتلدا : التلديد ، والأتلدا الأكثر قديما وعراقا .

(٢) الوثير : موضع بالقرب من عرفة .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ — وقال :

— لا يصبرني الله إن لم أنصر بني كعب مما أنصر به نفسي .

ولما بدمت قریش علی نقصهم العهد جاعوا إلى أبي سفيان فقالوا له :

— ما لها إلا سواك ، اخرج إلى محمد فكنسه في تجديد العهد وزيادة

المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحتين ، فأسرع السير لأنه يرى أنه

أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ — .

وقال رسول الله — ﷺ — قبل قدوم أبي سفيان :

— كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويريد في المدة وهو

راجع بسخطه .

ثم رجع أوثك الرك من حزاعة وقد قرت أعينهم بما سمعوا من

رسول الله — ﷺ — بعد أن قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا في الأودية .

فرجعوا ونصرفوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ،

وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق . وإن أبا سفيان لقي بديل بن

ورقاء بعسمان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله

— ﷺ — المدينة فقال للقوم :

— أخيروا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل .

ثم صبر أبو سفيان حتى ذهب أوثك القوم فالتفت إلى مولاه فقال

— لش كان جاء البدية لقد علف بها النوى .
فحاء مرطهم ففتت أعرر أباعرهم فوحد فيها النوى . قال أبو سميان :
— أحلف بالله لقد جاء القوم محمد .
و طلق أبو سميان ومولاه . وأبو سميان يرحو أن يسمح في سفارته
فيشد العقد ويريد في المدة .

التذيل

ارتطمت البشرية بمشكلة الجنس منذ بدء الخليفة ، فعندما خلق الله أول زوجين درية كانت المرأة سبب أول جريمة وقعت على الأرض ، فقد قتل رجل أحاه لأن روجه أحيه كانت أكثر حساس روجه . وبعد أن كان التطعيم الأسرى معروفا منذ الأزل ، ولما ظال على الناس الأمد أطلقت للعرائز حريتها فكان البغاء وكان الانحلال وكانت الحرية الجنسية المدمرة وكان انعدام التحسس في سبيح الكون ، فبعث الله الرسل لإرشاد الناس إلى حل مشاكلهم الجنسية حلا طاهرا يسمح بقيام نظام اجتماعي سليم يمكن أن يقوم عليه سعادة البشر .

كانت لشرائع السماوية كدنها تحدد علاقة الرجل بالمرأة لباء مجتمع جديد ، فالبيت نواة المجتمع البشري . واستقرار البيت هو استقرار المجتمع . وكانت الشرائع السماوية كلها تعطي الرجل حقه وتعطي المرأة حقها ولكن كما بعدت البشرية عن عذالة السماء وحمت قبضة الدين على المجتمعات راح الرجال وهم الحكام وامشرون والقضاة يشرعون قواعد تزيد في حقوقهم على حساب حقوق المرأة ، فكانت عصور الضياع التي نكست بها الإنسانية .

إن مركز المرأة في المجتمعات هو المقياس الحقيقي لخصرة المجتمع ، فإذا نالت المرأة التوقير الذي تستحقه في مجتمع ما وأحدث حقوقها المشروعة بلا ريدة أو نقصان ، وقامت بدورها الطبيعي الذي خلقها له الله ، فإن ذلك المجتمع يكون أكثر تحضر من مجتمع تهان فيه المرأة بأن

يطلب لها الخيل على العارب ، تمارس فيه كل أنواع الفساد تحت شعارات خادعة براقة يفسسها لها محادعون يزبون الرععات والروايات والأهواء ويقولون إن الطواهر النفسية حرة ، وإنما يفعل على نحو ما نوجد ، وإن فعلاً يستق من وجودنا ويسهم في خلقها ، وأن الإنسان حر من حيث هو شعور ، ومثل ذلك من الفلسفات التي تشجع على الخطيئة لإرضاء الحرية النزوات !

كان مركز المرأة تماثلاً عند كل الشعوب التي وصلت إلى درجة معينة من الحضارة ما دامت بعيدة عن أثر الدين وتأثيره ، فكانت المرأة في مصر القديمة وفي بابل وآشور في مكانة واحدة فهي روجة الرجل الشرعية ، على أن الرجل كان حراً في اتحاد محظيات على قدر ما تسمح به ثروته ، وكانت حاديات المنزل إماء ومملكت يمينه . فللرجل روجة شرعية واحدة هي « زوجته المحبوبة » و « سيده المنزل » وله حريم من المعليات والمحظيات الحسنات وما كان هر حد يقف عنده الرجل بن يعود ذلك إلى درجة ثرائه وافتتاح شهيته .

وقد عرف قدماء المصريين تعدد الزوجات ، ورئيس عشرة الوحة القلى « أميسى » الذى عاش في الدولة الوسطى كان له زوجتان إحداهما وهي المسماة « ست » ولدت له ولدين وخمس بنات ، والأخرى واسمها « حتوت » فقد أنجبت له ثلاث بنات وصبياً واحداً . وكانت الزوجتان تعيشان معاً في سلام حتى إن السيدة ست سمت ابنتها الثانية « حتوت » وسمت السيدة حتوت بناتها الثلاث باسم بنت ا

وكانت لرمسيس الثانى زوجتان ملكيتان عظيمتان هما نفرتا مرن ت وإسى — تُرى أم مفتاح ، وعندما عقد معاهدة مع ملك الحيثيين

تروح سياسيا وقد فعل تخمس الرابع مثل ذلك ، وكذلك أموفيس الثالث والرابع عندما اتخذوا لأسباب سياسية أسرات من بابل ومثالي وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات .

وكانت قصور الأمراء وحكام الأقاليم والأثرياء تموج بالحريم أو كما كان يعرف في العهد الفرعوني « بيت المحجبات » وكانت مسؤولهم وأولاده لا يستمتعون بأية حقوق قانونية قبل رب البيت . كان الحريم موحودا في جميع عصور التاريخ كحاجة من حاجات الأثرياء الوجهاء ، وكان واجب سناء الحريم أن يشرح قلب فرعون بالأعالي والرقص ، وكذلك كان هذا هو دور الحريم في قصور الأثرياء .

ويقال في مصوص الأهرام عن الملك المتوفى إنه « يأخذ النساء من أرواحهن عند رغبته » ، أي أن للملك حق اعتصاب أية زوجة من روحها كما كان الحال بعد ذلك لأمرأ الإقطاع في العصور الوسطى . وكان الشبان في سن الخامسة عشرة يتزوجون بفتيات في الثانية عشرة من عمرهن ، وكان الأب هو الوكيل الشرعي في الزواج .

وكانت أسبابا الحروب يورعن على الحدود ، وقد مال جدي واحد بعد معركة حربية عشرا من الإماء . وكان التمرى متشرا بين الطبقات الدنيا ، ولا يحل عصر من العصور من النساء اللاتي لا غائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغاء .

وكان الأبناء يسيرون إلى الأمهات . وفي عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث في أسرات النبلاء يأتي عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذي يرث وإنما يرث ابن كبرى البنات ، وكان والد الأم هو الوصي الطبيعي للشباب .

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ نظام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليحدّث أنبياء بني إسرائيل قد اتخذوا أكثر من زوجة ونسروا بأكثر من محبوبة حتى قيل إن قصر سليمان كان به أكثر من ألف امرأة . ولم يأت في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة ، وإن عدم زواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين في الحرج حتى صار عندهم أبغض الحلال إلى الله الزواج !

وعرف العرب في الجاهلية نظام تعدد الزوجات وانتسرى بالإماء ، وكان سادات القوم يدفعون إماءهم على الرضا لجمع الأموال ، ولما جاء الإسلام قال النبي ﷺ : (لا تقل عبدي وعبدي بل هأى وهأى) . بذلك جاء في القرآن الكريم : ﴿ ولا تكرهوا ميثاقكم على أنفسكم إن أردن تحصلاً ﴾ (١) . فقد كانت بعض صاحبات الربايات الحمر يصفقن هذه المهمة وكى يمارسها تحت صغط السادة وتهديدهم .

وكان فقراء العرب يلدون بأنهم حشية الفقر فكان ذلك نوعاً من تحديد النسل ، وما كان الوأد للسير لأن لقائهم كانت في حاجة إلى برحال للعارة والسطو ودفع العدوان ، لذلك كانوا يكرهون إيجاب البسات : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾ (٢) .

وقد بعث الاستهانة بالشرف بين بعض رجال العرب في الجاهلية أن

(١) النور ٣٣ .

(٢) النحل ٥٨ — ٥٩ .

قبلوا الاستبصاع ، وهو إرسال الروجة لرجل نانه أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإنجاب ذرية قوية فيها بعض صفات الرجل القوى الفحل الذى يضمنى الزوج أن يأق ابنه على مثاله !

وكانوا يجمعون بين الأختين ، ويخفف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من فعل ذلك الصير . وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تروحها بعض إخوته بمهر جديد . وقد كان هذا الكاح فى الحاهلية نكاح المقت .

وكان الرجل يرث امرأة دى قرانته فيعضلها^(١) حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فإن كانت حميلة تروحها وإن كانت دميعة حبسها حتى تموت فيرثها .

كانت للمرأة العربية فى الحاهلية بعض الحقوق يسا تحدها فى جمهورية أفلاطون شيئا لا حق له ، إنها لعبة الرجال امتارين ولا بأس من أن تكون مشاعرا بينهم ، مما حققت إلا للترفيه عن الرجال الأقوياء العضاء الذين تصعب جمهورية الفيلسوف كل إمكانياتها لتكوين هؤلاء الصفوة . ويقول الدكتور على عبد الواحد واق فى كتابه حقوق الإنسان فى الإسلام : « فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المذنب ، فقد برع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى المرسى إذ تقرر أن .

(١) عضل المرأة : معها الزواج وضييق عليها .

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان رواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكيتها زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها في العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرا من آثارها ما يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتوكيدا لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة الغربية المتروحة تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد رواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة ست فلا بل تحمل اسم زوجها وأسرتة فتدعى مدام فلان أو تنسب اسمها باسم زوجها وأسرتة بدلا من أن تنسب باسم أبيها وأسرتها ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدينية للزوجة واندماجها في شخصية الزوج .

وقد طمس الإسلام الدين قالوا إن الإسلام أباح تعدد الزوجات ووقف عند ذلك ، فالحقيقة التى لا مرء فيها أن التعدد كان معروفا قبل الإسلام وفي كل العصور وكل الديانات . فإبراهيم خليل الرحمن اتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك موسى كليم الله وكل الرسل والأنبياء وإله لم الإلصاف أن يقال إن الإسلام جاء ليحدد عدد الزوجات ، فبعد أن كان للرجل الحق فى أن يتزوج أى عدد من النساء شاء فقد حدد الإسلام عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بينهما ، وما كان ذلك مطلوبا من قبل فقد كان للزوج أن يعدل أو لا يعدل كيف يشاء

إن تعدد الزوجات ليس نظاما شائعا بين المسلمين ، فكثير من

استسمين يكتفون بروحة واحدة ، ولكن هناك أحوالا اجتماعية أو اقتصادية قد توجب تعدد الزوجات حصصا للمجتمع من الأسفار أو درعا لمصادف بحر في نظام اجتماعي ويقوصه على رعوس الصالحين والظالمين الدكتورين بروحة واحدة في الظاهر ، أو الداعين إلى شيوع المرأة بين الرجال دون زواج .

لقد أصبحت الحروب جزءا من الحياة في العالم ، وكان من نتيجتها أن صار عدد النساء يريد على عدد الرجال في معظم دول العالم . وقد واجه الأخلاقيون في أوروبا هذه المشكلة بعد الحرب العالمية الثانية ، والصيغة تصرح في طلب حاجاتها وتريد أن تنطلق في طريقها ولم يجد الأخلاقيون في أنفسهم الشجاعة لتقرير مبدأ تعدد الزوجات فكانت النتيجة أن امتشرت شرور الدعارة واشترت موجات التحرر الجنسي التي تدور بتقويض الحضارات الغربية .

إن الإسلام في مكر تاريخه واحه موجات من العروات والحروب فقل عدد الرجال عن النساء ، فلم يكتف بأب أوصى ببر الأراامل وتقديم الطعام والمأوى إليهن ورضى عن الحل امدى وحده ، بل عرف أبعاد المشكلة على حقيقتها ، فانطعم لا يطعم إلا جوعها ولا يصون عرصها ، إنها في حاجة إلى إشباع جوع آخر فإن لم تجد من يسده حللا فالطبيعة قد ترعنها على أن تسده حراما . ولما كانت رسالة الإسلام الطهارة والعفة وقدسية العلاقات الجنسية فقد أباح الإسلام أن يتحد الرجل أكثر من زوجة حتى يصون المجتمع من شرور لعاء ، وهو الخطر الأعظم على حضارة الأمم .

شاد الإسلام حضارته على نظام حياة البيت وطهارتها وقام على نظام

الروحة الواحدة في تهيئة بيت للمرأة إلا في حالات استثنائية فقد سمح بالرواح من أكثر من امرأة ، فإذا قيل إن المرأة لا تحب في حالة تعدد الروحات إلا نصف بيت فإذا ذلك أفصل من ألا تجد بيتا على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس المعنى أن المرأة لا تحب المأوى فحسب ، ولا أنها حرمت فرص إبداء عواطف الحب والرحمة التي وهبها الله لها فحسب ، ولكن معناها في أغلب الحالات هو الحرمان الخلفي وهو أعظم الأخطار عن الحصار .

قد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يعنى الإسلام باب العمل إطلاقا في وجه المرأة ، إلا أن المعضلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت وزوج . ويجب أن يفهم في وضوح أن تعدد الروحات في الإسلام — سواء أكان نظريا أم عمليا — ما هو إلا نظام استثنائي ، وهو علاج لكثير من مساوئ المدينة الحديثة ، وعلى فرص أن أعداء الإسلام يعتبرونه شرا فيقولوا لها . أيهما أعظم شرا أن تعدد الروحات المحدود أم الدعارة والاعتطاط الخفسي المطلق ؟ !

وإن المتع لزيجات رسول الله ﷺ — وأصحابه يحد أن الدافع هذه الزيجات هو صيانة حياة أرامل مات عنهن أزواجهن ، فكان من واجب المسلمين الأوائل ضمهن إلى بيوتهم ليحفظوا مأوى والعطف واحسان . ولم يكن الدافع إلى ذلك الرواح شهوة طاعية أو متعة رحيصة بل كان الهدف الأسمى التعفف وصيانة حرائر المسلمين من الانزلاق . ويقول مولاي محمد علي في كتابه « محمد رسول الله » يمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى أربعة أقسام : كان أعرب حتى الخامسة والعشرين

وعاش مع روجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العروبة هي أهم فترة يمكنها دفع دعوى أن النبي كان عبدا لشهوته ، فلو كان عبدا لما قصر على ناصيه عواطفه وميوله الجنسية ودا عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين . تحكم في ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين في بلاد حارة كالبلاد العرب حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعا وتكون عواطفهم نارية وميولهم جامحة عيمة ، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما حاصمونه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه . وموير نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن النبي في شبابه طبع بالهدوء والبعد والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت فريش تعترف بها . والشباب هو سس العواطف المتأحجة الجامحة الثائرة ، فمرحل الذي يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعرب من الخيال أن يحرق وراء الشهوة وقد بلغ سس الاكتئاب والرزاة . وعلى ذلك ففترة الأولى من حياة أسى فترة الحياء والطهر دليل قاطع على استحالة أن يكون عبدا لشهوته . ومما هو جدير بالملاحظة أن تقاليد العرب وقتذاك كانت تبيح الانحراف الخلقى . لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيعة أو العادات المرعية ، فقد كان الانغماس في اللذات شيئا عاديا مألوما يومئذ فلم يعمس فيما انغمسوا فيه جميعا ، وعاش عيشة طاهرة بقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ورفعته الشخصية .

ولندرس الآن الفترة الثانية فترة الزواج من روجة واحدة . فقد

تروح في الخامسة والعشرين من حديجة فعاش معها عيشة إحلاص وورع حتى قبضها الله وكان في الرابعة والخمسين ، عاش معها وحدها في بلاد قاعدتها العامة بعدد الرواح ، وما كالت الروحة تشكو أو تندمر إذا روجها تروح روحة ثانية أو ثالثة . وقد أعماه رواجه من حديجة فكان في وسعه أن يتروح من أخرى ولكن تعدد الرواح لم يكن مقصورا على الأغنياء ، فكان في مقدور الفقراء التروح من أكثر من واحدة ، وكانت الروحة شريكة في الحياة بمعنى الكلمة فهي تعاون روجها على كسب معيشتها كما هي الحال في الطبقات العامة ، وعلى هذا فما كان العقير ليخسر شيئا إذا ما تعددت زوجاته .

كان محمد بن أعرق أسر قريش ولو شاء الرواح من أخرى لكان أمرا هيبا ميسورا ؛ ولكنه عاش مع روحة واحدة عيشة كلها إحلاص وألفة وود طوا حياتهما لروحيه ، فلما ماتت تروح من سيدة طاعه في السن هي سودة وكانت كل مؤهلاتها أمها روحة أحد الدين هاحروا إلى الحبشة متحملين الأذى في سبيل الدين

وإن هذه الفترة فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين هي فترة الروحة الواحدة ، وهي القاعدة في الحياة الروحية .

وفي السنة الثانية للهجرة بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة ، وفي هذه الفترة بالدات تروح النبي تلك المرات العديدة التي قد تبدو عربية أمام العقلية الحديثة ولكنها كانت أمرا عاديلا لا عيار عليه ولا يتفقد . ومن ذا الذي يتفقه إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الحسود إلى المتعة واللذة ؟ وقد اعترف

أحد الكتاب المسيحيين بذلك صمما عندما قال . * من الممكن تفسير تروح السي المرات المتتالية بشتى التفسيرات ولكن يجب ألا يعزب عن النال أنها كانت وليدة انشفقة والمؤاساة نظرا للحالة النعمة التى كانت عليها من تروح منهم فقد كن من الأرامل ، لا مال ولا جمال ، بل كن على الفيض من ذلك يستحقن كل عطف .

سقى لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على حير ما يكون من الطهر والعفاف أل يعمر بعد ذلك فى اللدات . فإذا كانت قنة النساء لا تؤثر فيه وهو حتى ممتلى* الشاب فكيف بها تأسره وهو رجل رربى كامل المصح العقلى ؟

قد عاش السي طوال هذه السنين فى المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كفاح وبصال ، فقد كان فى هذه الفترة فترة تعدد الروحوات بخوص معارك لا تقطع ، معارك موت أو حياة للإسلام أو المسمين . لقد عوديت المدينة فى هد الحققة ومشت إليها جيوش خب للفضاء على المسمين ، ورمته العرب جميعا عن فوس واحدة فما كان السي آمننا لحظة لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت العروات تعد سرعة . وقل له أصحابه بانهم منو من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ويطمئهم ويشرهم باقتراب رمى السلام الذى يتمكن فيه المسافر من قطع الخزيرة من أدناها إلى أقصاها دون الحاجة إلى حمل سلاح .

وكان اليهود والبصارى كذلك يناصرونه البعداء ، وكان حيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر فى المعارك أو عيله . أمكأت هذه الحياة حياة لدة ومنتعة أم كانت حياة شدة وكرب ما بعدها شدة (صلح الخديفة)

و كرب ؟ وإذا شاء الخوارج إلى حياة اللذة والمتعة وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقة أفككت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب في انتطاره دائما ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلي ، والحرب مع أعداء حافين به من كل جانب . لقد كانت الأبناء تتراعى إليه دائما أن العدو يحشد جيوشا هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام وكان عدد المسلمين ضئيلا . فكان عليه دائما أن يعمل على درء الخطر الساحق . فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماحر لبدلته وغيرته فما بالك برجل شهد الجميع بطهارته ونقاته ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المعريات حتى تصبره ماجنا أو عبدا لشهواته .

عرفنا كيف يقضى النبي سهاره في كعاح مصر شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ قد كان له عدد من الروحانيات الحبيبات المحصيات أفكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ استمع إلى شهادة انقرآن وهو أصدق لقائين . ﴿ يا أيها المرمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو رد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (١) . ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الدين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ (٢) . وحاء في الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه في الصلاة وتلاوة القرآن وهو قائم حتى تتورم قدماه ، فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتحد هذا العدد من الزوجات ل يتمتع بهن ؟ كلنا يعرف أدق حصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كماحاحا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها

متعة ، أو لذة حسية .

وللدكتورة بست الشاطيء رأى في التعدد ، مهى تقول في كتابها « ساء السبي » . وفي مسألة التعدد جانب دقيق عمل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى — راضية — أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن ساء السبي كن سعيدات بحياة الصرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن إلى هذه المشاركة في الزوج ، ولكن معاه على التحديد أن محمدا « كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال الذى يؤثر الروجة أن يكون لها أى مكان في بيته ، على أن تكون ها مع غيره ممكنة مستقلة تفرد بها دون مشاركة » .

وليس من بين روحانه — صلى الله عليه وسلم — من دحت بيته وفي حساسها أن تفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل عليها تصويره لو ذكرنا أن نخولة بست حكيم اقترحت على الرسول أن يحطب عائشة بست أبى بكر وسودة بست رمعة في وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هى التى عرضت أن تتزوج الرسول وفي بيته عشر ساء : ثمانى زوجات واثنتان ملك يمين . وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعده « أم رومان » حاة السى — صلى الله عليه وسلم ، وأن على بن أبى طالب هم بأن يتزوج على فاطمة الزهراء بست السى ، وأن أبى بكر وعمر صهرى الرسول رعا في الزواج من أم سمعه بست أبى أمية راد الركب حين مات زوجها وفي بيت كل منهما أكثر من زوجة .

ولو حيرت زوجات النسي بين حياتهن تلك المشتركة في بيت واحد ومع روح واحد وبين حياة أخرى منفردة في غير ذلك البيت ، ما رضى

عن حياتهن بديلا

وكن مع ذلك مرهقات هذه المشاركة ، تصيبهن العيرة ويشقىهن ألا تفرد كل منهن بقرب زوجها . وقد شهد بيت الرسول من عيرة سائه المحتمة ما يحيل إليهما معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك سوية لا تهدأ ولا تقتر ، وإن لم ترفيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التماس على حب زوجهن والرغبة في الاستئثار به . وما من شك في أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتياجه تقدير اللذواع بطسعة التي كانت تدفع إليه قسرا ودون احتيار . وما تزال الإنسانية تسعى حتى اليوم وعدا ويعدده إلى كمنته في روحته عائشة حين لحث بها غيرها :

« ويحبها لو استطاعت ما فعلت ! » .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس وعمق الفهم بطبيعة حواء . وقد كان ساءه يعرف هذا في روجهن الرسول ويلذذ به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يحب لروحان نبي من مسألة ووئام ، ويدرك أن العيرة مهما تحمض بهن فمثل رسول الله من يعتذر ويقدر ويرحم ، دون أن يرى في ضعف البشرية إنما لا يعتذر أو يحذر في فطرة حواء ما يدعو إلى الأزدراء .

وكتب ر ف . بودلى في كتابه « الرسول . حياة محمد » عن رواح محمد — عليه السلام — من عائشة . « وشعلت مسألة رواح الرجل الذي كان في سن الخمسين من الفتاة التي كانت في العاشرة بعض مؤرخي محمد ، كما شعلهم الأسراء وحالة الصرع . وكان المؤرخون يبطرون إلى كل حانة من وجهة نظر المجتمع الذي يعيشون فيه . فسم ينظروا إلى هذا الرواح على

أنه كان ولا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت قائمة في شرق أوروبا وكانت طبيعية في آسيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأما ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الحليية البعيدة في الولايات المتحدة . وبغض النظر عن العادة فإنهم لم يطوروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة . فهناك أول شيء أبو بكر أبو الروحة وكان من المفهوم أنه ينبغي أن يرتبط ارتباطا سياسيا دائما بقائده وقد أعانه وساعده في أحلك أيامه ، وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية فهو يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه فكان واثقا من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة في دار صديقه .

ويجب ألا يهمل محمد نفسه ، فحتى تلك اللحظة لم يكن في حياته شيء مسل أو بهيج بل كانت حياته كدا وبصيا فكان يستحق بعض ما يراه غير التعذيب والحكم عليه بالاعدام ، وما كان له حتى بصييه العادي من السوء فقد بقي حتى السابعة والعشرين عميها كعائشة ، وحتم ذلك العفاف بالتروح بأرملة تكبره خمس عشرة سنة .

والنقطة الثالثة التي تسمى عادة والتي يجب لذلك تأكيدها ثانية هي أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حولها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه لكادت عائشة بت أبي بكر ذات العينين الواسعتين والقسميين الصعيرتين والشعر الحمد . فلقد كُونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذي دحنت فيه دور انسى اللاصقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سرودة المحوز كما تعامل حادما مكلفة القيام بجميع أعمال المنزل . ولما هجر محمد ساءه لم تحفف عائشة من علوانها فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها

دواماً .

ولمولاى محمد على رأى فى سن عائشة عندما بنى بها رسول الله ﷺ — فهو يقول فى كتابه : « محمد رسول الله » عندما كان يتحدث عن زواج السى — ﷺ — من عائشة بنت أبى بكر : « كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتزوج من عائشة ابنة صديقه أبى بكر وفاتحت أبى بكر فى ذلك ، وكان لعائشة مواهب باررة لمسها السى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة مستقبل الجديرة أن تكون روضة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبوع الأثر فى هداية البشر ، وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقسان . أولاهما أن عائشة كانت محطوبة لحبىر فما كان فى استطاعة أبيها أن يقلل ترويحها حتى يفص فى أمر حبىر ، ولكن كان حبىر نفسه يربى فى قسم رباط خطبة لأن هوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت . وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشة السن التى تؤهلها للزواج وقد أمكن تدليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حمل الزواج لم يكن فى الواقع سوى حمل حطمة وكان ذلك فى التاسع من شوال فى السنة العاشرة من نزول الوحى .

ولها لفرصة طيبة لدفع أكنوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم نلع السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما رعموا ، فإنها كانت فى السن التى تحبىر حطيتها فحطبها حبىر ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت الببى تكرها بحمىر

سنوات ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أى قبل أن يرسل النبي بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة برول الوحى فكانت سبها لا تقل عن العاشرة عندما روجت من السبى فى السنة العاشرة لرسالة ، وإن شهادة عائشة بنفسها لدليل على ذلك . فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترانها عند برول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإياها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تتبع السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تروحها النسي إن هذا إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم برول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند بروجها .

من هذا كله يهيم أن سبها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها السبى ، ولما كانت ابنة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فما دخل السبى بها ، لا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سبها يوم سائه بها خمسة عشر عاما ، أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الروح وأن النبي بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والرواح كانت ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه .

ويقول المعتزلة بعدم حوار أن يتروح الرجل روجة ثانية ما دامت الأولى فى عصمته ، وسبب ذلك أنهم نظروا نظرة سطحية إلى ما يجلبه التعدد — فى نظرهم من مفسد ومضار ، ولم يرد فى القرآن نص يحرم

تعدد الزوجات ، إنه اشترط العدل بين الزوجات ﴿ فإن حفم ألا تعدلوا فواحدة ﴾^(١) ولا ريب أن هناك ظروفا اجتماعية أو اقتصادية تبرر تعدد الزوجات ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جيز برح ووستر مارك » أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتعمدية في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة ، وأن الشعوب التي كانت تحرم الرواح بأكثر من واحدة إنما كانت تنبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد . كما أن الشعوب التي أحارت الرواح بأكثر من واحدة إنما أجارته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين .

وتقول « ماريون لانجر » عالمة الاجتماع المتخصصة في استشارات الزواج « إن لدى المجتمع حلين ممكنين محسب لتعطية النقص المتردد في الرجال ؛ إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم ترى هل سيحيا العالم إلى إباحة تعدد الزوجات . »

ويقول الدكتور حسين المعنى في هذا الشأن : « أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات مكررا اجتماعيا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ في دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء إلى الاعتدال وما ذلك إلا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعاً يفكرون في أمر الرواح على أساس ميول وعواطف الأفراد ، بينما الإسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ، ويصعب التحول التي إن لم

(١) النساء ٣ .

ترص ميول الأفراد فإنها لا تتناق مع خيرهم ثم هي لا مباح منها لخير المجتمع .

وقد أسهب المستشرقون في قصص رواح النبي — ﷺ — من رساله وخرجوا من دراساتهم المعرصة بأنه كان عليه السلام يجرى وراء لذاته ، وقد فند الأستاذ العقاد مراعاتهم في كتابه . عقريه محمد ، قال . « فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل في المرأة ، ونحن قل كل شيء لا يرى ضميرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمنعتها ، هذا سواء في الفطرة لا عيب فيه . وهذه النفس السوية يمكن أن يفهمها بخلاء حين يرى أن المرأة لم تشعبه عما تشعل المرأة الرجل المفرط في معرفة نساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الحسام ، فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن يذكروا أن محمدا قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، ولم يشعله عن هذا شيء لا امرأة ولا غير امرأة ، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رحبان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كال وليس بعيب ، ومحمد الذي خير نساءه بين أن يرصين بحياة الكفاف أو يصرهن سراحا حميلا ليس بالضرورة رجلا خاصا لندات حسه ، فلو شاء لأعقد عليهن النعمة وأعرقهن في الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للندات حسه » .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع روحيات للدليل على فرط الميول الحسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الحسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا يسعى أن تصف محمدا بأنه مفرط الحسية لأنه جمع بين تسع نساء — ﷺ — أمكه أ. يسوس

تسع زوجات ولم يؤثر عهن خصام أو براع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الروحات فعليه أن يقتدى به في معاملة روحاته بالعدل ومعالجة الشؤون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من روحات النبي الكثرات مثالا صالحا يحتد به من العفة والزهد وتبدير المنزل والرضا بما قدرهن من متاع في هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنساني .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا في حياة النبي مع نسائه واقتدوا به في معاملة الأرواح والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية .

روحد المبشرون والمستشرقون في رواح النبي — ﷺ — من ربيب بنت جحش مادة للخيال والتشهير ، فصوروا قصة عرام مشوب كذلك القصص المنتهية التي دأبت في العصور الوسطى والقرن التاسع عشر ، فقد كتب الراهب فيدرو مقدمة نابضة بالحرارة إن دت ما بما تدل على ما كان يقاسيه من كبت جنسى ثم قال : « كان هناك رجل يدعى سيدروس (ريد) له زوجة تدعى ريب وكانت أحمل ساء الأرض في زمانها ، وسمع محمد بحمامه الرائع مشعف بها حيا وشاء أن يراها فابطلق إلى دارها في عياب روحه يسأل عنها ، ولم تحف المرأة بحر تلك الزيارة عن زوجها وقد سألها عند عودته : هل كان رسول الله ها ؟ قال : نعم قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم . وأطال إليها النظر ، قال : هذا فراق بيني وبينك

واستمر الراهب في سرد قصة لعب الخيال فيها أكبر دور ، وراح

يدس بعض ما جاء في سورة الأحراب عن رواج النبي — ﷺ — من ريب ليوهم القارىء أنه يسرد واقعة حقيقية مؤيدة بالقرآن .

وحتى بودلى وهو ممن حاولوا أن يصنعوا سى الإسلام عليه السلام قد صور قصة رواج النبي من زينب في صورة روائية وقد يكون له بعض العذر ، فالطبرى وبعض كتاب السيرة سردوا الحادثة سردا قصصيا يوحى بأن النبي عليه السلام لما رأى ريب أعجب بحسبها كأنما يراها لأول مرة وكأنها لم تكن ابنة عمته التى روجها من ريد بن حارثة ، يقول بودلى : « ... وإب السيدة الثالثة التى صادف فى نفس محمد هوى قد أحدثت رجة فى دور النبي أكبر مما أحدثته أم سمية

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان وأصحت هدفا يسقذ وموصوعا للتندر خارج دائرة الأسرة وكان اسمها ريب ، وما كانت تصل بأى سبب بريب الأخرى (بقصد ريب بنت حزيمة) التى كانت ترقد رقتها الأخيرة .

كانت ريب هذه حميدة عند المطلب وابنة عمه محمد وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمد بقليل ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على ابرعم من أنها قد قتربت من الثلاثين ، وقد روجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعنده المخرور ريد بن حارثة . وكان ريد هذا فيح المطر قصيرا ألقى الأنف غير مثقف ، ولو نجح أمانته للإسلام وميده وشجاعته اشخصيه العظيمة لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة حدابة شريفة كريسة . وقد قبلت ريب الرواح بسبب إصرار محمد ولكنها لم تحب ريدا أبدا ، وما كان ريد نفسه يفهم الناس فلم يكن يدري كيف يعامل زوجته المدللة .

وداب يوم ذهب محمد ليزور ريذا ، فلما لم يجده أحد طرق الباب وندى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على ريسب الفاتنة وكانت بصف عارية ، فآثر هذا في عواطفه حتى قال : « سبحان مقلب القلوب » . ثم هروا خارجا في ارتباك .

رأت ريسب نظرة محمد في عينيها ، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال فقدرت ما سيقود إليه ذلك القول فلما عاد روحها إلى البيت أسأته عما حدث فما تركت تفصيلا وأصافت تفاصيل قبيحة من عندها . وإن أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إليه ولم يلو على شيء وعرض عليه أن يطلق زوجته ، فآثرت تصحية زيد بنفسه في محمد فأخبره أن يعود إلى ريسب وألا يفكر في ذلك ثانية .

وكانت لريسب أفكار أحر ، كانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت درعا بريد وترعب في أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بحل حياة زيد حثيما فطلقها ليهر من الاضطهاد المظم

وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والرواح ثم صم ريسب إلى روحه ، فابتدأت المتاعب وكانت الشائتان (عائشة وحفصة) مثيرتيها وقد نفتا أن لغيره أى دخل في هذا ، فراحتا تديعان فيما حولها أن هذا الرباط رباط فسق فإن ريذا ابن محمد ، والرواح من روحته يباي جميع الشرائع في العالم ، وإياها لفصيحة وإن شيئا كهذا لا يمكن أن يحدث !

وما كان زيد ابنا لمحمد فقد نباه فصار وريثه في نفس الوقت لدى

تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم وعلى الرغم من ذلك كانوا يدعونه بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار ابنه ، فلما رجعت عائشة وحفصة صوتيهما بالاحتجاج احتج المحتمعون في المسجد للصلاة فأصبح محمد في مأزق ، ولكن جاءه الوحى سريعا ولم يدع الوحى أى شك في التفريق بين الابن المتبني والابن المولود ، وقد قرر زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتبني أو مطبقته لا تدخل ضمن حرم الزواج من .

اعتاظت الشابتان وقالت عائشة لزوجها : « ما أرى ربك الا يسارع في هواك » . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا فقد كانت ربيب مرحه وقالت لكل من قابلته إن الله تدخل لمصلحتها وقد روحها بنفسه . وقد صحت عائشة وكذلك فعلت حفصة ولكن قصى تماما على كل ما أثارته .

وهذا الزواج من ربيب مكس العربيين وعلى الأحص الذين يعتقدون أن محمدا لا يصحح لشيء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك اهما الذى تستطرونه غير ذلك من هذا الخاتل الكبير »

وهؤلاء الرجال على كل حال ليسطرون إلى الأمر البقرة الخاطئة ، فإنهم لا يقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع الشرقى ، فإن للعرب اليوم وللرجال العظام أمثال اس السعود وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة ربيب عدة مرات في حياتهم التى يحبوها في القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تصع القبط فوق الحروف لكان من المحتمل ألا يقول أحد شيئا عن ذلك في المدينة عام

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل في ذلك الوقت كما هي اليوم إلى حد ما ، وما كان يتحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من العربيين ، وكانوا ينظرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإهام ويعتبرونها شيئا عاديا .

ولأنه لما يذهل العرب بفاق العربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليروا أن رجال القارة الأوروبية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يحتفلون عنهم في شيء فإن هم نفس شعورهم ، ويكهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجنسية المردوحة للذكر والأنثى كنظرهم إلى رذيلة كشرب الخمر سرا ، وكذلك يندو لكثير من كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بريب ومحمد بعائشة ومحمد بحورية بنت الحارث وقد أسرت في غارة ولم تدفع ديتها وأصاحت روحه محمد الثامنة بعد ريب شيئا غير عادي ، ولكنه ليس بشيء غير عادي إذا قورن بعادات رواح الحكام الآخرين في هذا الجزء من العالم كسيمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سيمان أبدا ، وإن قصة ريب أكثر ساطعة ولا ريب من قصة تشيبا أو أحوم روح أيحيال التي أعجب داود بها ليلة عرسه .

ويسعى ألا ينظر إلى حياة محمد الروحية من وجهة النظر العربية وألا تقاس بانشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا عربيين فقد كانوا يعيشون في زمن وفي قطر لا يعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب . وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوروبية والأمريكية أعظم من لأحكام العربية . إن عدد رجال العرب شيء الكثير الذي يعطونه لأهل الشرق وبهم في احتياح إلى أن يأخذوا

عنهم الشيء الكثير أيضا . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشتهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر فعليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى .

ويقول الأستاذ العقاد عن شطحات الخيال التى وضعت رواح النبي ﷺ — من ابة عمته زيب وصفا قصصيا لعب الغرام فيه دورا رئيسيا : « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإحراجها في قصة عرام تذايع للتشهير برسول لإسلام كما شاعت في القرون الوسطى . وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو أن روجة ريد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه السلام ، وأن النبي عليه السلام هو الذى روجها من ربيبه وعتيقه ريد . وما كان حماها حميا عليه قل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طولتها وتراه ولم تفاحه بروعة لم يعهدا وهو لا يطمع إلى الرواح من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس المضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم في بى المسمين ، وأن ريدا الذى روجه النبي من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه النبي فأخلص له ولديه . . وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسميته ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق دلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبي كما ينص لمثلها مع مثله . ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر . لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتا إليها ، ويشعر ريد بما تضره من الحر والآنفة فيهم بتطبيقها ولكنه يستكبر أن

يقابل جميل النبي برفض الزوجة التي اختارها له وميره بها على صحبه ،
فارتفعت بى الإسلام مروءته إلى حيث يسعى أن ترتفع مروءة الأنبياء ،
وأحل ريدا من حرجه وعوض زيب عن مهانتها ويعلم الناس أنها كفء
له وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتباه ، ولولا ذلك لعاشت
الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الروح من
كفء لها بعد تطليقها ، وليس مما يحجر حاطر الكسير أن يساق إليها
الروح الذى يكافئها وتكافئه مأمولا برواجها

تلك قصة أرسلوها فى عياهب القرون الوسطى ليظن الناس فى طلعاتها
إلى وصمة إنسانية يعاف من أحلها خلق الإنسان ويعاف الدين الذى
يدعو إليه من أجله . ويريد عندها خبر صغير لاشك فيه فإذا هى شهادة
بالسوة كأحسن ما تكون الشهادة للأسياء ، لأنها شهادة بعاية البر
والإحسان إلى الأسير الضعيف الغرب عن أهله ووطنه ، وعاية البر
والإحسان إلى المرأة المحروجة فى عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة
والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فصيلة الصدق مع فصيلة
العفة أكبر الأهداف التى تعمد بها أصحاب هذه المكيدة بالإبكار فيما
زيفوه من القصص المخرفة عن صفات النبى .

وقد دافع بعض المستشرقين عن مبدأ تعدد الزوجات ، فالمستشرق
« ألفونس أتين ديبه » فى كتابه « محمد رسول الله » يقول : « ولن
محاطر هنا محاولين عن عادة يحمل عليها الناس مثل هذه الشدة ، ولكننا
نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شئ ذائع فى سائر أرجاء العالم
وسوف يظل موجودا ما وجد أعلام مهما تشددت القوانين فى تحريمه ،

ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعاً من الففاق المستتر لا شيء يقف أمامه ويحدد من جماعه .

وقد لاحظ جميع الرحالة العربيين وخص منهم بالذكر « جيرال دى بيرفال » و « اللبدي موحان » أن تعدد الزواح عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشاراً منه عند المسيحيين الذين يعمون أنهم يحرمون الزواح بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يحدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مدئهم في هذا

ودافع ألبوس أتبيس دينيه في كتابه « أشعة حاصدة سور الإسلام » عن مبدأ تعدد الزوجات في الإسلام قال : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التي لا تلبس وبما هو يسائر قوانينها ويراد أن أرقامها بخلاف ما تفعله الكنيسة من معالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شؤون الحياة ، ومثل ذلك العرض الذي تعرضه على أبنائها الذين يتحدون الرهبة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء » .

على أن الإسلام لا يكفيه أن يسائر الطبيعة ولا أن يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولاً وأسهل تطبيقاً في إصلاح ونظام ورضا مبسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « باهدى » لأنه لم يرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير والأمثلة العديدة لا تعورنا ولكنها للقصر بأحد بأشهرها وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموصوع الذي صادف النقد الواسع واندى حب للإسلام في نظر أهل العرب مثالب حمة ومطاعن كثيرة (صلح الحديبية)

ومما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع وهو دين اليسر إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والذي فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الروجات الشرعيات وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد في الزوجة في قوله . « وإن حفتم ألا تعدلوا بواحدة » وأي رحل في الوجود يستطيع أن يعدل بين روحاته المتعددت ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل المنع ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وصفا هو غاية في الرفقة والدقة والنظف مع الحكمة ، ثم انظر هل يحقق أن الديانة المسيحية بتقريرها الحرية لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الروجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه انصحت مأخذه ؟ ولا فهو لاء ملوك فرنسا ، دع عت الأفراد ، الذين كانت لهم الروجات المتعددت والساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظم وإكرام وإن تعدد الروجات قانون طبيعي سيبقى ما بقى العالم ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذي أرادته فانعكست الآية معها وصربا تشهد الإعراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة الملعونة التي حرمت ثمراتها فكان التحريم إعراء . على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية طاهرا تطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأحص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر حسيمة

البلاء ، تلك هي الدعارة والعوانس من النساء والأساء غير الشرعيتين »
 كان رجال الكنيسة يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح ،
 ويقول « ساد بوناكتور » إلى تلاميذه « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم
 ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وإنما الذي ترونه هو الشيطان بداته
 والذي تسمعون هو فحيح الأفعى » . وكان ينظر إليها في الأرمات العابرة
 كما ينظر إلى الرقيق فهي متاع الروح وليست بداته له ، وكان من حق
 الرجل وحده أن يملك متاعا في حين كان محظورا على المرأة أن تملك أى
 متاع أو أن تقوم باسمها مباشرة أية عملية تجارية ، وعلى ذلك لم تكن
 شحصا بمعنى الكلمة ، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كأنه
 وكروحة أو كم فكات وهي ابنة ملكا للأب وهي راحة ملكا
 للروح ، فكان نصف الجنس الشرى ، النصف الهام المسئول عن إعمار
 الجنس الشرى جميعا منقذ به في روايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا
 نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تنهأ لتلقى
 الروحانيات ؟ وكان ينظر للزواج على أنه حجر عثرة في سبيل التقدم
 الروحي للإنسان حتى في المسيحية التي كان ينظر فيها إلى الزواج على أنه
 شر لابد منه .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقوى عود المادية المادية استطاعت
 المرأة أن تناضل من أجل حقوقها فظهرت ببعض منها ، ولكنها ميتة
 بالحياة بعد ذلك الفور إذ فقدت الاستقرار والهياة المادية ، فقد أضعفت
 المادية من قوة الدين الوردية وأدت إلى حالة منحلة في العلاقات بين
 الروحانيين ، فكان من نتيجة ذلك أن حصصت في أوروبة خصوصا مطردا
 للإباحة وطرح للزواج حايلا لا لعب طبيعي فيه ولكن لأنه يلقي ببعض

المسئوليات على كاهل الإلهين الذين يفكران في إنشاء بيت . فانسطرة
المادية جعلت من الإنسان أنانيا كبيرا ، فبما يجرى وراء كل منعة فإنه
يتملص من مسئوليات الحياة الجديدة حتى يحيا حياة خالية من المتاعب .
ولكن الحياة لها نصيبها من الأتراح ، والرواج إذ يقوى من روابط الحب
المتبادل بين الرجل والمرأة ويريد في سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما
المتاعب والأحزان معا ، وإلّا باحثة تجعل كلا الحسنيين أنانيا إلى أقصى حد
لأن الرجل والمرأة إذ ما أصبحا إلهين لمتعة فقط ترك كل منهما الآخر
وحيدا لأحزانه .

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دورا هاما في تنظيم العلاقات
فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقا حرا له حق الاحتفاظ بما يملك أو
بيعه إذا شاء ، وهذا الحق أصبحت المرأة متمسوية بالرجل فقصى على مبدأ
التفرقة بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية مشتركة كما قصى على مبدأ
التفرقة بينهما أمام القانون والحقوق العامة وقد تقرر مركز المرأة في
الإسلام من ثلاثة عشر قرنا فقد أنزل الله على رسوله ﷺ للرجال نصيب
مما اكتسبوا وللساء نصيب مما اكتسبن^(١) . وهكذا أصبح في
استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوره كالرجل ، ولم يميز النظام بين
الحسين في هذا الحق فهي وسعها أن تباع وأن تشتري وأن تهب مالها لمن
تشاء ، ﴿ فإن طيس لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هيبا مريثا ﴾^(٢)
شرع الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص

(١) النساء ٣٢ .

(٢) النساء ٤

الإسائية في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ (١) ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب ﴾ (٢) . ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلحبيبه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

وأباح الإسلام للمرأة التعلم تحتلّف أنواعه ومراحلته بل جعله فريضة عليها في الحدود الضرورية لها في شتّى ديارها وديارها ، وفي هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها تتعلم الكتابة في الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتربيته كما علمتها أصل الكتابة .

وجعل الإسلام الأثني تراث كالدكر بعد أن كان العرب يخضعون لتقليد يقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من يستطيع أن يحمي دمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو وهو ما لم تعد الطبيعة المرأة له ، ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ (٤) .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة ، لا حيث تدعو إلى هذه التفرقة

(١) آل عمران ١٩٥ . (٢) النساء ١٢٤

(٣) النحل ٩٧ . (٤) النساء ٧

مراعاة طبعه كل من الحسنيين وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصاح المرأة نفسها ، وترجع أهم النواحي التي قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى خمسة أمور : الأعباء الاقتصادية ، والميراث ، والقومة على الأسرة ، والشهادة ، والطلاق

ففي الأعباء الاقتصادية كان الإسلام رحيما بالمرأة وكفل لها من أسباب الرق ما يصونها عن التبدل ويحميها من شرور الكدح في الحياة ، فأعفها من كافة أعماء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت امرأة غير متروكة ولا معتدة من روح فنفقتها واجبة على أصولها أو فردعها أو أقربائها حسب ريب الفقه الإسلامي هم في وجوب النفقة . فإن لم يكن لها قريب قادر على الإيقاع عليها فنفتها وجبة على بيت المال .

وكذلك شأنها في جميع مراحل الزوجية سواء في ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق ، فقد ألقت الشريعة الإسلامية على كاهل الرجل واجبات اقتصادية هي مقدم الصداق وإعداد منزل الزوجية دون أن تكلف المرأة أو أهلها أي عبء من هذا القيل . وفي أثناء الزوجية أعمت الشريعة الإسلامية المرأة من أعماء المعيشة واحتفظت لها بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة فلها شخصيتها المدنية وثرونها الخاصة ولا تكلف أي عبء في نفقات الأسرة مهما كانت موسرة .

وليس الزواج في الإسلام حائلا في سبيل السمو الروحي ولكنه

وسيلة تؤدي إلى زيادة هذا اسمو ، فقد خلق الله الزوجين ليسكن بعضهما إلى بعض : ﴿ من لباس لكم وأنتم لباس هن ﴾ (١) .
ويطر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرق الإنسان ،
الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف الحب والخير ، فالزواج حسب النظام
الإسلامي الاجتماعي هو الحالة الطبيعية التي ينبغي لكل رجل وامرأة أن
يندج فيها . قال عليه السلام : (إني أتروح النساء فمن رعب عن ستي
فليس مني) .

ويعتبر الزواج في النظام الاجتماعي الإسلامي ميثاقا يعقد على أساس
الحب المتبادل بين الرجل والمرأة في حضور شهوده ، من المهم إعلان
ميثاق الزواج فالإعلان هو العارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب
إعلان كل عقد رواج ولو بدق الدفوف . (أعلنوا هذا الكاح واجعلوه
في المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

ولا تنفى شخصية المرأة في الرجل بالزواج ، فبينا لا تفقد شيئا من
حقوقها المكتسبة كفرد في الهيئة الاجتماعية البشرية فإن حياتها الجديدة
تنقى عليها مسؤوليات جديدة كما تجلب ما حقوقا جديدة : ﴿ ولهن مثل
الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ (٢) .

وفد وضحت هذه النظرية جيدا في الحديث الشريف : (كلكم راع
ومستول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومستول عن أهله ،
والمرأة راعية ومستولة عن بيت زوجها)
والبيت هو الدولة في صورة مصغرة ويسيطر عليه الرجل والمرأة
معا ، ولكن ما لم يكن هناك تماوت في القوة بينهما فسيضطرب نظام

(١) البقرة ١٨٧ .

(٢) البقرة ٢٢٨ .

هذه ائمتكم : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ (١) .

ويحضر النظام الإسلامى بشئنا على معاملة الروجة معاملة طيبة ، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾ (٢) . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ (٣) ، والرحمة بالمرأة واجبة حتى فى حالة الكراهية . ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ (٤) . قال ﷺ : (خياركم خياركم لساكنهم) ، وقال ﷺ ، فى خطبة الوداع . (أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساكنكم حقا ولهن عليكم حقا ، فاستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا) .

وإذا ما انفصلت الزوجية بالطلاق يتحمل الزوج وحده فى الإسلام جميع الأعباء الاقتصادية ، فعليه مؤخر صداق زوجته وعليه نفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وعليه نفقة أولاده وأحور حصانهم ورصاعتهم فى دور الحصانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك ، موضعت الشريعة الإسلامية المرأة فى أعلى مرتبة من قبل الزواج ومن بعده وسمت بها فى الحاليتين إلى مستوى رفيع لم تصلها إلى مثله بل لم تصل بها إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه .

إن الإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج فى

(١) النساء ٣٤ . (٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) النساء ١٩ . (٤) النساء ١٩ .

ظروف استثنائية ، فقد كان الناس على طرق نقبض قبل الإسلام فيما يختص بالطلاق . ففي الشريعة الهندوسية لا يفصم الزواج الذي يعقد بتاتا ، والطلاق في الشريعة الموسوية في يد الرجل وحده يستعمله وقتما يريد ، أما في المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت حيانة من الطرفين ولا يسمح مطلقا للمطلقين أن يتزوجا ثانية . أما الإسلام فقد اتحد موقفا وسطا بين هذه الآراء المتغالية ، فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمرا مكروها ويتلمس السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذا يقر حق الزوجة في الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والزواج في الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين ، فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وحب الطلاق . والعقيلة الإسلامية على العموم تبعض الطلاق : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ولا يجوز الطلاق قبل محاولة الإصلاح : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ (١) .

قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الخطر أي الحرمة والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الأذى بها وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

الميحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطْعَمَكُمْ فَلَا تَفْغَوْا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ ^(١) .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة في حق طلب الطلاق ، فقد جاءت جملة روجة ثابت بن قيس إلى النبي ﷺ — تطيب الطلاق من روجها قائلة :

— يا رسول الله إني لأجد عيبا في ثابت في خلقه أو دينه ، إلا أني لا أطبقه .

فلما سئلت هل ترد له الحائط (استئان) الذي أمهرها إياه ؟ وأجابت بنعم ، أمر البني ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد أسهب الدكتور على عبد الواحد واى في كتابه « حقوق الإنسان في الإسلام » عند التحدث عن تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة في حق الطلاق ، قال : « يأخذ كثير من علماء الفرحة المسيحيين على الإسلام أنه أباح الطلاق وجعله حقا للرجل وحده ، ويتابعهم في ذلك بعض المنتمين من أبائنا المصريين والمنتمين من بناتنا المصريات ؛ فبجأ هؤلاء وأولئك بالشكوى من الوصع الإسلامى ويطلبون إلى المشرع المصرى أن يتدخل في هذا النظام ليقمه على القواعد التى تسير عليها أمم الغرب المسيحية ؛ فيرفع بذلك بلدنا المتحلف البائس إلى مصاف الشعوب المتحضرة الراقية !

وقبل أن ترد على الفرجة والمنتمين والمنتمين ، وبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وهو الوصع الذى يجهله كثير

(١) النساء ٣٤ .

مهم ، ويتجاهله بعضهم مكابرة وعنادا واندفاعا وراء رعايتهم الآتية في الكيد للإسلام ونشويه تعاليمه وتوهمين منزله في نفوس معتقيه ، قبل أن نرد عليهم ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام وأنه أمثل نظام عرفته الشرائع ، يحذر أن يلقى نظرة محممة على نظام الطلاق في أمم الغرب المسيحي ، وهو النظام الذي يريدوننا على السير عليه ويطلبون إلى أولياء أمورنا أن يستوردوه إلى مصر .

ترجع جميع المذاهب المسيحية التي تعنقها أمم الغرب المسيحي إلى ثلاثة مذاهب . المذهب الكاثوليكي ، والمذهب الأرثوذكسي ، والمذهب البروتستانتي .

فالمذهب الكاثوليكي يحرم الطلاق تحريما تاما ولا يسمح فسخ الزواج لأي سبب مهما عظم شأنه وحتى الحياة الزوجية نفسها لا تعد في نظره مبررا للطلاق ، وكل ما يبيحه في حالة الحياة الزوجية هو التفريق الحسنية (حسب تعبيرهم) بين شخصي الزوجين مع اعنار الروحية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما في أثناء هذه التفريق أن يعقد زواجه على شخص آخر لأن ذلك يعتبر تعددا للزوجات ، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد محال . وتعتمد الكاثوليكية في مذهبها هذا على ما جاء في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » وبعض الفرق التي اشعت عن لكنيسة الكاثوليكية تبيح الطلاق في حالة الحياة الزوجية من الروح أو لزوجة ، ولكنها تحرم كذلك على كلا الزوجين أن يتزوج بعد ذلك . والمذاهب المسيحية لآحران الأرثوذكسي والبروتستانتي يبيحان الطلاق في بعض حالات محدودة من أهمها الحياة الزوجية ، ولكنها

كذبت يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتروجا بعد ذلك .
وتعتمد المذاهب المسيحية لتي تبيح الطلاق في حالة الحياة الزوجية
على ما ورد في إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته
إلا بسبب الرنا يجعلها تزني » .

وتعتمد المذاهب المسيحية في تحريمها الزواج على المطلق والمطقة على
ما ورد في إنجيل متى كذلك إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزني » .

هذه هي مسيحياتهم وهذه هي أناجيلهم ، وأقول « مسيحياتهم » لأن
المسيحية المحاصرة التي يعتنقونها تختلف كل الاختلاف عن النصرانية التي
يحدثنا عنها القرآن ويذكر أن الله أرسل بها عيسى إلى قومه ، فالقرآن
يحدثنا عن ديانة سماوية سمحة قائمة على الاعتقاد بوحدانية الله ورعاية
مصالح العباد ، أما نصرانيتهم فهي أمشاح من التثليث الهندي والوثنية
الرومانية القديمة وعناصر أخرى أحدثت من هنا وهناك ومرح بعضها
سعض في تكوين متنازع غريب وهي فيما يتعلق بالتشريع الديوي لا
تقيم وزنا لطبيعة الإنسان ولا ترعى مصالح العباد كما سيظهر لما ذلك من
تحليل لما تذهب إليه بصدد الطلاق . وأقول « أناجيلهم » لأن هذه
الأناجيل تختلف كل الاختلاف عن الكتاب المقدس الذي يحدثنا القرآن
أن الله أرسله على عيسى . وهي في معظم ما تحتوي عليه تحريف لكم الله
عن مواضعه وتلميق من صنع بابواتهم وكنايسهم ومجمعهم ، بل إن
مسيحيهم نفسه ليختلف كل الاختلاف عن المسيح الذي يحدثنا عنه
القرآن ، فالمسيح في القرآن إنسان من البشر يأكل الطعام ويمشي في
الأسواق ، أما مسيحيهم فهو كائن غريب تحار في إدراكه العقول : هو
ابن الله (أرسله أبوه إلى بنى آدم ليقتلوه أو يصبوه فيكفر بدمه الخطيئة

التي ظلت عالقة بهم جميعا مد أن عصي أبوهم آدم وأكل من الشجرة ،
والتي كانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يعثون لولا أن افتداهم الله
بالتضحية بابنه العزيز) ، وهو في الوقت نفسه إله ، أو جزء من إله أو
إنسان وإله في آن واحد .

ولكن لترك هذا الموضوع والحديث فيه طويل ودو شحون ،
ولتأمل فيما تقرر مسيحيتهم وأناجيلهم في الموضوع الذي نحن بصدده
وهو نظام الطلاق .

فإذا بلغ الشقاق بين الزوجين إلى حد استحالة عهده الصالح
وأصبحت معه الحياة الزوجية جميعا لا يطاق ، وأصبح أفراد الأسرة
جميعا ذكورهم وإناثهم صغارهم وكبارهم مهددين من جراء ذلك بأسوأ
النتائج وشر الكوارث في مختلف فروع حياتهم المادية والمعنوية والخلقية ،
فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق
وتأمرهما أن يبقيا معا على هذه الحال وفي هذا الحميم وليكن ما يكون من
معقبات ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا تنافرت طباع الزوجين كل التنافر ، أو ألقى في نفس أحدهما أو
كليهما كراهية شديدة للآخر حتى إنه ليفصل أن يرى الموت ولا يراه ،
وعجزت جميع الوسائل الإنسانية عن علاج هذه الحال لأن القلوب بيد
الله ولا سلطان لأحد على كثير من شعونها ، فإن هذه المسيحية وهذه
الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما بأن يقصيا حياتهما
على هذه الحال وفي هذا العذاب ، لأن « ما جمعه الله لا يفرقه
الإنسان » .

وإذا سدت أخلاق أحد الزوجين ولم يرع لعقد الزواج عهدا ولا

حرمة ، والسدغ فى تيار المسق والمحور وأصح فصيحة الفصائح لكل من يرمى إليه ومصدر شر وبيل لكل من يتصل به ، وعمزت جميع وسائل التقويم عن إصلاحه ورده إلى الطريق المستقيم ، فإن هذه المسيحية وهذه الأنجيل تحرم الطلاق منه ونوجب على الزوج الآخر أن يبقى معه على هذه الحال . وقد تتساهل أحيانا تسمح له بالانفصال عنه بحسبه فحسب أو بطلاق صورى بدون أن تسمح له بأن يستأنف حياة أخرى صاحبة مع روج آخر أو روجة أخرى ، لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان . ولأن من يتروح مطلقة يرى .

وإذا جن أحد الزوجين جونا مطلقا وفقد جميع مميزات الحيوان الناطق ، بل أصبح فى تصرفاته أصل سيلا من الأنعام ومصدر خطر كبير لكل من يعاشره ، أو أصيب بمرض معد خطير لا يرجى برؤه ، أو فقد مقومات حسه ، أو كان عقيما لا يند فأصح لا يحقق أهم عرص من أعراض الزواج ، أو عاب عيبة طويلة ولم يعرف أحمى هو أم ميت أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الإنفاق على الزوجة وأصحت الزوجة بذلك معرضة إذا بقيت على دمه لأن تموت جوعا أو تأكل بشديها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأنجيل لا تسمح بطلاقه فى حالة من هذه الحالات ، وإن سمح به لا تسمح لمطلق أن يتروح لأن ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان ، ولأن من يتزوج مطلقة أو مطلقا يرمى . ولا تسمح بأن يبقى الروح على روجة هذه حاملا ويتروح معها روجة أخرى لأنها تحرم التعدد على أى حال .

وقد رفعت أحياء سيدة مسيحية مصرية تدعى السيدة راهية عارر مرقس دعوى أمام محكمة قنا الابتدائية للأحوال الشخصية ضد زوجها

تطلب فيها تطبيقها منه لأنه تركها بدون الإيفاء عليها ، ولم تستطع تعيد أحكام النفقة التي كانت قد استصدرتها صده بسبب إعساره ، وبعد أن استعصت المحكمة وقائع هذه القضية قضت برفضها اعتمادا على « أن أحكام الشريعة المسيحية مدونة في الإنجيل ، وقد أشار في مواضع متعددة إلى رابطة الزوجية بوصفها بأنها رابطة مقدسة وهي سر من أسرار الكنيسة السبعة . وحرم على بى الإنسان التعرض لها أو حل عقدها لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » . ومضت المحكمة تقول . « وإنه من العجيب أن بعض القوامين على الدين من رجال الكنيسة وأعضاء المجلس الملى العام قد سايروا التطور الرسمى فاستجابوا لرغبات صعيبي الإيمان فأباحوا الطلاق لأسباب لا سدا لها من الإنجيل ، وحكم الشريعة المسيحية في الطلاق قاطع في أنه غير جائز إلا لعللة الزنا ، ورتب على رواح أحد المطلقين بأنه رواح مدس بل هو الرنا بعبه » ، وانتهت المحكمة إلى « أنها لا تستطيع ، وقد نيط لها تطبيق أحكام الشريعة المسيحية مسايرة مدعية فيما تطلبه من طلاق تستند فيه إلى الإعسار ، وهو سبب لا يمت إلى علة الرنا بصلة من أى نوع كانت ، ومن ثم يتعين الحكم برفض الدعوى » .

وإذا كان مسلك أحد الروحانيين أو كليهما حيال الآخر أو معاملته له تنصوى على ضرر بليغ أو على ضرر متبادل وعجزت جميع طرق العلاج عن إصلاح هذه الحال ، فإن هذه المسيحية وهذه الأنجيل تحرم كذلك الطلاق « لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان »

وإذا رأى الروحانيان نفسيهما أن استمرار زوجيتهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليعنى الله كلا من

سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفهما على حال يتعذر الإبقاء عليهما ولا يريد أحد منهما أن يبقى عليهما ، وليكن ما يكون من معقبات لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

ولبت شعري ! ما بال إلههم هذا الذى بلغ فى حموده وعجره أنه يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ثم لماذا يمسون الجمع لله وبمسون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة التى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى ؟

ولما كانت الحالات التى صرنا أمثلة لها ليست حالات حيالية بل كثيرا ما تحدث ونحدث أشباهها وبطائر فى حياة الآدميين ، ولما كان العربيون من قصيدة بنى آدم وليسوا من قصيدة الحى أو الملائكة ، فقد رأوا أنه من المتعذر عليهم ما دامت طبيعتهم من طبيعة الإنسان أن يسيروا على تعاليم هذه المسيحية وهذه الأناجيل فى شئون الطلاق ، فاستحدثوا من القوانين المدنية ما يبيح لهم حل عقدة الزواج فى هذه الحالات وما إلهي ، وساروا على هذه القوانين فى حياتهم العملية وتركوا قواعد الكنيسة تنعى من أقامها .

وفى نقد هذا النظام الكسبى يقول واحد من كبار فلاسفة المسيحيين أنفسهم وهو العلامة الإنجليزى بدم Pentham فى كتابه « أصول التشريع » :

« حقا إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته والأوفق لأحوال الأسرة والأولى بالأخذ .. ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل

ألا تفصل عنه حتى لو حلت في قلوبهما الكراهة الشديدة مكان الحب
لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحد من الناس . على أن هذا الشرط
موجود بدون أن تطلبه المرأة . إذ القانون الكسبي يحكم به فيتدخل بين
العاقدين حال التعاقد ويقول لهم : أنتما تقتربان لتكونا سعداء فلتعلما
أنكما تدخلان سجا سيحكم إعلاق بابه .. ولن أسمح بخروجكما وإن
تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء .. ٤ . ويعلق الفيلسوف الإنجليزى على
هذا الوضع بقوله : ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه
لتنوعت صفوف القتل واتسعت مداهيه .

ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين المدنية ما يمتنع
لهم أبوابا للطلاق ويعمهم من أن يلجئوا إلى القتل أو الانتحار للحرج
من هذا السجن .

وهذه الظاهرة وهى لسير في الأحوال الشخصية وفق قانون مدنى
يختلف عن تعاليم الدين لا تكاد توجد في غير شعوب الغرب المسيحى .
فجميع أهل الملل والحل الأخرى حتى البرهميون والبوديون والوثنيون
والنجوس يسرون في أحوالهم الشخصية وفق تعاليم دياناتهم . وقد نجد من
بينهم من استحدث في الأحوال العينية قوانين مدنية تختلف عن تعاليم دينه
ولكننا لا نكاد نجد من بينهم من استحدث قوانين مدنية في الأحوال
الشخصية أى في شئون الزواج والطلاق .. وما إلى ذلك . وأمكن هذه
الملل والحل أن تسير الحياة العملية وتجارى طبيعة البشر في هذه الشئون .
والمسيحيون وحدهم هم الذين كفروا بدينهم من الناحية العملية في
الأحوال الشخصية على العموم وفي شئون الطلاق على الخصوص لأنهم
هم أنفسهم قد وحدوا أن تعاليمهم في هذا الصدد تكرر الواقع وتتجاهل
(صلح الحديبية)

طبيعة الإنسان ولا تصبغ للتطبيق في الحياة .

وم يستطع رجال الدين المسيحيون سيلا إلى صد هـ التيار ولا إلى الوقوف في وجه المسطق والعقل وصرورات الحياة ، فتركوا الأمور تجري في أعنتها واكتفوا بأن يظهروا من حين لآخر على مسرح الحوادث حينما يتعلق الأمر بمملك أو أمير أو عظيم ، وحينما تكون الظروف السياسية موافية لظهورهم ليثبتوا وجودهم وليبقوا على شيء من سلطانهم الديني كما حدث في موضوع مملك المحتلرا الأسبق إدوارد الثامن الذي أراد أن يتزوج بمطقة مملك عليه قلبه ، وكانت الظروف السياسية موافية حينئذ لإخراج هذا الملك والوقوف في سبيل رعاته فظهرت الكنيسة مهددة بأناحيلها وبأن « من يتزوج مطقة يزي » فحير بين أن يمثل لهذه الخرافات ويحتط بالعرش أو يرل على حكم عقله وقببه ويتارل عن الملك فآثر العقل على الخرافة والقلب على الناح ، ومن الغريب أنه كان معروفا لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه وهي لا ترال في عصمة زوجها قبل أن تطلق منه وكان لها حياح خاص في قصره ولم يرتفع صوت من الشعب ولا من رجال الكنيسة بالاحتجاج على ذلك ؛ لأن هذه الأمور تعد في عرفهم من الهبات الهبات ، ولكن حينما أبدى رعبه بعد أن تمت إجراءات طلاقها من زوجها الأول بأن يتزوجها على سنة الأب والابن وروح القدس ، وبأن يعاشرها معاشرة مشروعة ، معاشرة الزوج بوجه لا معاشرة اخيل لحيته ، قامت في وجهه الكنيسة وقام في وجهه رجال الدين . وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مارجريت أحب ملكة الإنجليز الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبه وأحبها (الكاتين

تاوانسد) فقامت قيامة الكنيسة في وجهها لأن هذا الضابط قد طلق
روحة من قبل ، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطلقا يزني ؛ مع أن
طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوصاف المدنية والكنيسة نفسها لأن زوجته
السابقة قد ثبتت عليها الحياة الزوجية بأدلة قاطعة ، والكنيسة
البروتستانتية نفسها التي يدين بها الإعلير تبيح الطلاق في هذه الحالة .
وهكذا لا يظهر رجال الكنيسة بسخافاتهم هذه إلا حياء يكون الأمر
متعلقا ملك أو أمير أو عظيم وحيما تكون الظروف السياسية مواتية
لظهورهم ، ولا يقصدون بذلك إلا انتهاز الفرص لإثبات وجودهم في
صورة بارزة والإبقاء على شيء من سلطانهم الديني والظهور أمام الشعب
عطهر الحلال والقدسية ، وإقامة الدليل له بطريق عملي على أن مكانهم
فوق مكانة التيجان ومنزلتهم فوق منزلة الأمراء والملوك . ولا أدل على
ذلك من أن آلافا من حالات الطلاق ورواح المطلقين والمطلقات تحكم
بها المحاكم الأوروبية والأمريكية وتمدها الهيئات المدنية في مختلف شعوب
العرب المسيحي على مرأى من الكنيسة ومسمع منها بدون أن تحرك
سائكا أو تقوى على الاعتراض على القوانين التي تبيح ذلك أو على
حالات تطبيقها . ولا أدل على ذلك أيضا من أن رئيس وزراء إنجلترا
(سير أنطوني إيدن) قد طلق زوجته الأولى التي هربت مع عشيقها إلى
أمريكا وهو الآن متزوج غيرها ، ولم يرتفع صوت من الكنيسة
بالاعتراض عيه ولا على توليه أكبر منصب في الدولة لأن الظروف
السياسية غير مواتية لارتفاع مثل هذا الصوت .

هذا هو النظام المسيحي الذي أهمله أهله أنفسهم ، لما تبين لهم من
فساده وعدم ملاءمته للحياة الواقعية ، ولكنهم يريدون أن يسير عليه

وأن نترك نظامنا الإسلامى ، ويتابعهم فى هرائهم هذا المتفرجون من أباثا والمتفرجات من باتا وهم لا يدرون أن الفرجة لا يقصدون بذلك إلا الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه القديمة وتوهين مركزه فى نفوس معسقيه وإشاعة الفوضى والاحلال فى الأمم الإسلامية .

قد يقول السفهاء من الفرجة والمتفرجين والمتفرجات إنهم لا يريدون أن تسير على النظام المسيحى بل يريدون أن يسير على عرار الطم المدنية التى تسير عليها أمم العرب فى شئون الطلاق . ولكن هل نجحت هذه المظم لديهم حتى نستورها منهم ؟ الحقيقة أنها قد أحقت لديهم إخفاقا مينا كما أخفق نظامهم الدينى ، وصاعت بين هذا وذاك مقومات الأسرة عندهم وأصبحت مهددة بالانهار ، بل إهارت بالفعل فى كثير من شعوبهم ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لا تحقق شيئا من أهدافه

فقد انقسمت قوانينهم المدنية فى شئون الطلاق إلى طائفتين :

فأما الطائفة الأولى فقد فرطت كل التفريط فى احترام عقد الزواج فلم نزع ما له من حرمة وقسية وجلال ، فأجارت الطلاق لأنفه الأسباب كما هو الشأن فى بعض ولايات أمريكا الشمالية . فلم يصبح غريبا فى هذه الولايات أن تتزوج المرأة فى الصباح وتطلق من زوجها فى المساء وهذا هو قصارى ما يصل إليه الاستهتار بمظم الاجتماع الإنسانى والانهيار فى قواعد الأسرة .

وأما الطائفة الثانية فقد توسعت بعض التوسع فى شئون الطلاق بالقياس إلى النظام المسيحى ، ولكنها لا تزال متأثرة بروح الكنيسة فلم تح الطلاق إلا فى حالات محدودة وبطرق وإجراءات معقدة كل

التعقيد ، ولا تنتهى إلى الطلاق إلا بعد أمد طويل كما هو الحال في فرنسا ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدني الفرنسي لا يبيح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الربا من أحد الزوجين ، وثانيها تجاوز الحد والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثها الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة ، فالمرض والإصابة بعاهة والحنون نفسه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد في المعاملة والغيبة الطويلة والشقاق البالغ واتفاق الطرفين على الفرقة ... كل ذلك وما إليه لا يبيح الطلاق في نظر القانون . وأحد الأسباب الثلاثة التي ذكرها هذا القانون وهو الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يتحقق إلا في حالات المحرمين . والسبب الثاني وهو تجاوز الحد والإهانة البالغة في معاملة أحد الزوجين للآخر يصعب إثباته ، ولذلك يعتمد معظم من يريدون الطلاق هناك على السبب الثالث وهو الزنا فيجمعون الأدلة اللازمة لإثباته وإفشاء القضاء به إن كان قد حدث بالفعل من أحد الزوجين ، أو ينفقونه تلفيقا ويقدمون لإثباته أدلة مزيفة ووثائق محتلفة ويقرون باقراره كذبا أمام القضاء لتسهيل عليهم الفرقة . فلا يكاد يستطاع الطلاق إذن بحسب هذه الطائفة من القوانين إلا إذا تمها لها سبب واحد وهو عار الأبد للزوج والروحة وأولادهما ونسلهما وأسرتيهما وجميع من يلوذ بهما . مع ذلك لا يتم الطلاق إلا بنفقات باهظة لا يقوى عليها إلا كبار الأغنياء ، وبعد إجراءات طويلة معقدة تستغرق في العال عدّة سنين ، وبحكم فيها أولا بالفرقة الجسمية فحسب *Separation de corps* ثم تستغرق مدة أخرى حتى يحكم بالطلاق .

ومن ثم كثر في هذه الشعوب اتخاذ الزوجات للأخلاء واتخاذ الأرواح

للحليلات وهجر الأرواح والروحيات منتزح الروحية وقرار الروحيات مع عشاقهن والأرواح مع عشيقاتهم ، وأصبحت هذه الأمور وما إليها في كثير من بلاد أوربا وأمريكا شيئا عاديا ، وأصبحت الأسرة شيئا لا قيمة له ، وأصبحت علائق النسب الصحيح بين الآباء والأولاد موطن الشك وفريسة الارتباب .

هذه هي نظمهم المدنية : طائفة منها تخرد عقد الزواج مما له من حرمة وقُدسية وحلال فتيح الطلاق لأتفه الأسباب ، وطائفة أخرى تنشد كل التشدد فلا تكاد تبيحه ، إلا لفصيحة تلحق لأسرة في حاضرها ومستقبلها ، وبإجراءات معقدة طويلة ، هذه بدعت حد الإفراط وتلك بدعت حد التصريط ، وكلاهما يؤدي إلى شر مستطير ، ومن ثم اضطرب نظام الأسرة واهارت قواعدها في معظم أمم العرب المسيحية .

فهذه الأمم لم تخرج إذن عن نظام الكنيسة العاسد في شئون الطلاق إلا لتسير على نظم مدنية لا تقل عنه كثيرا في فسادها وما تؤدي إليه من اضطراب في شئون الأسرة وإسهار في مفومات الأخلاق .

ولأن وقد تبين لنا فساد نظمهم المسيحية ونظامهم المدني كليهما في الصلاق ، وظهر لنا أن استيراد أحدهما كما يتأدى بذلك الجحيلة من المتفرجين من أبناء المصريين والمتفرجات من بناتنا المصريات ، سيؤدي حتما إلى إسهار لأسرة والقضاء على جميع مقوماتها . الآن وقد تبين لنا كل ذلك مجسداً أن نعرض نظام الطلاق في الإسلام ، وهو النظام الذي ينقذه المرتجة والمتفرجون والمتفرجات ويزعمون أنه قائم على عدم المساواة بين الروح وروحه ، ليظهر لنا إن كانوا في نقدهم إياه على هدى أو في ضلال ميير .

أجل ! لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التي يضطرب فيها بو الإنسان ، ولأنه كثيرا ما يحدث في هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلي والاجتماعي .

ولكن الإسلام لم يوجه على الإطلاق بل قيده بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وتكفل تحقيق التوازن في حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما في هذه الشؤون .

فالإسلام يحيط عقد الزواج بسياج من القدسية ، ويضفى عليه من اجلال ما يميزه عن سائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس في شئون حياتهم من الرامات ، ويرلّه في النفوس منزلة المهابة والإكبر . ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أى عقد آخر فسماه بالميثاق العليظ ، قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا عليظا ﴾ (١) . وغنى عن البيان أن ميثاقا ينظر إليه الإسلام هذه النظرة لا يمكن أن يكون قصمه من اهانات الهيئات .

ولذلك بقّض الإسلام الناس في الطلاق وصوره في أبشع صورة وحث لمسلمين على اتقائه ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك . وى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أبقض الحلال إلى الله الطلاق) ، ويقول : (تروجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن) .

ولم يكتف الإسلام بهذا الرجر وهذا الوعيد بل اتخذ من النظم في شئون أسرته ما يكفل تحاشي الصلاق إلا لأسباب قوية قاهرة .

(١) النساء ٦١ .

فقرر أنه لا يصح الالتحاء إلى الطلاق لأسباب يمكن علاجها ، أو
 لأمر يمكن أن تتغير في المستقبل ، أو لا تحول يطبعها دون استقرار الحياة
 الزوجية على وجه ما ، وحتى الأمور التي تتعلق بعاطفة الزوج نحو
 زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا بعدها الإسلام من مبررات
 الطلاق . فالإسلام يرى أنه لا ينبغي أن يعكس الأرواح في الطلاق مجرد
 تغير عاطفتهم نحو زوجاتهم أو طرد كراهية هن ، أو مجرد عدم ارتياحهم
 إلى بعض أحوالهن وأخلاقهن التي ليس فيها ما يمس الشرف أو الدين ؛
 لأن هذه العواطف متغيرة متغيرة ولا يصح أن تبنى عليها أمور خطيرة
 تتعلق بكيان الأسرة ، وبعض الإنسان اليوم قد يصبح حبيبه يوما ما ،
 والزوج إن كره من امرأته حلقة فقد يكون فيها خلق آخر يرضيه ، وفي
 هذا يقول الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى
 أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ ^(١) . ويقول عليه الصلاة
 والسلام : (لا يفرك ^(٢) مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضيت منها
 آخر) ، أي لا ينبغي للمؤمن أن يكره زوجته لخلق واحد لا يعجبه منها
 ويتعاضى عما بها من أخلاق أخرى فاصلة تعجبه . وحاء رجل إلى عمر
 ابن الخطاب رضي الله عنه يستشير في طلاق امرأته ، فقال له عمر لا
 تفعل ، فقال ولكي لا أحبها ، فقال له عمر ويحدث ألم تبس البيوت إلا على
 أحب فأبى الرعاية وأبى التذم ١٩ . يقصد أن البيوت إذا عر عليها أن

(١) النساء ١٩ .

(٢) هراء الرجل روجه . من باب سمع ، كرهها وأبغضها وفركته كدك ،

(انظر القاموس المحيط) .

تبنى على الحب فهي حليفة أن تسي على ركنين آخرين شديدين : أحدهما الرعاية التي تث المراحل في جوانبها ويتكافل بها أهل البيت في معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التدم والتحرر من أن يصح الرجل مصدرا لتفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتي من وراء هذه السيئات من نكد العيش وسوء المصير .

ومن الظلم التي قررها الإسلام كذلك لتعاشي الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملوا على إزالته بإثارة دواعي الرحمة والوئام ، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشورا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ (١) .

ومن الظلم التي قررها الإسلام كذلك لتعاشي الطلاق أنه أوجب على الزوجين إذا لم يستطيعا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما وبحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائى يتألف من حكمين : حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ، ليسحنا أسباب الشقاء ويعملا على القضاء على شيراته وبوفقا بين رعات لزوجين حتى يحل الصفاء والوئام محل النفور والخصام ، ولا يتظر الإسلام حدوث الشقاق بالفعل لإجراء هذا التحكيم بل إنه ليأمر به عند مجرد الخوف من حدوث الشقاق ، أى عند وجود بوادر تدر به ولا يمكن للزوجين القضاء عليها بوسائلهما الخاصة . وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدوا إصلاحا

يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴿١﴾ .

ومن الأمور التي قررهما الإسلام كذلك تحاشي الطلاق أنه قد رتب عليه من الحاجتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة وألقى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، وأن من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الإقدام على الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يوفيهما مؤجلا صدقها ويقوم بمقتضاها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت في العدة ، وتكون حصانة أولادها الصغار لها ومقريباتها من بعدها حتى يكبروا . ويقوم بفقرة أولادها منه وأجور حصانتهم ورصاعتهم في دور الحصانة حتى لو كانت الأم نفسها هي التي تقوم بذلك ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتَرْضْنَ أَجُورَهُنَّ ﴾ (٢) .

فإذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ولم تنش الروح عن عزمه على المرفقة ، كان في ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة ، وعلى أن الحياة الزوجية قد فقدت أهم مقوماتها .

فحينئذ يجيز الإسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احتاط الإسلام للأمر فوضع للطلاق نظاما يتيح للزوج في أثناء إحترافات المرفقة فرصة طويلة ليراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية .

(٢) الطلاق ٦ .

(١) النساء ٣٥ .

فقد قرر أن يبدأ الرجل بعد استفاد الوسائل الساقطة جميعا بتطبيق روحته طليقة واحدة رجعية في طهر لم يتصل بها في أنثائه . وإنما قرر ذلك لأن الطهر هو فترة كمال الرعة في المرأة ، والرجل لا يقدم على طلاق امرأته في فترة كمال رغبته فيها إلا لشدة الحاجة إلى التفرقة ، فهي ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تستدعي الطلاق .

فإذا أوقع هذه الطليقة الرجعية الأولى كان محيرا بين أمرين . الأمر الأول أن يراجع زوجته في أثناء عدتها ، ولعدة غير الحامل تستغرق مدة طويلة تبلغ ثلاثة قروء أي نحو ثلاثة أشهر . فالإسلام قد أعطى المطلق حتى بعد الطلاق فرصة طويلة يراجع فيها نفسه ويرد في أنثائها روحته إليه إن كانه ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية ، ولتسهيل الإبقاء على الحياة الزوجية يقرر الإسلام أن هذه المراجعة لا تحتاج إلى أي إحراء وأنها تتم بمجرد اتصال الرجل بمطيقته أو تقبيله إياها . وما إلى ذلك ، كما تتم بمجرد قوله راجعت امرئي أو عبارة من هذا القبيل . وبكى تكثرا بواعث المراجعة ودواعي الإبقاء على الروحة أوجب الإسلام على الروح ألا يخرج روحته المطلقة من منزل الروحية ما دامت في عدتها ؛ قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾... إلى أن قال : ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بَيْتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَاشِيَةٍ ﴾ مكية (١) . ويشير القرآن الكريم إلى تفصيل المراجعة والإبقاء على الروحية إذ يقول : ﴿ وَبِعَوْلَتَيْنِ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ (٢) ، فوصف الرد بأنه إصلاح لما حدث . ويشير القرآن إلى

ذلك أيضا إذ يقول في آية الطلاق : ﴿يَأْتِيهَا النِّسَاءُ إِذْ طَلَّقْتُمْ لِسَاءَ فَطَلَّقْتُمُوهُنَّ لَعْنَتُهُنَّ وَأَحْصُوا الْعَدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَحْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَتَدْرِكُ حُدُودَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ بِنَفْسِهِ﴾ . ويختتم الآية بقوله : ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(١) . فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله قد شرع الطلاق في أول العدة أي في طهر لم يمض الرحل روحته في أنثائه ، وشرع أن تفضل المرأة من بعده في منزل الروحية طوال مدة عدتها ، وشرع كل ذلك ليعطى الروح فرصة طويلة للتأمل ولتكثر بواعث الرجعة ودواعي الإبقاء على الزوجة ، فعلم الله يحدث أمرا بعد ذلك فيرجع الروح عما أبرمه ويراجع روحته

والأمر الثاني الذي يباح للزوج أن يفعله بعد هذه الطلقة أن يترك روحته حتى تبلغ أجلها وتقضى عدتها فتطلق منه طليقة بائنة ، وحتى بعد ذلك يظل الإسلام حريصا على الإبقاء على الروحية وعلاج ما حدث ، فيجبر للروح أن يعيد روحته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين فإذا راجعها إلى عصمته في أثناء عدتها أو تزوجها مرة ثانية بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها ثم شحر بينهما ما يجعله يعزم الطلاق من جديد ، وجب عليه أن يسير في هذه المرة الثانية على الأوضاع نفسها التي شرعت له في المرة الأولى ، ويعطيه الإسلام في هذه المرة الثانية من فرص المراجعة وإعادة الزووجية ما أعطاه في المرة الأولى .

فإذا عاد إلى معاشرته زوجته ثم راجعها في أثناء عدتها أو بالعقد عليها عد قصائنها وبعد أن طلقها مرتين فإنه لا يبقى له عليها بعد ذلك إلا

طليقة واحدة .

فإذا أوقعها عليها في الأوضاع السابق بيانها كان ذلك دليلا على أن الحرق قد اتسع على الواقع ، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين ، وأنها كلما حاولا حرجها احتل عليهما نظامها ، فحينئذ يقرر الإسلام الفرقة بينهما هائيا ولا تحل له بعد ذلك حتى تمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاء تاما ، وذلك لا يكون إلا إذا تزوجت من شخص آخر وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة وبعد تعير الأحوال على هذا الوجه أنه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أقوم وأمثل

وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك معروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، إلى أن يقول : ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ (أى من بعد هذه الطبقة الثالثة) ﴿ حتى تكح زوجها فإن طلقها ﴾ (أى هذا الزوج الآخر طلاقا عاديا وانقصت عدتها سه) ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبيع لقسوم يعلمون ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ يأيها النبی إذا طلقتم النساء فطلقوهن من عدتهن ﴾ (٢) أى طلقوهن في كل عدتهن أى في أول مرحلة فيها ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقها في طهر م عسها فيه ، لأن الحيض والظهر الذي يمس الرجل المرأة في أنثائه لا يحسب من العدة ﴿ وأحصوا العدة وانقوا

(١) البقرة ٢٣٠

(٢) الطلاق ١

الله ربكم لا تخرجوه من بيوتهم ولا يخرجوا إلا أن يأتين بهما حشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقهن بمعروف ﴿١﴾ . وروى مالك في الموطأ عن نافع « أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ — فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ — عن ذلك فقال عليه السلام : مره فبراجعها فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . ويشير عليه السلام بذلك إلى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النِّسَاء إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ ، أى يجب أن يكون الطلاق في أول عدة أى في طهر لم يمس الرجل امرأته في أثناءه .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام وهذه هي إجراءاته المخصوص عليها في الكتاب والسنة ، وإيقاع الطلاق على غير هذا الوجه مخالف لما شرعه الإسلام بل لا تترتب عليه الفرقة في بعض المذاهب ، وهي مذاهب تنفق معصوص لكتاب والسنة السابق ذكرها ، ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام لم يعتد بالطلقة التي أوقعها ابن عمر على روحه في حالة الحيض ولم يعتبرها طلقة ، فقد روى ابن جريج عن ابن الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أبيس يسأل ابن عمر عن ذلك فقال له إن رسول الله عليه السلام « ردّها عليّ ولم يرها شيئاً » أى لم يعتد بهذه الطلقة .

صحيح أن عمر بن الخطاب قد أئتم في أيام خلافته أنواعاً من انطلاق

لا تتفق مع هذا النظام المشروع ، منها طلاق الرجل لامرأته ثلاث طلاقات متتاليات في مجلس واحد أو في طهر واحد . ولكن السبب في ذلك يرجع إلى أن كثيرا من الناس في عهده كانوا قد استهانوا بحرمه الزواج وكثيرا يقع عليهم للطلاق في صور غير مشروعة ليخوفوا روجانهم بذلك ويوقعوا الرعب في قلوبهم حتى يحشون الرجال ويحاذرون إعصائهم حرصا على الروحية . فأراد عمر أن يشدد عليهم وأن يعاقبهم من حسن عملهم حتى يرتدعوا ويرجعوا عن عيهم ويحفظوا للزواج حرمة وقدسيته ولا يتلاعبوا بالتلاعب الطلاق . فأخذ ما كانوا يوقعونه من طلاق مخالف بلوجه المشروع ، وقال في ذلك قوله المشهورة التي نرى بأوضح عبارة عن مقصده : « أيها الناس اقد كان لكم في الطلاق أناة ، وأنه من تعجل أناة الله في الطلاق أزماء إياه » . — فكان ذلك من عمر رضى الله عنه مجرد إلزام بحكم السياسة الشرعية في النظر إلى المصالح ومجرد إخراج مؤقت للرجل ولعلاج حالة طارئة وعادة سيئة انتشرت حينئذ ، ولتحويف الناس من نتائج التلاعب بالطلاق . ولم يكن عرضه أن يقرر تشريعا دائما للمسلمين ولا أن يعبر شريعة الله في لطلاق

ولقد أحسن المشرع المصري صمما إذ قرر في القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع طلاقا واحدة . ويسعى ألا يقتصر المشرع المصري على ذلك وأن يصدر قوانين أخرى تحظر جميع أنواع الطلاق المخالفة للنوع المبين في الكتاب والسنة والذي أشرنا إلى أوضاعه فيما سبق ، ولا تعتمد بعيره من أنواع الطلاق وتعمل ما عداه عبارات من منكر القول ولغو الأئمة ، ففي ذلك إحقاق للحق ورجوع بنظام الطلاق إلى الأوضاع الصحيحة التي سماها الإسلام ونحرف عنها

المسجون فليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو حتى يرغم الرجل نفسه أنه يملك الطلاق كما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، وإنما هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده معا للخرج وعلاها شافيا لما يكون في الأسرة بين الزوجين من شقاق وصرار ، ورسم قواعده وحد حدوده بميران العدالة الصحيحة التامة ، وهى عن تجاوزها وتوعد على ذلك ولذلك تنهى آيات الطلاق دائما بذكر حدود الله والهوى عن تعديها والتحذير من المضارة ، فيقول الله تعالى عقب آيات الطلاق ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (١) ؛ ﴿ وتلك حدود الله سيها لقوم يعمون ﴾ (٢) ؛ ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (٣) ؛ ﴿ ولا تمسكوهن صرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتحدوا آيات الله هروا ﴾ (٤) ؛ ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ (٥)

وحتى لا يكون الطلاق نزوة عابرة ، وحتى يكون لمروج فرصة للتراجع وللمتصلين بالزوجين فرصة للتدخل حتى بعد استماد وسائل التحكيم السابق ذكرها ، ينهى القرآن على أن يقع الطلاق عن يدي شاهدين ، فيقول تعالى في آية الطلاق : ﴿ فإذا بلغن أحسن فأمسكوهن معروف أو فارقهن معروف وأشهدوا دوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ (٦) ولا مانع عندي من أن يؤول المخرج في

(٢) البقرة ٢٣٠ .

(١) البقرة ٢٢٩ .

(٤) البقرة ٢٣١ .

(٣) الطلاق ١ .

(٦) الطلاق .

(٥) البقرة ٢٣٤ .

الآية بالخروج من الطلاق لتلاؤمه مع إيقاع الطلاق أمام شاهدين . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد في الطلاق وأنه ركن من أركانه ، وأن كل طلاق بدون إشهاد يقع باطلا ولا يترتب عليه شيء . وحدها لو أخذ المشرع المصري بهذا الرأي الذي يتفق مع صريح القرآن ويتيح لمن يعزم الطلاق فرصة أخرى للتأمل والتدبر والتراجع عما اعتزمه ، كما يتيح فرصة أخرى للإصلاح بين الزوجين عن طريق الشاهدين اللذين يستدعيان للشهادة على الطلاق وهما يكونان عادة من ذوي الصلة الوثيقة بالزوجين .

هذا لم يدحر الإسلام وسعا في إحاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية رحيمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الإصرار بها ، وذلك بما سسه من نظم رشيده في النفقة والحضانة والعدة والإرضاع وطرق إيقاع الطلاق ورمه .. وما إلى ذلك ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ مَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ مَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا تَعْتَذِرُوا وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ۝ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَهْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَكْسِبْنَ أَرْوَاحَهُنَّ إِذَا تَرَاصُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ، لَا آخِرَ دَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) . ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

(١) البقرة ٢٣١ ، ٢٣٢ .

واتقوا الله ربكم لا تخرجوه من بيوتهن ولا يخرجن ، لا أن يأتين بما حشة ميبة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد طم نفسه ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغ أجلهن فأمسكوهن معروف أو فارقهن معروف ﴿١﴾ . ويقول : ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تنسأوهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن فإن أَرْضعن لكم فآتوهن أجورهن واتسروا بكم معروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴿٢﴾ . ويقول : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان روح وآتيتم إحداهن قطارا فلا تأخذوا منه شيئا فتأخذونه مهتانا وإنما ميساء وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأحد منكم ميثاقا عليطا ﴿٣﴾ .

وبحسب هذا النوع من الطلاق الذي شرعه الإسلام بعد الدخول بالزوجة وتوثيق رباط الزوجية بينهما ، أجاز الإسلام طلاق الرجل لمن عقد عليها قبل أن يدخل بها إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك ، حتى يتفرقا ويعصى الله كلا من سعته ، قبل أن يتم الدخول فيؤدي ذلك إلى الإصرار بكل منهما وإيدائه في مستقبله . ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الرجل في هذه الحالة نصف المهر المتفق عليه ، كما أوجب عليه المتعة للزوجة وهي تعويض لحبر إنحاش الطلاق بقدره الحاكم حسب الظروف وحسب حالة الروح المالية وحسب ما لحق المرأة من ضرر ﴿٤﴾ . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

(٢) النساء ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الطلاق ٦ .

(٤) يرى أبو حنيفة أن متعة كسوة كاملة يقدمها الزوج لخطفته

تعرضوا لمن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ماعا
بالمعروف حقا على المحسين * وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد
فرضتم هن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفوهن أو يعفو الذي بيده
عقدة الكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما
تعملون بصير ﴿١﴾ .

وبجانب هذين النوعين من الطلاق اللذين وكل الأمر فيهما إلى الروح
وحده في الحدود السابق بيانها ، شرع الإسلام أربعة أنواع أخرى من
الطلاق :

(أحدها) طلاق تستند به امرأة ، وذلك إذا كانت قد اشترطت في
عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق وقل
روحها ذلك . ففى هذه الحالة يكون لها حق الطلاق في بعض المذاهب
شروط وأوضاع خاصة .

(وثانيها) طلاق يقع عند الإحلال بشرط اشترطته المرأة في عقد
الزواج . فإذا أحل الزوج هذا الشرط وقع الطلاق في بعض المذاهب ،
على ألا يكون هذا الشرط شرطا فاسدا يتعارض مع مقومات الزوجية
وحدود الله .

(وثالثها) طلاق يوقعه القاضي لإعسار الروح وعدم قدرته على
البقعة أو لاتقاء لصبر أو الضرر أو لفنية الزوج عية طويلة ، وقد أحد
بذلك القانون المصري رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

(ورابعها) طلاق يقع عن راض من الرجل والمرأة كيهما ، ويتم في الغالب عن طريق تبار المرأة عن جميع ما لها عند زوجها أو بعضه أو عن طريق إعطائه شيئا من المال يراضيان عليه ، ويسمى هذا بالخلع ، ويحدث عندما ترى الزوجة تعدد الحياة الزوجية وتخاف إن أقامت مع زوجها على هذه الحال ألا تتمكن من إقامة حدود الله . وإلى هذا النوع يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اتحدت به تلك حدود الله فلا تعتوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . الفقرة ٢٢٩ (١) .

(١) انظر في الأوصاف التي شرعها الإسلام بطلاق نكاح فيما لصديقه العاصم العلامة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعنوان « نظام الطلاق في الإسلام » ، وقد كان هذا البحث من أهم مراجعنا في هذه الفقرة .

هذا ويحاط هذه الأنواع من الفقرة التي شرعها الإسلام من قبل المحول أو من بعده ، ويوجد نوعان من الإجماع ، يقرهما الإسلام ولكن رتب عليهما بعض النتائج .

أحدهم « الإيلاء » ، وهو أن يقول الرجل لامرأته « والله لا أقربك » أو « لا تقربك أربعة أشهر » فصاعدا . فإذا قاربها في أثناء أربعة أشهر لا يحسب ذلك طلاقا عليه ، وإنما تحب عليه الكفارة عن حثه في يمينه إن كان قد أقسم بالله . وإن لم يقربها حتى نصب الأشهر الأربعة اعترب مطلقا في مذهب أبي حنيفة صنفه وحدة دائمة ، « لأنه ظنمها بمع حقها » كما يقول فقهاء هذا المذهب « فعاره الشرع برواين عنه الرواح عند مصي المدة » (السامع جرد ثلث ، ص ١٧٠ =

هذا النظام الرشيد الذي سه الإسلام للطلاق ، مما إذا يأخذ العرجة والمتفرجون على هذا النظام الإلهي الحكيم ؟
يأحدون عليه ، فيما يتعلق بالموضوع الذي نحن بصددده على الأخص ، وهو موضوع المساواة ، أنه قد جعل الطلاق حقا للرجل وحده ، وحرّم المرأة من ممارسته ؛ ويقولون إنه لما كان كل من الرجل والمرأة طرفا في عقد الزواج وشريكا مع الآخر في الحياة ، فإن منح حق الطلاق لأحدهما دون الآخر يتعارض مع أصول التعاقد ومع ما ينشئ أن تكون عليه المساواة بين الحسنيين . وأن الوضع السليم هو ألا يفسخ العقد إلا برضا الطرفين المتعاقدين معا ، أو إذا منح هذا الحق لأحدهما يجب أن يمنح كذلك للآخر .

= وتوابعها ، والميداني على القدوري ، باب الإيلاء) وعند الشافعي إذا مصت الأشهر الأربعة ولم يقرها في أثناءها يوقف أمرها ويخير بين الفء والتطليق (الدائع ، جزء ثالث ص ١٧٢) وفي هذا يقول الله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن سَنَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاعُوا ﴾ أي فإن رجعوا عما أقسموا عليه بأن قاربوا روجاتهم ﴿ فَإِنْ لَّمْ يَفْعَلُوا فَأْذَنٌ بِطَلَاقِهَا فَإِنَّ لِّلَّهِ عَمْرٌ ﴾ (البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧) . ويفضل الإسلام أن يبحث الرجل في يمينه في هذه الحالة ليبقى على الروحية . بدليل قوله تعالى ﴿ فَإِنْ فَاعُوا فَإِنَّ لِّلَّهِ عَمْرٌ ﴾ وحجيم ﴿ وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام) من حلف مكيما ورأى غيره حيا منه فليفعل ما هو حريم وليكفر عن يمينه) (أو كما قال) .

ونبينا . (الطهار) وهو أن يقول الرجل لزوجته « أنت على كظهر أمي » . أو عبارة من هذا القبيل . فلا يجوز في هذه الحالة أن يقرها حتى يكفر عن صهيبة لكفارة التي نص عليها القرآن . وقد استكثر القرآن العهد في عبارات =

وقد فانت هؤلاء أمور كثيرة : فاتهم أن المرأة إن ترم مع الرجل عقد الزواج على سنة الله ورسوله ووفق الشريعة الإسلامية تقبل بذلك أن يتولى الرجل وحده شئون الطلاق في الحدود التي قررها الإسلام ، وتشارك تبعاً لذلك فيما يتعلق بالطلاق عن جميع الحقوق التي يمكن أن تنشأ عن اشتراكها في عقد الزواج . فالروح إذ يمارس الطلاق وحده إنما يمارسه بناء على رضا الزوجة ذلك الرضا الذي يتضمنه عقد الزواج نفسه . وفاتهم كذلك أن الإسلام قد راعى في هذا الموضوع أن المرأة تعلب عليها العاطفة وسرعة الانفعال ، وأنه لا يقع عليها عزم ما من الطلاق فلا يصح مع هذه الأوضاع وهذه الحالات النفسية والقانونية للمرأة أن يوضع في يدها حق النطق كحق الطلاق ، وإلا لأصحت الأسرة مهددة بالانهيار لأضعف نروة عابرة وأوهى انفعال طارئ . على حين أن الرجل لا يدفع في العادة مع عواطفه ووجداناته وانفعالاته تدافع المرأة ؛ وهو وحده من جهة أخرى الذي سيقع عليه غرم الطلاق ؛ هذا إلى أنه القوام على الأسرة البصير بشئونها المقدر لجميع

= قوية كما ستذكر الإيلاء . وإن كان قد رتب على كل منهما النتائج السابقة ، وفي الظاهر يقول الله تعالى ﴿ والذين يظاهرون من سيئاتهم ما من مهادتهم ﴾ إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم . وإسهم ليقولون مكراً من القول وروراً وإن الله لعمر عمرو . والذين يظاهرون من سيئاتهم ثم يهودون لما قالوا ضحوا بقرية من قبل أن يتأسوا ، ذلكم توعدون به والله بما تعملون حبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله ولللكافرين عذاب أليم ﴿ (المحادلة ٢ - ٤) .

ظروفها ؛ فاقترنت الحكمة الإلهية أن يمنح هذا الحق بالقيود التى ذكرناها ، وهى قيود تكفل عدم استخدامه له إلا حيث يقتضى ذلك صالح الأسرة والصالح العام ، وتكفل عدم الإصرار بالمرأة .

هذا إلى أن الإسلام كما تقدم قد أباح الطلاق عن تراعى الطرفين فى صورة الخلع ، بل أباح أنواعا من الطلاق تستأثر بها المرأة إذا تبارك لها الروح عن هذا الحق ويحمل العصمة بيدها ، وأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج شروطا خاصة على أن يفسخ العقد عند عدم الوفاء بهذه الشروط كما سبق بيان ذلك .

وقد طهر مند عهد قريب فريق من المتصريحين المصريين والمتفرجات ابصريات يصحون لأولياء الأمور بأن يبرعوا هذا الحق من يد الزوج والروحة كنيهما ويضعوه فى يد القضاء . فلا تطلق المرأة إلا بدعوى تقام أمام القضاء وتقتنع فيها المحكمة بوجاهة الأسباب التى تدعو إلى ذلك . وهم بذلك يريدون أن يقلوا إلى مصر أحكام القانون المدنى الفرنسى فى الطلاق ويستبدلوه بشريعة الله وإن كانوا لخشتهم لا يصرحون بذلك . ومن المؤسف أن إحدى اللجان الحكومية التى ألفت أخيرا قد أخذت تنقاد لهذا رأى .

وقد عرصا فيما سبق للقوانين الأوربية التى تذهب هذا المذهب وعلى الأحص القانون المدنى الفرنسى ، وبيئنا بالدليل القاطع ما أدت إليه هذه القوانين من تقويض لظام الأسرة وهيار مقومات الأخلاق . هذا إلى أن معظم أسباب الطلاق تنشأ فى أمور لا يصح إعلانها حفاظا على كرامة الأسرة وسعة أفرادها ومستقبل بناتها وبناتها ، فلو حرص على الناس

ألا يطلقوا إلا بعد إعلان هذه الأسباب أمام المحاكم وتقديم الأدلة القاطعة عليها واقتناع القضاة بها لوقوعها بين نارين : فإما أن يؤثر عدم نصيحة أنفسهم وروحانهم وأولادهم بإعلان أسباب الطلاق أمام المحاكم فيبقوا بذلك على أوضاع تأبأها الكرامة ويأبأها الخلق الفاضل وتأبأها مصدحة الأسرة نفسها ، وإما أن يؤثروا إعلانها فيسحلوا بذلك عارا أبديا على أنفسهم وجميع أفراد أسرهم

هكذا إلا أن الإسلام قد قرر نظام التحكيم بين الزوجين فيما يشجر بينهما من خلاف ولكنه قرره في صورة كريمة ببيلة لا تطوى على شيء من هذه المساوىء فقد قرر أن يتألف مجلس التحكيم من حكمين : حكم من أهل الروح وحكم من أهل الزوجه ، أى من رجلين لا يرى كلا الزوجين عضاضة في الإفضاء إليهما بدات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ، وهما من جهة أخرى لا يقلان عن الزوجين في حرصهما على كتمان كل ما يسيء إلى سمعة الأسرة المتحاضمة وعدم إداعته بين الناس لأن كل ما يسيء إلى سمعة هذه الأسرة يسيء إلى سمعة الحكمين نفسيهما لارتباط كليهما بهذه الأسرة برابطة القرابة

ومفضلا عن هذا كله فإن الإسلام قد أحاز تدخل القضاء في هذه الشؤون حينما تدعو إلى ذلك ضرورة ويتوقف على تدخله تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة ، فأحاز للقضاء أن يطلق على الزوج في حالة إعساره وعدم قدرته على العفة وفي حالة عيئه عييه طويله وحيث يدعو إلى الطلاق اتقاء الضرر والصرار كما سبق بيان ذلك .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام كما تدل عليه الأدلة الصحيحة الثابتة

من الكتاب والسنة ، وهو كما رأينا طريق قويم لا عوج فيه ولا أمت ،
وحادة واصحة مستقيمة يسير الإنسان فيها على هدى ونور مبين . نظر
فيه إلى صالح المجتمع وصالح الأسرة وصالح الزوجين ، وحفظت فيه
حقوق كل منهما عما يطابق العدالة التامة لا بعين أحدهما الآخر ولا يعمى
القوى مهما على الضعيف . أعطى الرجل بعض المزايا ومنح المرأة في
مقابل ذلك حقوقا تستعص بها عما يلحقها من استعمال الرجل
حقوقه . وقد لخص القرآن الكريم هذا كله في عبارة موجزة بيعة إذ
يقول : ﴿ ولهر مثل الذى عيهر بالمعروف وللرجال عليهن
درجة ﴾ (١) .

هذا هو نظام الطلاق في الإسلام ، وهو كما رأينا حل يظفر إليه
الإسلام كما يظفر إلى حراة لأند من إجرائها فلا يقرها إلا إذا تعدر
الشفاء بعيرها ، وسط بين الإفراط والتفريط لا تسد مسافده حتى تشقى
الأسرة بتحريره كما هو شأن النظام المسيحى . ولا تتسع كل الانساع
حتى يفقد معه ميثاق الزواج ما له من حرمة وجلال كما هو شأن النظم
المدنية في بعض أمم العرب ، ولا تتوعر طريقه حتى يتلمسه الزوجان
للتكارهان في الاتفاق على دعوى الخطيئة ووصم الأسرة بعار أبدي كما
هو شأن النظم المدنية في أمم أخرى من أمم لغرب .

ومن هذا يظهر أن خير ما يقدمه القادة والمصلحون إلى أوطانهم في
هذا الموضوع هو عدم الانقياد لاتجاهات المتصنعين والمتصنعات ،
والعمل على إشاعة الفهم الصحيح لنظام الطلاق في الإسلام ، وإقامة

إصلاحاتهم وأحكامهم في هذا الصدد على قواعد من ديننا الحنيف
ويصرق الإسلام بين الرجل والمرأة في الميراث ، فجعل الإسلام نصيب
الذكور في الميراث أكبر من نصيب نساؤهم من الإناث و معظم
الأحوال ، فلندكر مثل حظ الأشيين في الأولاد والإخوة والأخوات .
وللروحة من زوجها لمتوفى نصف نصيب الزوج من تركه زوجته ،
ونصيب الأب من تركه ولده يريد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه
في أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية
في الحياة وأعباء المرأة ، فمستولية الرجل في الحياة من الساحة المادية أوسع
كثيرا في الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة
وهو القوام عليها والمكلف بالإيفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان
متزوجا أو سيصبح مكلها بذلك بعد الزواج ، وعلى الرجل وحده تحب
نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لا يكتفها الإسلام حتى الإيفاق على
نفسها ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من
حظ المرأة حتى يكون في ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة
التي رصعها الإسلام على عاتق الرجل وأعمى منها المرأة رحمة بها وحدا
عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

وقد قال واصف باشا بطرس عالى في كتابه هرومية العرب المتوارثة .
كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقتيه
لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقعدة الحسة التي استنها فوق ما هو
بالقواعد والتعاليم التي وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر أنصار امرأة
العملين إن لم يكن أولهم ، فقد كان بين رحيماء وعلدين حليما ، وكان

بين الجانب كثير العطف عليهم عظيم الاحترام والتكريم لهم ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء .

هذا ما قاله واصف باشا بطرس ، ولا عيبك إلا أن يستشهد بقول الله تعالى - ﴿ وما يطق عن الهوى ﴾ « إن هو إلا وحي يوحى ﴾^(١) .

القاهرة في : ٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

المراجع

- القرآن الكريم
 الكتاب المقدس
 صحيح البخارى
 السيرة النبوية
 انسان العيون (السيرة الحلبية)
 بلوغ الأرب
 نهاية الأرب
 إيران فى عهد الساسانيين
 نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى
 اختار
 إحياء علوم لدين
 شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
 حقوق الإنسان فى الإسلام
 محمد رسول الله
 الرسول . حياة محمد
 الإسلام والنظام العالمى الجديد
 الدين القيم
 المستشرقون والإسلام
 بساء النبى
 عبقرية محمد
- لابى هشام
 لعل بن برهان الدين الحلبي
 للألويسى
 للنووى
 لكريستينس — ترجمة د . يحيى الخشاب
 لشيخ الشبلنجي
 للغزالي
 لتقى الدين محمد بن أحمد العاسي
 للدكتور على عبد الواحد وافي
 مولاي محمد على
 ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد
 فرح وعبد الحميد جوده السحار
 مولاي محمد على
 ترجمة أحمد جوده السحار
 لأبى الأعلى المودودى
 لمهندس ركربا هاشم ركربا
 للدكتورة بست الشاطئ
 لعباس محمود العقاد

للصهيل	الروض الأنف
	تاريخ الطبرى
للدكتور زكريا إبراهيم	مشكلة الحرية
لعباس محمود العقاد	فاطمة الزهراء والفاطميون
للواحدى	أسباب النزول
لابن أبى الحديد	شرح نهج البلاغة
للشهرستانى	الملل والنحل

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الأولى

أحمد بن بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
أبو نر الغفاري		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	مجموعة أقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن أبي وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
هزات الشياطين	مجموعة أقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
إبناء أبي بكر الصديق		أكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج يناير سنة ١٩٤٧		
في قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
أهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
قميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الضارح الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة أقاصيص	سنة ١٩٥٢
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلمة الأبطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقح	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

الطبعة الأولى

يناير سنة ١٩٥٨		أم العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان حباء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	الزعر وسيفان
سنة ١٩٥٩	مجموعة القصص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	المصباح
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجارب الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٢	مجموعة القصص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	المهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وإسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد

القصص الدينية

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الانبياء
في ٢٤	قصص الصيرة
في ٢٠	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

محمد رسول الله والذين معه

أكتوبر ١٩٦٥	١ — إبراهيم أبو الأنبياء
مارس ١٩٦٦	٢ — هاجر المصرية أم العرب
سبتمبر ١٩٦٦	٣ — بنو إسماعيل
فبراير ١٩٦٧	٤ — العدنانيون
مايو ١٩٦٧	٥ — قريش
يوليو ١٩٦٧	٦ — مولد الرسول
أكتوبر ١٩٦٧	٧ — اليثيم
يناير ١٩٦٨	٨ — خديجة بنت خويلد
مارس ١٩٦٨	٩ — دعوة إبراهيم
يونية ١٩٦٨	١٠ — عام الحزن
سبتمبر ١٩٦٨	١١ — الهجرة
نوفمبر ١٩٦٨	١٢ — غزوة بدر
يناير ١٩٦٩	١٣ — غزوة أحد
مايو ١٩٦٩	١٤ — غزوة الخندق
يونية ١٩٦٩	١٥ — صلح الحديبية
نوفمبر ١٩٦٩	١٦ — فتح مكة
فبراير ١٩٧٠	١٧ — غزوة تبوك
مايو ١٩٧٠	١٨ — عام الوفود
نوفمبر ١٩٧٠	١٩ — حجة الوداع
ديسمبر ١٩٧٠	٢٠ — وفاة الرسول

رقم الإيداع ٣٠٢٣ / ٧٨

الترقيم الدولي ٧ — ٢٤٢ — ٣١٦ — ٩٧٧